أيلول بلا مطر

وقصص أخرى

من الأدب الانكليزي والامريكي المعاصر

اختارها وترجمها وقدم لها

جبرا إبراهيم جبرا

www.library4arab.com

دار المأمون

www.library4arab.com

www.library4arab.com

www.library4arab.com

أيلول بلا مطر

وقصص اخرى

من الادب الانكليزي والامريكي المعاصر

www.library4arab.com

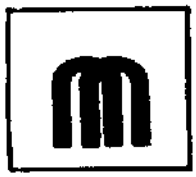

دار المأمون

www.library4arab.com

ايلول بلا مطر

وقصص اخرى

من الادب الانكليزي والامريكي المعاصر

اختارها وترجمها وقدّم لها

www.library4arab.com

جبرا إبراهيم جبرا

دار المأمون للترجمة والنشر

بغداد - ١٩٨٧

ايلول بلا مطر وقصص قصيرة اخرى

Dry September and Other Short Stories

دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والإعلام
حقوق الطبع والنشر محفوظة
رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد (١٢٩٨) لسنة ١٩٨٧
توجه المراسلات الى:
دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والإعلام
بغداد - الجمهورية العراقية
ص. ب: ٢٤٠١٥
تلكس: ٢١٢٩٨٤
طبع بمطابع الدار العربية للطباعة - بغداد
مترجم عن الإنكليزية

www.library4arab.com

إيضاح

www.library4arab.com

بين القصص الاثنتي عشرة في هذه المجموعة، ثمة ست قصص كانت تؤلف اول كتاب صدر لي ببغداد، بعنوان «قصص من الأدب الانكليزي المعاصر». وفي الآونة الاخيرة أعدت النظر في هذا الكتاب، ونقحّته، ثم وسّعته حتى غدا اكثر من ضعف ما كان عليه حجماً، وارجعته إلى الصيغة التي اردتها له أصلاً، والتي أُهملت يومئذٍ بسبب من ملابسات معينة، ولأن الصديق الشاعر حسين مردان، طيّب الله ثراه، استعجل نشر الكتاب في ذلك الوقت حبّاً بالمخطوطة المجتزأة التي رآها عندي. فقد هيأت الكتاب كدراسة موجزة للقصة القصيرة في اللغة الانكليزية في النصف الاول من هذا القرن، اي منذ بداية اساليب الحداثة حتى الحرب العالمية الثانية، قاصراً اختياري، بالضرورة، على عدد من الكتّاب الذين يمثلون أبرز من كتب القصة والرواية بالانكليزية في تلك الفترة.

ج.ا.ج

www.library4arab.com

المحتوى

صفحة

www.library4arab.com

ايضاح ٧
مقدمة ١١
جورج مور: بغية الكاتب ١٥
جيمز جويس: صنوان ٢٣
كاثرين مانسفيلد: الآنسة بريل ٤١
د. هـ. لورنس: ابتسام ٥١
سومرست موام: الشاعر ٦٣
اولدس هكسلي: المونوكل ٧٣
فرجينيا وولف: التركة ١٠٥
شيروود أندرسن: اول النضج ١٢١
ويلا كاثر: جنازة النحات ١٣٧
توماس ولف: اخونا الأبيّ، الموت ١٦٣
ارنست همنغواي: مكان نظيف، حسن الإضاءة .. ١٨٣
وليم فوكنر: ايلول بلا مطر ١٩٥

www.library4arab.com

مقدمة

إذا تأملنا تاريخ القصة القصيرة التي نعرفها اليوم، نجد أنها قد لا تعود في بداياتها إلى أكثر من مئة وخمسين سنة مضت. ولعل إدغار آلن بوهو الأب الشرعي لهذا الشكل الفني، لأنه ترك فيه أثراً حاسماً، وعن وعي، حين أعلن عن فذاذة هذا الشكل ـ كصيغة من صيغ الأدب الكثيرة ـ وحدّد المبادىء العامة التي استرشدت بها القصة القصيرة بعده لأكثر من مئة سنة. وجاءت آراؤه نتيجة لكتابته عدداً كبيراً من القصص التي مازالت تهزّنا بغرابتها ونفاذها وبراعة تركيبها، إضافة إلى تأمله النقدي في روايات وقصص معاصريه. فقد قال في مقال عن كتاب هوثورن «حكايات سُردت مرتين»، عام ١٨٤٢ : «إن القصة المألوفة نعترض عليها بسبب من طولها.. فيما أنه لا يمكن قراءتها في جلسة واحدة، فإنها تحرم نفسها من القوة الهائلة التي تنجم عن «كلّيتها».ثم قال إن على كاتب القصة القصيرة أن يرتب أحداثه بحيث يحقق بها أثراً مطلوباً ومعيّناً مسبقاً، وإن كل ما في القصة يجب أن يسهم في تعزيز هذا الأثر: «في القصة جمعيها يجب ألاّ تُكتب كلمة واحدة لا تنزع، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، إلى الخطة الواحدة المرسومة مسبقاً». وهكذا يترك القارىء القصة

وهو يحمل انطباعاً نـابضاً واحـداً لايمكن ردّه إلى الحبكة، أو الثيمة، أو أي عنصر فرد آخـر، بل إلى التمـازج المتناغم بـين العناصر كلها. ويؤكد بو أن أي شيء يشوب هذه الوحدة أو ينال منها، يجب حذفه من العمل دون هوادة. وهكذا كان على الكاتب أن يتخلّى عن الاستطراد المتواتر والإطناب اللفظي اللذين عرفت بهما القصص التقليدية القديمة. ولأول مرة جعل الادباء ينظرون إلى القصة القصيرة كفن أدبي خاص، يتميّز عن الحكـاية كمـا يتميّز عن «النوفلاّ» (الرواية القصيرة).

وقـد وجدت القصـة القصيرة، بهـذا المعنى الجـديـد، من يتحمّس لها في أمريكا وفرنسا وروسيا بعد منتصف القرن التاسع عشر. غير أنها أهملت في انكلترا كفن حتى أواخر القرن. فالنصف الثاني من القرن الماضي كان لدى الانكليز عصر الرواية الطويلة، المسترسلة التركيب والمضامين، والمعروفة بالرواية الفكتورية. ولم يجد الكتّاب الانكليـز الكبار مـا يجذبهم كثيـراً إلى القصة القصيـرة، لأنها لاتتحمـل عبء الكلمات الـدافقة، والخيـالات البعيدة، واللغة المضخّمة التي تسند الوعظ الأخلاقي ـ مما كان يملأ الرواية الانكليزية يومئذٍ. غير انهم أخذوا يتاثرون، في نهاية القرن، بالقصة الأمريكية والفرنسية والروسية، وكان لإدغـار ألن بو وغي دي موباسان وتشيخوف، بوجه خاص، اثرهم في إقبال الكتّاب الانكليز على القصة القصيرة. إلى أن برز عدد كبير منهم في كتابتها في بدايات القرن العشرين، يجد القارىء نماذج من فنهم في هذا الكتاب.

لقد أخذ القصاصون والروائيون على عواتقهم في هذا القرن

مسؤولية شاقة، في عصر تزعزعت فيه القيم، ودخل الإنسان في التيه من جديد: إنهم يريدون أن يشهدوا بالحق على أزمة الإنسان المعاصر، ويتوغّلوا في تعقيدات حياته طلباً لصورة توضّح بعضاً من معاناته وبحثه المستميت عن خلاصه. وما عاد الكتّاب اليوم يعرفون تلك الثقة الساذجة التي تحلّى بها سلفهم في القرن الماضي، يوم كان الروائيون يعالجون قضايا الحياة الكبرى بشمولية ما عادت اليوم ممكنة. ولذا ركّزوا على نواحٍ محددة من التجربة الإنسانية أرادوا النفاذ فيها، واستخراج زخمها الدرامي ضمن نطاقاتها الضيّقة، وكانت القصة القصيرة وسيلة ناجعة لمثل هذه المحاولة، بحيث نجد أن كل الذين يمثلهم كتابنا هذا، اللهم باستثناء كاثرين مانسفيلد، هم روائيون كتبوا أيضاً القصة القصيرة، وبرعوا فيها، بل كانوا أعظم من كتبها باللغة الانكليزية. والعديد منهم ـ أمثال جيمز جويس ومانسفيلد وهمنغواي ولورنس ـ تعاملوا مع القصة اسلوبياً تعامل الشاعر مع القصيدة، حيث لكل كلمة وكل عبارة وكل صورة مجازية دورها في خلق التاثير الكلي. لقد قللوا من شأن الحبكة، وقللوا من حجم الفعل، وأكثروا من الرمز والإيحاء، والحوار الشديد الدلالة، بلوغاً إلى دواخل التجربة، ودواخل النفس. إنهم لا «يخبروننا» عن هذه الدواخل، بقدر ما «يضعوننا» في صميمها.

وكان اختياري لكل من قصص هذه المجموعة يقرره، إضافةً إلى إعجابي بها فكرةً واسلوباً، واهتمامي بأعمال كاتبها ككلّ، مدى ما تمثل القصة الواحدة فن صاحبها. لكل قصة هنا مقترب مغاير، دلالةً على غزارة التنويع الممكنة في التخيّل والأداء، ولكنها

تتكامل جميعاً في التعبير عن تيار اسلوبي تميّز به النصف الأول من هذا القرن، ممهداً الطريق لأساليب تفرّعت عنه في الفترة اللاحقة. وكانت ترجمتي لها، بمتابعتي هؤلاء الكتاب منذ حداثتي، مزيجاً من الحب والمتعة، ولأقل ايضاً إنها علمتني الكثير عن القصة، لغةً وتركيباً. ولست اشك في أن القارىء سيجد فيها جميعاً، على قصرها وتركيزها، ما يتصف به كل كاتب من اسلوب من ناحية، ومن موقف إنساني من ناحية اخرى، ويتمتع بما في كل قصة من مهارة الصنعة التي يجعلها صاحبها في خدمة الكشف عن طوايا النفس والتجربة، مما يؤكد على اهمية القصة القصيرة كوسيلة من وسائل استقصاء حالة الإنسان، والقلق على مصيره.

جبرا ابراهيم جبرا

بغية الكاتب

جورج مور
١٨٥٢ ـ ١٩٣٣

يستحق جورج مور أن يعتبر من كتّاب القرن التاسع عشر، والقرن العشرين، معاً. فهو يشاطر كتّاب القرنين في الكثير من مواقفهم وأساليبهم، بل إنه بالنسبة لهذا القرن رائد كبير في القصة القصيرة والرواية والسيرة الذاتية. ولئن جاعت فترة انزلق فيها إلى الظل، فإنه عاد فاسترجع الكثير من المكانة التي هو أهل لها. وقد قال عنه فورد مادوكس فورد ذات مرة: «إنه أمهر أدباء عصره ـ بل أمهرهم في العالم».

ولد جورج مور في دبلن بارلنده، وقضى فترة من شبابه في باريس، حيث صادق الرسامين الانطباعيين (وكتب عنهم أحد كتبه عام ١٩٠٦)، وشارك في النهضة الأدبية الارلندية التي كان من أعلامها الشاعر وليم بطلر يتيس ـ ولو انه انتهى إلى خصام معه ـ ثم استقر

زمناً طويلاً في لندن. وقد كان من رواد «الطبيعية» في الأدب الانكليزي، متأثراً بأميل زولا، وروايته «أستر ووترز» (١٨٩٤) من أشهر نماذج الرواية الواقعية في الادب الانكليزي. غير انه لم يتمسّك بطريقته تلك، بل أبدى براعة لغوية يتجدد بها أسلوبه كل مرة في رواياته الثلاث اللاحقة: «البحيرة» (١٩٠٥)، «غدير كريت» (١٩١٦)، و «هلويز وابيلارد» (١٩٢١) ـ والأخيرة من الروائع التي أدركها النسيان زمناً، ثم عاد الاهتمام بها مجدداً في الآونة الأخيرة. ويرى البعض أن روايات جورج مور يجب ان تقرأ بصوت عالٍ لكي يدرك المرء مدى ما في اسلوبه من غنائية الانسياب ودفقه، مع توفر المادة المعقّدة فيه.

من أهم ما كتب مور سيرته الذاتية في ثلاثية عنوانها «سلاماً وداعاً» (١٩١١ ـ ١٩١٤). ولكن إنجازاته العظمى تبرز في قصصه القصيرة التي نشر منها بين ١٨٩٥ و ١٩٢٧ خمس مجاميع، نذكر منها «حقل لم يحرث» (١٩٠٣) و «حيوات عازبة» (١٩٢٧). وكان للأولى ـ كما كان لمعظم كتاباته المبكرة ـ اثر عميق في جيمز جويس، وهي تستبق، موضوعاً وجواً، مجموعة جويس «دبلنيون»، كما تستبق «اعترافات شاب» (١٨٨٦) لجورج مور رواية جويس «صور الفنان في شبابه».

القصة المختارة هنا من مجموعة «حقل لم يحرث».

بغية الكاتب

قضى أدوارد دمبسي ثلاثين عاماً وهو يعمل كاتباً في مصرف شركة «كون أندوي»، وكان يقوم بعمله على خير وجه كأنه خلق له حتى شعر رؤساؤه أن أي تغيير يطرئونه على عمله يكون شؤماً على المصرف. فذروه على عاداته وخلائقه.

ودخل في المصرف شركاء جدد، إلا أن دمبسي لم يبال قط. فما كان ليبالي إلا بمنضدته. فهي هناك بقرب النافذة المعتمة، وهناك أقلامه، وهناك ممحاته، وهناك مسطرته، وهناك ورق نشافه.

وكان دمبسي أول من يصل إلى المكتب وآخر من يغادره. ولم يقبل في بحر الثلاثين عاماً من خدمته إلا إجازة واحدة كانت حديث الكتبة كل الصباح، ثم أغرقوا في الضحك حين دخل عليهم بعد الظهر، قائلاً انه كان يتطلع إلى النوافذ طيلة الصباح، وأنه جاء الآن ليرى سير العمل.

رجل مغمور سكوت قميء، لايشغل من الوجود إلا فسحة تتسع لانكبابه على منضدته، يميل رأسه المخروطي على كتفه كدليل على اتضاعه. ويبدو أنه لم يكن لدمبسي من مطمع سوى أن يتسنى له أن يعفن على منضدته حتى النفس الأخير. وقد كاد هذا المطمع يتحقق لولا وقوع حادث طفيف ـ هو الحادث الوحيد الذي عرض لحياته الرتيبة.

ففي يوم من أيام الصيف، والحرارة تتدفق مع الأشعة في النافذة المفتوحة، هاجت حواسَّ دمبسي الخَدِرة رائحةٌ شذية. فحار في البدء في مبعثها، ثم لحظ أنها تنبعث من رزمة الحوالات التي في يده. وإذا الورقة المعطرة حوالة في حمرة فاقعة في وسط الرزمة.

ويعلم الله أنه قلما رأى زهراً طوال الثلاثين سنة الماضية. فلم يستطع أن يميز عطره، أياسمين هو، أم زهر العسل، أم بنفسج؟ ولكن الحوالات طلبت منه في تلك اللحظة، فسلّمها وعاد إلى عمله كدأبه، طلق اليدين صافي الذهن، إلى أن انقضى النهار.

غير أنه في الليل حين داعب النوم جفنيه، عاودته ذكرى الرائحة الزكية فتساءل لمن تكون تلك الحوالة ياترى؟ وندم على إغفاله النظر إلى التوقيع . وجعل في احايين كثيرة في الاسابيع التالية يتوقف عن الكتابة ليفكر في الرائحة التي لاينساها ـ أرائحة ورد هي أم رائحة ياسمين؟ لكنه كان واثقاً انها لم تكن رائحة ورد.

وتردد في صدره أمل مبهم غامض. وطغت في رأسه أحلام كانت قد قضت، أو لم تكن قد ولدت، كالأسلاب التي تطلع من أعماق البحار. ومرت برأسه اخيلة قديمة كان يحلم بها أو لم يحلم بها قط. وحين جاءت الرائحة العاطرة مرة اخرى، وعرف أنها زهرة دوار الشمس رقص قلمه، وملكته نشوة سحرية عجيبة.

فبحث عن الحوالة في وسط الرزمة. ولما وجدها ضغط بها على وجهه، كانت مكتوبة بخط نسائي رفيع وموقعة بأسم «هنريتيا براون». وإذا الاسم والخط زاخران بمعانٍ خفية غامضة في ذهن دمبسي المضطرب. كفّت يداه عن العمل وأحس على حين فجأة بخيال طارق لايكاد يستبين، أهيف نفّاح الشذى مثل الربيع ـ كأنه ظلٌ نديّ لسحابة هائمة، أو كأنه انبثق من الارض. أم لعله المرأة نفسها؟ أطرق دمبسي وفكر، وطال تفكيره وإطراقه، ولم يغب شرود ذهنه عن زملائه، فعلّقوا عليه بما عنّ لهم.

ولأول مرة في حياته سُرّ لانتهاء ساعات العمل، لأنه كان يريد الوحدة ويريد التفكير. وقد شعر أن لابدّ له من أن يستسلم لهذه القوة التي اقتحمت عليه حياته على حين غرة دون انتظار.

هنريتيا براون! جعل اسمها يتردد في مخليته كصدى لحن يذكره ولا يذكره، ولما حاول أن يتصور جمالها، جعل يقف أمام ما تعرضه واجهات الدكاكين من صور، غير انه لم يجد بفاتنها وحقيرها ما يسعف خياله. فهو لا يقدر ان يتصور هنريتيا براون إلا إذا صرف ذهنه عما يحيط به إلى إحساسه الداخلي بحوالتها العطرة. وجعل آخر كل شهر يأتي الكاتب بحوالة من هنريتيا براون، فينتشي لحظات يغيب فيها عن نفسه.

ثم تملّكه خاطر واحد: إنه لايعلم اصبية هنريتيا براون أم عجوز، جميلة أم قبيحة، متزوجة أم عازبة؟ غير أن العطر والاسم يغنيان، وهما لن ينفصلا عن الفكرة التي شقت طريقها في دماغه ـ فكرة النور والحب والجمال الفطرية في الإنسان، تلك التي كانت ظروف الحياة القاسية قد أكرهت دمبسي على نفيها عن حياته.

كان لدمبسي أمّ عالها سنوات، فلم يدخر درهماً واحداً. لكنه جمع منذ وفاتها قرابة مئة وخمسين جنيهاً تعروه الخشية كلما فكر فيها، كأنه غير مصدق أنها ماله. ثم لايلبث ان يفكر في الذي سيضيف إليها قبل أن يحال على التقاعد. وأنه ليرى مس درهم مما ادّخر خطيئة كبرى، كتدنيس شيء مقدس.

غير أنه لم يتردد هنيهة واحدة في إرسال دبوس من الماس كلفه عشرين جنيهاً إلى هنريتيا براون، التي عرف عنوانها من سجلات المصرف. وأغفل ذكر اسمه وعنوانه، وقضى بضعة أيام في نشوة طاغية. حسبه أن يعلم أنها تلمس شيئاً رآه ولمسه..

ولازمه خيال غادته واستحوذ عليه باله، فأهمل واجباته في المصرف واختل عمله. وجعل مديره يحصي عليه أخطاءه وهفواته مندهشاً لما طرأ عليه. وأصبح هذا التغيير جلياً حتى غدا حديث الكتبة، وما كان موضوعاً لفكاهتهم يوماً اصبح الآن موضوع حزر وتخمين. غير أن دمبسي لم يلحظ من ذلك شيئاً، وراحت خططه في النضوج بين الفكاهات والنظريات.

ثم ألحت عليه رغبة في الكتابة إلى معشوقته ليكشف لها عن نفسه، وبعد تردد قصير ـ إذ كان مدفوعاً بالغريزة أكثر منه بالعقل ـ خطّ رسالة حمّلها شكواه من عسف الظروف التي فصلت بينهما. وجعل شكواه في صيغة لا تدع شكاً في نوع مايعتلج في صدره من أمل.

فكان الجواب رسالة موجزة، دمثة اللهجة، ـ ترجوه الا يلحّ في المراسلة، وتنذره باخبار مدير المصرف إن هو الح. وكان في طي الرسالة الدبوس الذي كان قد أرسله إليها.

غير أن ردّ الدبوس لم يحذّره من ملاحقة خياله. ومرت الايام وغدا

من ضروب المحال عليه أن يكفّ عن خط رسائل الحب وتقديم الهدايا النفيسة كلما سنحت لذلك الفرصة.. وحين كانت الرسائل والهدايا تُرَدّ إليه، يضعها جانباً من غير اكتراث، ثم يشتري أول ما يخطف بصره من الاحجار الكريمة، فيقدم الخاتم والقرط والسوار، بما يعّن له من كلمات الهوى والغرام.

وفي يوم دعاه المدير إلى غرفته وعزّره بغلظة، ثم عفا عنه إكراماً للمدة الطويلة التي قضاها عاملاً بأمانة وإخلاص. غير أن تـوبيخ رؤسائه لم يجد نفعاً، إذ راح يكتب لهنريتيا براون كدابه، وقد أضحى غير مبالٍ بافتضاح سره، تاركاً الدبابيس والرسائل مبعثرة هنا وهناك. وأخيراً جعل الكتبة يهمسون بقصته من منضدة إلى اخرى. ولم يبق للشركة إلا فصل دمبسي عن العمل. ولقد كان بشديد الأسف أن أبلغ الشركاء خادمهم القديم أنهم في غنى عن خدماته.

وإذا دمبسي يدهشهم حين لم تبدُ عليه سمة من سمات الاهتمام، بل بدا عليه كأنه قد نُفّس عنه! وغادر المصرف باسماً وهنريتيا ملء صدره، غير مفكر في الحاجة التي دهمته. ولم يجل في ذهنه قط ان يوسّع ذات يده ببعض ما انتثر حوله من الحليّ، ولا أن يهيم شطر مسكنه ليحزم متاعه. ولم يفكر كيف يأخذ السبيل إلى «أدنبره» حيث كانت تقيم هنريتيا براون.

إنما كان يفكر فيها دون أن تخطر بباله أية وسيلة لإدراكها. وقنع من حياته بأن يجول في الطرقات جذلاً مرحاً، يترقّب خيالها عابراً بين أطراف الحرش، وعلى مفرقها نجمة ساطعة، أو يلمح في اطراف الغابة كتفاً متألقة وقدمين تعدوان إلى الأقصاب. وراح يطوف بين القرى المنبّثة حول «دبلن» والأماني الحلوة تفعم صدره. وأدركه الليل مرة في

إحداها وقد نال الأعياء منه، فدخل حانة في فندق وطلب خبزاً وجبناً.

قال أحد رجلين شريرين كانا بقربه: «آتٍ من بعيد ياصاح؟».

فقال دمبسي: «إني على سفر طويل - إلى الشمال القاصي البعيد...».

قال: «ولماذا أنت بربك ميمم شطر الشمال؟».

قال دمبسي: «إني ذاهب إلى حبيبتي الحسناء، قد حملت إليها هدايا ثمينة من المجوهرات».

فتبادل الشريران النظرات. ولايعسر على المرء ان يتصور كيف أغريا دمبسي على أن يسلمهما مجوهراته، بحجة سؤال صديق لهما في أحد الأركان عن قيمتها. وبعد انتظار قصير دفع دمبسي ثمن خبزه وجبنه وراح يستقصي خبر اللصين. إلا أن وجه هنريتيا براون طمس كل ماعلق بذهنه من تذكّر اللصين والمجوهرات، وهام على وجهه أياماً تغذوه أحلامه وكسرات الخبز التي كانت تجود بها أكفّ المحسنين. وفي النهاية أقلع حتى عن سؤال اللقمة نفسها. وراح خاوي الأحشاء يتأثر الخيال الملوح له من انبثاق الفجر إلى احتضار النهار.

كانت ليلة ناعمة رائعة من ليالي الصيف، حين ألقى دمبسي رأسه لينام النومة الأخيرة. كان قد أرهقه التجوال طيلة النهار، فأنطرح على الحشائش على قارعة الطريق.

رقد هناك وعيناه مصعّدتان إلى النجوم، وقلبه عامر بهنريتيا براون، وشعر بكل ما حوله يغيب رويداً رويداً، وبإحساس مقدس ينساب في أعصابه. بدا له أن هنريتيا تدنو منه شيئاً فشيئاً وتكشف له عن نفسها. ولما كانت حشرجة الموت تتردد في حلقه، وقد فتح عينيه لتتلقيا النظرة الأخيرة، شُبِّه له أن نجماً ساطعاً سقط من السماء واستقر على كتفه.

صنوان

جيمز جويس
١٨٨٢ ـ ١٩٤١

ولد جيمز جويس في دبلن عاصمة ارلنـده، ودرس اللاهوت لكي يصبح راهباً. غير أنه بعد التخرج من الجامعة أقلع عن فكرة الترهب، ثم غادر مسقط رأسه وهو في الثانية والعشرين ولم يعد إلى دبلن حتى موته إلا مرتين. درس الطب زمناً في باريس، ثم احترف تعليم اللغات في إيطاليا وسويسرا لأكثر من عشر سنوات، استقر بعدها في زوريخ ثم في بـاريس، حيث أقام مـدة طويلة يكتب ويعنى بالحـركـات الأدبيـة المستحدثة، ويتزعم بعضها. وقد كان له ولع شديد بالموسيقى حتى انه فكر مرة في أن يحترف الغناء. وفي الحرب العالمية الثانية عاد إلى زوريخ بسويسرا حيث قضى نحبه بعيداً عن موطنه.

كتب مجموعة قصصـه المدعـوة «دبلنيون» Dubliners في سنـة ١٩٠٧، ولكن الكتاب لم ينشر لاسباب سياسية، إلا في سنة ١٩١٤ في لندن. وتتمثل في هذه القصص القمة التي بلغتها الواقعية، بعد ان

كانت قد تبلورت في الثلث الاخير من القرن الماضي. فالكاتب لايزخرف ولاينمق بل يصف كل شيء على ما هو، متخذاً مواضيعه حياة الأهلين العاديين في مدينة يعرفها كل المعرفة، فيتتبعهم في أعمالهم وخيالاتهم، ويصور بؤسهم وجهلهم وملذاتهم الصغيرة، بل انه كثيراً ما يذكر من المدينة أسماء حوانيتها الحقيقية (مما منع طبع الكتاب في دبلن نفسها). والقصة المختارة من هذا الكتاب «صنوان» مثل جيد على بساطة التركيب ودقة التفصيل اللتين يخلق بهما جويس جو المدينة الكبيرة. وهي المدينة التي جعلها موضوعه الدائم في كل ما كتب من كتب بعد ذلك، معالجاً موضوعه كل مرة في شكل جديد.

فجيمز جويس في طليعة الكتّاب الذين تركوا اثراً عميقاً في الرواية المعاصرة، بثورته الأسلوبية وصنعته الدقيقة الشوارد والرموز. وروايته «يوليسيز» (١٩٢٢)، التي قضى سنوات عديدة في تأليفها، والتي واجه عنتاً كبيراً في نشرها في باريس وحظرت لندن نشرها مدة طويلة، ما زالت تعتبر المؤسسة الاولى والأهم للرواية الحديثة ـ وبخاصة في استخدامها «تيار الوعي» الذي أصبح فيما بعد من أبرز تقنيات الرواية في هذا القرن.

روايته الاخرى التي تلت «دبلنيون» وسبقت «يوليسيز» هي «صورة الفنان في شبابه» (١٩١٦). وفيها يستعرض الفورة التي عرفها في صباه، ويتتبع نموه الفكري في تربة من الإيمان والشك، والاستقرار والجموح المتعاقبين، مع حوار كثير يدور حول المسائل الفلسفية التي تقلقه ـ ولاسيما الجمال والخطيئة ـ ويجعل من بطله صورة للشباب الذي يستفيق فيتخبط في يم زاخر من المعرفة والحقائق المتضاربة، بدلاً من ان يجعله ينتقل من مغامرة إلى اخرى، كما في معظم الروايات السائدة.

وفي قصته «صنوان» نجد بداية للجوّ والاتجاهات التي بلغت بجويس في النهاية إلى إبداع شخصيتيه المشهورتين: بلوم وستيفن ديدالس، بطلَيْ «يوليسيز».

صنوان

عندما دق الجرس بعنف ذهبت الآنسة باركر إلى أُنبوب الصوت، وإذا صوت غاضب يصرخ بلهجة أهل شمال ارلنده:

«أرسلي فارنغتون إليّ!».

فعادت الآنسة باركر إلى آلتها وقالت لرجل يكتب على احدى المناضد:

«المستر ألن يطلب منك أن تذهب إليه».

فتمتم الرجل بصوت خافت: «لعنة الله عليه» ودفع كرسيه إلى الوراء ليقوم. وهو إذا وقف طويل القامة ضخم الجسم. له وجه تتدلى جوانبه في لون كلون الخمر القاتمة، أشقر الحاجبين والشارب. وعيناه جاحظتان قليلاً وبياضهما قذر. فرفع العارضة التي تفصل الكتبة عن الزبائن، ومر من بين الزبائن وخرج من المكتب ثقيل الخطى.

صعد الدرج متثاقلاً إلى أن وصل إلى الطابق الثاني حيث كان باب يحمل لوحة نحاس صغيرة مكتوباً عليها «مستر ألن». فتريث قليلاً

وهو يلهث تعباً وحنقاً، ثم قرع الباب. فصاح الصوت الحاد:

«ادخل!».

وحالما دخل الرجل غرفة المستر ألن رفع رجل صغير الجسم رأسه فوق كومة من الصكوك والاوراق - وهو يلبس نظارات لها حواف ذهبية على وجه حليق. أما رأسه فشديد الحمرة منعدم الشعر، يبدو كأنه بيضة كبيرة مستقرة على الاوراق. ولم يضيّع المستر ألن لحظة من الوقت فقال:

«فارنغتون، مامعنى هذا، لماذا تريدني أن أشكو منك دائماً؟ أتسمح فتقول لي لماذا لم تكتب نسخة من العقد بين بودلي وكروان؟ ألم أقل أن عليك أن تحضر هذه النسخة قبل الساعة الرابعة؟».

- ولكن ياسيدي، المستر شلي قال...

- ياسيدي المستر شلي قال.. من فضلك إنتبه إلى ما أقوله أنا، لا إلى مايقوله المستر شلي، ياسيدي. فإن لديك دائماً عذراً لتملصك من العمل. اسمع يا فارنغتون: إذا لم تتم نسخ العقد قبل آخر النهار فسوف أعرض الأمر على المستر كروسبي. أتسمعني الآن؟

- نعم، سيدي.

- أتسمعني الآن؟... نعم - ومسألة اخرى. فالكلام إليك كالكلام الى حائط. فلأقل لك لآخر مرة أن عليك ان تأخذ نصف ساعة فقط للغداء، لا ساعة ونصفاً. فكم صنفاً من الأطعمة تأكل في غدائك من فضلك؟ أفاهم ما أقول الآن؟

- نعم، سيدي.

ثم انحنى المستر ألن برأسه فوق كومة أوراقه. فأمعن الرجل النظر في تلك الجمجمة المصقولة التي تدير أعمال شركة كروسبي وألن، وهو يخمّن مقدار قابليتها للتحطيم. وأمسكت بحنجرته نوبة من الغضب الهائج لبضع ثوان، ثم زالت عنه تاركة وراءها شعوراً حاداً

بالعطش. وأدرك الرجل معنى ذلك الشعور، وأحس بأن لابد له تلك الليلة من أن يسرف في الشرب. وبما أن منتصف الشهر كان قد مضى، فلعله إذا هيأ النسخة في الموعد المحدد يستطيع ان يحصل من المستر ألن على شيء من راتبه مقدماً. ووقف جامداً في مكانه يحدق النظر بالرأس المنحني فوق كومة الاوراق. وإذا المستر ألن فجأة يرفع عالي الاوراق سافلها باحثاً عن شيء ما. وكأنه لم يكن شاعراً بوقوف الرجل أمامه حتى تلك اللحظة، فرفع رأسه بعنف وقال:

«ها! أستبقى واقفاً هناك طوال النهار؟ والله يافارنغتون إنك لاتهتم بضياع الوقت».

كنت أنتظر لاعرف إذا..

- حسناً إذن،لا حاجة لانتظارك لتعرف. إنزل واستمر في عملك.

ومشى الرجل متثاقلاً نحو الباب. وفيما هو خارج من الغرفة سمع المستر ألن يصرخ وراءه قائلاً انه سيعرض الامر على المستر كروسبي إذا لم ينسخ العقد قبل آخر النهار.

عاد إلى منضدته في الغرفة السفلى، وعد الورقات الباقية التي مازال عليه أن ينسخها. فتناول قلمه وغمسه في الحبر. غير أنه استمر محدّقاً كالأبله بآخر سطر كتبه. «ولن يكون برنارد بودلي المذكور في اي حال من الاحوال..» جعل المساء يخيم وبعد دقائق ستشعل أضواء الغاز، وسوف يستطيع حينئذ ان يكتب، وأحس بأن لابد له من ان يروي العطش الذي في حلقه. فوقف وراء منضدته، ثم رفع العارضة كما فعل من قبل وخرج من المكتب. وفيما هو يخرج نظر اليه الباشكاتب نظرة استفهام.

«لاشيء يامستر شلي»، قال هذا، وأشار بإصبعه الى غرض خروجه - كأنه خارج الى المرحاض.

فنظر الباشكاتب الى رف القبعات، ولما رأى انها كلها هناك، وبينها

قبعة فارنغتون، لم يبد اي ملاحظة. أما الرجل فإنه حالما خرج من الباب أخرج من جيبه طاقية صوفية ولبسها على رأسه، ونزل الدرج المخلّع بسرعة. ومن البوابة على الشارع انسل على الرصيف انسلالاً في اتجاه عطفة الطريق، ثم دخل بوابة اخرى بسرعة البرق. واذا هو في حانة أونيل المعتمة، حيث يشعر أن لاخوف عليه الآن. وضع وجهه في النافذة الصغيرة المطلة على البار - ووجهه الملتهب في لون الخمرة القاتمة او اللحمة المسْمَّرة - وصاح:

«إسمع يا بات. أعطنا كأساً من الصافي، وكن ابن حلال».

فأحضر إليه الخمار كأساً من البورتر الصافي، جرعها الرجل دفعة واحدة، طلب إثرها حبة كمون. وعندها وضع بنساً على القاطع وتراجع من الحانة المريحة، منسلاً كما دخل، تاركاً الخمار وراءه يبحث عن قطعة البنس في الظلام.

كان الظلام يرافقه ضباب كثيف ويدحر غسق شباط، وقد أُشعلت أنوار شارع يوستيس، ومشى الرجل لصق الحائط الى ان بلغ باب المكتب وهو يتساءل إن كان في مقدوره أن يهيىء نسخته في الوقت المعين. وفيما هو صاعد الدرج استقبلت أنفه رائحة عطر حادة، فقال لنفسه: «يظهر ان الآنسة دلاكور أتت في اثناء ذهابي الى حانة أونيل». ثم دس طاقيته في جيبه، وعاد الى مكتبه متظاهراً بالذهول.

فسأله الباشكاتب بخشونة: «أين كنت؟ لقد طلبك المستر ألن».

فنظر الرجل الى الزبونين الواقفين خلف القاطع، كأنه يلمّح بأن وجودهما على مسمع منه يمنعه من الإجابة. ولكن بما انهما كانا من الذكور سمح الباشكاتب لنفسه بالضحك قائلاً:

«إنني أعرف هذه اللعبة. ولكن ألا تظن ان خمس مرات في النهار اكثر مما.. على كلٍ ابحث بسرعة عن نسخ الرسائل التي كتبناها في قضية الآنسة دلاكور، وخذها الى المستر ألن».

ولكن مخاطبته على هذا الشكل امام الملأ، مع ركضه الى المكتب، والخمرة التي اجترعها بسرعة، شوشت عليه تفكيره، فلما جلس الى منضدته لكي يبحث عن الرسائل أدرك أنه من المستحيل ان يفرغ من نسخ العقد قبل منتصف السادسة. وكان الليل الدامس الرطب يهبط على المدينة فيثير فيه شوقاً الى قضائه في الحانات يشرب مع اصدقائه وسط وهج الغاز ورنين الكؤوس. واخرج رسائل دلاكور، وخرج من المكتب وهو يرجو الله الا يكتشف المستر ألن ان الرسالتين الأخيرتين مفقودتان.

كان العطر الحاد، الرطب الرائحة، منتشراً طوال الطريق الصاعدة الى غرفة المستر ألن. والآنسة دلاكور امرأة في منتصف العمر يهودية المظهر، وكان يقال ان المستر ألن يتودد اليها ـ أو الى مالها. وكانت تتردد كثيراً على المكتب وتطيل البقاء هناك. فلما دخل الرجل الغرفة رآها جالسة قرب منضدة الرئيس في جو عبق بالعطر وهي تداعب مقبض مظلتها وتهز الريشة السوداء الطويلة التي في قبعتها. وقد أدار المستر ألن كرسيه لمواجهتها، وركز قدمه اليمنى على ركبته اليسرى. فوضع الرجل الرسائل على المكتبة وانحنى باحترام، غير ان المستر ألن والآنسة دلاكور لم يعيرا انحناءه أي اهتمام، بل ضرب المستر ألن بإصبعه على الرسائل ثم نفضها في اتجاهه كأنه يقول له: «حسناً، لك ان تذهب الآن».

عاد الرجل الى المكتب السفلي وجلس الى منضدته مرة اخرى. وحدق بامعان في العبارة التي لم تتم بعد، «ولن يكون برنارد بودلي المذكور في أي حال من الأحوال...» وصار يفكر في انه من الغريب ان شقي الاسم يبدآن بنفس الحرف. وراح الباشكاتب يلح على الآنسة باركر في الاسراع قائلاً انها لن تفرغ من طبع الرسائل قبل آخر موعد لجمع البريد. فأصغى الرجل الى طقطقة الآلة الكاتبة لبضع دقائق ثم

عاد الى نسخته عازماً على إتمامها. غير أن رأسه جعلت تعتريه سكرة خفيفة، وشرد ذهنه الى وهج الحانة وضوضائها. لقد كانت ليلة لا تليق بها إلا أشربة «البنش» الساخنة. وأخذ يكافح في نسخه، غير أنه عندما دقت الساعة الخامسة، كان ما زال عليه ان يكتب أربع عشرة صفحة. قبّحها الله. إنه لن يتمها في الوقت. فود لو يستطيع ان يشتم بصوت عال، أو أن ينزل قبضته بحدة على شيء ما، ولشدة غضبه كتب (برنارد برنارد) عوضاً عن (برنارد بودلي)، فاضطر الى البدء ثانية على صفحة جديدة.

وشعر حينئذٍ بأنه من القوة بحيث يستطيع أن يخرج كل من في المكتب بنفسه، وعرت جسمه شهوة في ان يفعل شيئاً ما، كأن يندفع الى الخارج ويعربد في عمل عنيف، وتذكّر كل الاهانات والمصاعب التي عاناها في حياته فزادت في غضبه.. أيستطيع ان يطلب سلفة من راتبه من المحاسب؟ كلا، لأن المحاسب رجل دنيء، رجل خسيس، ولن يعطيه سلفه.. إنه ليعرف أين سيلتقي بخلانه. ليونارد، وأوهالوران، ونوزي فلين. وأن باروميتر عواطفه ليدل على أن عليه الليلة ان يشرب ويتمتع.

وكانت خيالاته قد أذهلته عما هو فيه انه نودي مرتين قبل ان يجيب. وإذا المستر ألن والآنسة دلاكور واقفان خارج القاطع، والكتبة كلهم ملتفتون يتوقعون أمراً. ولم يكد الرجل أن يقوم عن منضدته حتى بادره المستر ألن بقذيفة من الشتائم قائلاً ان هناك رسالتين مفقودتين. فأجاب الرجل بأنه لايعرف عنهما شيئاً، وأنه كان قد نسخ الرسائل كلها طبق الأصل. واستمرت قذائف الشتم في الانطلاق وكلها قذع ومرارة، حتى لم يستطع الرجل منع قبضته من السقوط على رأس الدمية الكبيرة التي أمامه، قائلاً بحماقة:

«لست أعرف شيئاً عن أي رسالتين مفقودتين!».

فقال المستر ألن: «لست ـ تعرف ـ شيئاً؟لا شك انك لست تعرف شيئاً!».

ثم أُردف، وقد نظر اولاً الى السيدة كأنه ينتظر استحسانها لما يقول: «أخبرني، أتظن أنني مجنون، أتظن أنني مجنون بالمرة؟».

فألقى الرجل نظرة على وجه السيدة، ثم على الرأس الصغير الشبيه بالبيضة، ثم عاد فنظر الى السيدة. وإذا بلسانه ـ قبل ان يعي هو بذلك ـ قد وُفّق الى قول شاف:

«هل من العدل ياسيدي ان تسألني سؤالاً مثل هذا؟».

فاندهش الكتبة حتى وقف النَّفَس في صدورهم لحظة (ولم يكن صاحب النكتة أقل منهم دهشة) وحتى ان الآنسة دلاكور، وهي امرأة بدينة لطيفة المعشر، جعلت تبتسم ابتسامة عريضة. وأحمر وجه المستر ألن الى أن غدا في لون الشقائق، وأخذت شفتاه تنقبضان بفعل غضبة القزم التي تملّكته. فهز قبضته في وجه الرجل حتى صارت ترتعش كأنها مقبض آلة كهربائية قائلاً:

«أيها الوغد الوقح! أيها الوغد الوقح! سأعاملك حسبما تستحق. إنتظر حتى أريك! إما أن تعتذر عن وقاحتك وإما أن تغادر المكتب الآن! والله لتغادرنّ المكتب أو تعتذر!».

وقف الرجل في بوابة مواجهة للمكتب ينتظر خروج المحاسب، آملاً أن يخرج وحده، فرآى الكتبة كلهم يغادرون المكان، وفي النهاية خرج المحاسب بصحبة الباشكاتب. وكان من العبث أن يطلب منه شيئاً ما دام الباشكاتب معه، فشعر أن حالته يرثى لها. فقد اضطر الى الاعتذار الى المستر ألن عن وقاحته بشكل مهين، غير أنه أدرك أن المكتب سيحال على رأسه كورة للزنابير. فإنه ليذكر كيف سيم «بيك». المسكين الذل والهوان على يدي المستر ألن لكي يضطر الى ترك العمل، ليحل محله ابن اخ المستر ألن، فشعر بالوحشة والظمأ والرغبة في

الانتقام تملأ عروقه، وشعر بكره لنفسه وللناس أجمع. لن يمنحه المستر ألن ساعة يرتاح فيها! لسوف تكون حياته جحيماً يتلظى فيه. لقد تصرف تصرف الأحمق هذه المرة، أو لم يستطع ان يحفظ لسانه في فمه؟ ولكن كلا من المستر ألن وصاحبنا لم يستطع ان يساير الآخر منذ البداية ـ منذ اليوم الذي سمعه فيه المستر ألن يقلد لهجته ـ لهجة شمالي ارلنده ـ ليضحك هغنز والآنسة باركر. لقد كانت تلك فاتحة هذا الكره بينهما. لعله يحصل على شيء من النقود إذا طلب قرضاً من هغنز، ولكن لاريب أن هغنز لايملك شروى نقير لنفسه، وكيف يستطيع ان يقرضه درهماً وله غير بيته وبيت آخر لخليلته ينفق عليه؟...

شعر بألم يطغي على جسمه الضخم حنيناً الى الراحة التي يجدها في الحانة، ولما بدأ الضباب يرسل في فرائصه قشعريرة البرد تساءل إن كان «بات» في حانة أونيل سيسقيه ديناً. ولكنه لم يدينه بأكثر من شلن واحد. وما نفع الشلن الواحد؟ غير ان عليه ان يحصل على شيء من النقود، مهما يكن الامر. لقد أنفق آخر درهم كان معه، وعما قريب ستستحيل عليه الاستدانة من أحد. وفيما هو يعبث بأصابعه بسلسلة ساعته، خطر في باله فجأة أن يرهنها في دكان «تري كلي» في شارع فليت ستريت. ما أحسنها من فكرة! لِمَ لم يفكر بها من قبل؟

أسرع الخطى في زقاق «تمبل بار» الضيق، متمتماً لنفسه أن قبحهم الله أجمعين، لأنه سيقضي الآن ليلة شرب ومتعة.. قال الكاتب في دكان تري كلي: «خمسة شلنات». ولكن آخذ الرهائن عرض عليه ستة، وكان في النهاية أن استلم الرجل في يديه ستة شلنات حقاً. فخرج من الدكان فرحاً وقد رتب الشلنات بين ابهامه وسبابته في شكل اسطوانة صغيرة. وكانت الأرصفة في شارع وستمورلاند مكتظة بالشباب والفتيات العائدين من اشغالهم، وقد انبث الصبية بثيابهم الممزقة هنا وهناك يصرخون بأسماء جرائد المساء..فمرّ الرجل بين

الجماهير، ناظراً بارتياح وكبرياء الى مشهد الناس، متطلعاً الى فتيات المكاتب كأنه رئيس مكتب. وكان رأسه مفعماً بأصوات أجراس الترام وضجيج العربات، وقد طفق انفه يشتم بخار «البنش» يتصاعد متلوياً فوق الكؤوس. وفي أثناء مشيه بدأ يهيىء العبارات التي سيقص بها حادثة اليوم لصحبه.

«عندها، كان كل ما فعلت ان نظرت اليه ـ بكل برود، كما لايخفي. ونظرت إاليها. ثم عدت فنظرت اليه ـ بكل بطء، كما لا يخفي ـ وقلت: هل من العدل أن تسألني سؤالاً مثل هذا؟».

كان نوزي فلين جالساً في زاويته المعهودة في حانة «ديفي بيرن». ولما سمع القصة طلب لفارنغتون كأساً على حسابه، قائلاً انها من أحسن ماسمع من النوادر. فطلب له فارنغتون كأساً على حسابه هو. وبعد برهة جاء أوهالوران وليونارد، وأعاد الرجل قصته. فطلب أوهالوران مشروباً من الجعة الساخنة للجميع، وراح يقص حكاية الجواب الذي أجاب هو به الباشكاتب عندما كان يشتغل في شركة كالانز، ولكنه أقر بأن جوابه لم يكن شافياً كجواب فارنغتون.وهنا طلب فارنغتون من الصحب أن يشربوا ما في كؤوسهم لأنه سيطلب لهم مشروباً آخر على حسابه.

وفيما هم يسمّون ما يريدون من مشروب دخل عليهم هغنز، زميل فارنغتون في المكتب، وكان عليه بالطبع ان ينضم اليهم. فطلب منه الباقون ان يسرد قصة الحادث كما رآها هو، فلما رأى خمس كؤوس وسكي ملأته الحميا، وسرد القصة بحيوية عجيبة. فقهقه الجميع عندما أخذ يمثل دور المستر ألن وهو يهز قبضته في وجه فارنغتون، ثم اخذ يقلد فارنغتون قائلاً: «وصاحبنا واقف هنا، رابط الجأش كالأسد»، في حين جعل فارنغتون ينظر الى صحبه من عينين قذرتين مثقلتين وهو يبتسم، وبين الفينة والفينة يستطعم بشفته السفلى

ماعلق بشاربه من قطرات الخمر.

ولما شرب كلٌّ كأسه وقعت بينهم لحظة من الصمت. فأوهالوان معه نقود ولكنه أدرك أنه لم يبق مع زميليه الآخرين شيء، ولذا غادروا كلهم الحانة في شيء من الأسف. ولما بلغوا عطفة شارع ديوك ستريت اتجه هغنز ونوزي فلين يساراً، في حين التفت الثلاثة الآخرون في اتجاه المدينة. كان المطر يسقط رذاذاً على الشوارع الباردة، فلما بلغوا «بالاست اوفس» اقترح فارنغتون أن يذهبوا الى «الدار الاسكتلندية». وهناك كان البار يعج بالرجال وقد علا صخب الألسنة ورنين الكؤوس. فمر الرجال الثلاثة ببائع الكبريت المتسول الواقف بالباب غير آبهين، وكونوا حلقة صغيرة في إحدى الزوايا. وراحوا يتبادلون القصص. ثم عرّفهم ليونارد بشاب يدعى وذرز، كان يقوم على مسرح تيفولي بدور البهلوان والمهرج. فلما أراد فارنغتون ان يسقيهم عل حسابه طلب وذرز كأساً من (ابريش وأبولوناريس) فألتفت فارنغتون - وهو يعرف بالضبط سعر كل مشروب - الى الصحب وسألهم ان كانوا يريدون (أبولوناريس) ايضاً، غير أنهم طلبوا مشروباً ساخناً. وتحول الحديث الى شؤون التمثيل ثم أسقاهم أوهالوران على حسابه، وتلاه فارنغتون بسقيهم على حسابه، ووذرز يكرر أن كرمهم الأرلندي قد غمره، ولذلك وعدهم بأن يأخذهم الى المسرح وراء الكواليس لكي يعرّفهم ببعض الفتيات الحسان. فقال أوهالوران أنه وليونارد سيذهبان معه، ولكن فارنغتون لن يرافقهم لأنه متزوج. فنظر فارنغتون من عينيه المثقلتين القذرتين نظرة ضاحكة، كأنه يقول: «ليس بغائب عليّ انكم تحاولون ان تغضبوني بمزاجكم» وبعد أن سقاهم وذرز على حسابه مشروباً صغيراً، وعدهم بأن يقابلهم بعد قليل من الوقت في حانة موليغان في شارع يوليغ ستريت.

ولما أغلقت «الدار الاسكتلندية» أبوابها ذهبوا الى موليغان وجلسوا في الصالة الخلفية، حيث طلب لهم أوهالوران مشروبات ساخنة، وقد بدأوا يستشعرون حميا الثمالة. وفيما كان فارنغتون يطلب مشروباً لصحبه دخل عليهم وذرز، فسُرّ فارنغتون عندما لم يطلب وذرز إلا كأساً من الجعة. فقد بدأت نقود الجماعة بالاختفاء، ولكن كان ما زال معهم مايكفيهم لبقية الليلة. حينئذ دخلت فتاتان، كلتاهما لابسة قبعة كبيرة، يصحبهما شاب مرتدياً بدلة مربعات، وجلسوا الى مائدة قريبة منهم. فحياهم وذرز ثم قال لصحبه انهم قادمون من المسرح. فجعلت عينا فارنغتون تشردان كل لحظة في اتجاه احدى الغادتين، اذ كان في مظهرها شيء يلفت النظر. فحول قبعتها منديل من الموسلين لونه في زرقة الطاووس، معقود عقدة جميلة تحت ذقنها، وهي لابسة قفازين في صفرة فاقعة يصل كل منهما الى الكوع. فراح فارنغتون ينظر معجباً الى ذراعها المكتنزة وهي تحركها بكثرة وبرشاقة فائقة. ولما بادلته نظرة بنظرة ازداد اعجاباً بعينيها العسليتين الواسعتين، وسحرته بنظراتها المعبرة وان تكن تشيح بوجهها بلطف عنه. وقد نظرت اليه مرة او مرتين، وعندما خرجت مع صديقيها مرّت به ماسة كرسيه بجسمها، فقالت بلهجة لندنية: آه، عفوك! فبات يرقبها وهي ذاهبة نحو الباب أملاً في أنها ستنظر خلفها إليه، إلا انه باء بالخيبة. فلعن فراغ جيبه، ولعن كل المشروبات التي قدمها على حسابه، ولاسيما كؤوس الوسكي والأبولوناريس التي قدمها لوذرز ـ إنه ليمقت الطفيليين من دون خلق الله. وقد غضب لذلك غضباً اذهله عن حديث خلانه.

ولما ناداه ليونارد بأسمه وجد أنهم يتحدثون عن خوارق القوة العضلية، وقد راح وذرز (وهو إنكليزي) يبرز عضل ذراعه مفاخراً الجماعة، الى ان اضطر الاثنان الآخران الى حث فارنغتون على

التحدي لكي يرفع من شرف ارلنده. ولذا رفع فارنغتون كمه وأبرز عضله للجماعة، فقابلت هذه عضلة بعضل وذرز، واقترحت في النهاية تجريبهما. فأخليت المائدة مما عليها. وأركز كلا الرجلين كوعه عليها وقد أمسكت يده بيد الآخر. فإذا قال ليونارد «واحد اثنين ثلاثة» كان على كل منهما أن يحاول أن ينزل يد الآخر الى المائدة. فجمع بارنغتون في نفسه كل ما لديه من جد وعزم.

وابتدأت التجربة. وبعد حوالي ثلاثين ثانية أنزل وذرز يد خصمه ببطء الى المائدة. فازداد احمرار وجه فارنغتون ذي لون الخمرة القاتمة لما أصابه من غضب وتحقير عندما غلبه ذلك الشاب الصغير.

فقال: «لايحق لك أن تدفع يدك! بثقل جسمك ـ العب حسب الأصول».

فأجاب الآخر: «ألم ألعب حسب الأصول؟».

«تعال نجرب مرة اخرى. والغالب من ينزل يد الآخر مرتين من ثلاث».

فابتدأت التجربة من جديد. وبرزت العروق في جبين فارنغتون وتحول شحوب وذرز الى بياض. وصارت يداهما وذراعاهما ترتجف تحت وقر عزمهما. وبعد صراع طويل أنزل وذرز يد خصمه ببطء الى المائدة. فعبّر المشاهدون عن إعجابهم بغمغمة كثيرة، وقال الخمار الذي كان واقفاً قربهما، للمنتصر بلهجة الأحمق:

«آه. هذه هي الشطارة».

فألتفتت إليه فارنغتون وقال مغضباً: «وما الذي تعرفه أنت عن هذه اللعبة، ومن طلب منك ان تدس أنفك فيها؟».

فقال أوهالوران وقد لحظ ما في وجه فارنغتون من أمارات العنف: «شش.. شش! هيا يا أصحاب. لنشرب كأساً صغيرة اخرى ونذهب الى البيت».

وقف رجل عبوس الوجه في زاوية جسر أوكونل، ينتظر الترام الذي سيقلّه الى بيته وقد امتلأ غضباً يلتهب في صدره ورغبة في الانتقام. فقد حُقِّر وخاب أمله ولم ينجح حتى في إسكار نفسه، وليس في جيبه إلا بنسان. وراح يلعن كل شيء. فقد أوحل نفسه مع الرئيس في المكتب، ورهن ساعته، وأنفق كل دراهمه، ولم ينجح حتى في إسكار نفسه. فشعر بالعطش من جديد وتاقت نفسه الى الحانة بجوها الحار النتن. وقد فقد سمعته بالقوة العضلية، عندما غلبه ذلك الولد. فأنتفخ قلبه غيظاً ولما فكر في المرأة التي كانت تلبس قبعة كبيرة، والتي كانت قد مست ظهره وقالت «عفوك» كاد غيظه ان يخنقه.

نزل من الترام عند طريق شلبورن، وجعل يسوق جسمه الضخم سياقه في ظل جدار البيوت المتلاصقة. وما أشدّ ما مقت رجوعه الى الدار. ولما دخل من الباب الجانبي وجد المطبخ خالياً والنار قد خمدت. فصاح الى اعلى:

«آدا، آدا».

كانت زوجته امرأة ضئيلة الجسم حادة الوجه، تخاصم زوجها كلما لم يكن ثملاً، ويخاصمها هو كلما كان. وكان لها خمسة اولاد.

نزل الدرج راكضاً ولد صغير. فقال الرجل وهو ينظر في الظلام.

- من ذلك؟
- أنا يا أبي.
- من أنت. تشارلي؟
- لا يا أبي. أنا توما.
- أين أمك؟
- خرجت الى الصلاة في الكنيسة.
- طيب.. هل تذكرت أن تترك عشاء لي؟
- نعم يا أبي. إنني -

- أشعل القنديل. لماذا تركت المكان في ظلام دامس؟ هل نام أُخوتك كلهم؟

وإذ أشعل الولد القنديل ارتمى الرجل ثقيلاً على احد الكراسي. وأخذ يقلد لهجة ابنه قائلاً، كأنه يحدث نفسه: في الكنيسة. في الكنيسة. يا سلام! ولما اتقد القنديل خبط بقبضتيه على الطاولة وصاح:

«ما العشاء؟».

فأجاب الولد الصغير: «إنني سوف.. سوف.. أطبخه لك يا أبي».

فقفز الرجل هائجاً عن كرسيه وأشار الى النار قائلاً:

«على تلك النار؟ لقد سمحت للنار بأن تنطفىء! والله لأعلمنك كيف تفعل ذلك مرة اخرى!».

وخطا نحو الباب وأخذ عصا المشي المرتكزة وراءه.

ثم قال وهو يرفع كمه لكي يعطي ذراعه مجالاً واسعاً للحركة:

«والله لأعلمنك كيف تسمح للنار بأن تنطفىء!».

فصرخ الولد «آه يا أبي!» وراح يركض مرتجفاً حول المائدة، إلا أن الرجل لحق به وقبض عليه من معطفه. فنظر الولد حوله فزعاً ولكنه إذ لم يجد طريقاً للنجاة سقط على ركبتيه.

فقال الرجل وهو يضربه بالعصا بعنف شديد: «اهمل النار الآن، ولتنطفىء! خذ! خذ، ياكلب!».

وأصابت العصا فخذ الولد ففاه بصيحة ألم. ثم ضم يديه في الهواء وصرخ وصوته يرتعش رعباً:

«آه يا أبي، لاتضربني يا أبي! سوف، سوف أصلي الى العذراء من أجلك.. سوف أصلي الى العذراء من أجلك إذا لم تضربني.. سوف أصلي الى العذراء....».

الآنسة بربل

كاثرين مانسفيلد

١٨٨٨ ـ ١٩٢٣

ولدت في نيوزيلنده، وبدأت تكتب القصص قبل ان تبلغ الثامنة، ونشرت أولى قصصها وهي في التاسعة، وكانت تحرر مجلة منسوخة باليد اثناء تلقيها العلم في المدرسة. ترددت على لندن، ثم بقيت هناك عندما بلغت العشرين، وبدأ اسمها بالظهور، ولاسيما بعد ان اشتركت مع مدلتن مري، وكان ناقداً مشهوراً وأحد اساتذة اكسفورد فيما بعد، ود. هـ. لورنس في تحرير مجلات ادبية ظهرت في فترات متقطعة وبأسماء مختلفة. ثم تزوجها مدلتن مري، ونشر قصصها بعناية خاصة، وكانت تكتب القصة إثر الاخرى، ولشدة انتقادها لنفسها تمزق اكثرها، ولكن صحتها كانت في تدهور مستمر، إذ أصيبت بالسل، فراحت تنتقل من مكان الى آخر للاستشفاء دون جدوى، الى ان ماتت ولما تبلغ الخامسة والثلاثين من عمرها، في فونتنبلو بفرنسا، في المجمّع الذي كان قد أنشأه غورجييف ـ بعد نشر

مجموعتها القصصية «حفلة في الحديقة» بسنة.

جاءت فترة كانت كاثرين مانسفيلد فيها تعدّ من روّاد الفن القصصي الحديث. وهي في قصصها التي تصور في معظمها مشاهد من حياتها في نيوزيلنده ـ أقرب الى تشيخوف منها الى دي موباسان، لأنها لاتهتم بالحبكة، بل ينحصر جلّ همها في جمع التفاصيل بعناية، لكي تبرز من خلالها معنى من معاني الحياة. ولذا ترى في كل قصة من قصصها عاطفة واحدة مركزة، قد تعبّر عن الشفقة أو القسوة أو سخرية الحياة (كما في «الآنسة بريل» هنا). وهي تنتقي تفاصيلها وتفرزها بحرص شديد لتقوي هذه العاطفة ما استطاعت. وأكثر الجمال في قصصها عائد الى دقة ملاحظتها، والجدة الطلية في عبارتها، ومعرفتها لحياة للنساء والاطفال. وقد حاز كتابها «السعادة» على جائزة جمعية «حياة المرأة المعاصرة» الفرنسية، والمقتدون بأسلوبها اليوم كثيرون.

لها ما لايقل عن مئة وتسعين قصة ولكن أشهر مجموعات هذه القصص: «السعادة» (١٩٢٠) و «حفلة في الحديقة» (١٩٢٢).

أخذت قصة «الآنسة بريل» من كتاب «حفلة في الحديقة».

الآنسة بريل

كان النهار رائقاً يتألق وهجه، وقد تبعثرت في السماء الزرقاء بقع كبيرة من الضوء الذهبي، فأمست «الحدائق العامة» وكـأن خمراً بيضاء قد اندلقت على اشجارها. ومع ذلك فقد سرت الآنسة بريل لأنها لبست فراءها. لم يكن في الهواء نأمه، غير ان المرء إذا فتح فمه شعر بقشعريرة طفيفة كقشعريرة تنبعث من كـأس ماء مثلّج قبـل الشرب. وبين آن وآخر تسقط ورقة شجر من حيث لا يـدري أحد، كأنها ساقطة من السماء. رفعت الآنسة بريل يدها ولمست فـراءها وقالت لنفسها: ما ألطف ملمسه بعد أن بقي مخبأ طوال هذه المدة! وكانت قد اخرجته من صندوقه بعد ظهر ذلك اليـوم، ونفضت عنه مسحوق العث ثم نظفته بالفرشاة ودلكت العينين الصغيرتين حتى عاد اليهما بريق الحياة. وخيل إليهما تسألانها بحزن: «ما الذي قد أصابنا؟» آه... ما أجملهما وهما تنظران إليهـا من بين شعر الفراء

الاحمر الناعم... غير ان الانف الذي كان مصنوعاً من مادة سوداء لم يكن مثبتاً في مكانه، فلعله قد اصطدم بشيء ما، ولكن لابأس فإن قليلاً من الشمع الأسود سيثبته في مكانه عندما تقتضي الحاجة.. وقالت تخاطب الفراء: «ياخبيث! لقد عضضت ذنبك وأنت ملفوف حول عنقي وفمك قرب اذني اليسرى!» وكادت تخلعه وتضعه في حضنها لكي تمر بيدها على ظهره الناعم. وشعرت برعشة ملذة في يديها وذراعيها، غير انها عزت ذلك الى المشي في الحديقة. ولما تنفست خيل إليها أن شيئاً يتردد بين الحزن والحبور، في خفة النسيم ولطفه، يتحرك في حنايا صدرها.

كان في الحدائق هذا العصر عدد من الناس أكثر منه يوم الاحد الماضي. وكانت فرقة الموسيقى تصدح بألحان اكثر مرحاً وأشد ارتفاعاً من قبل، وذلك لأن الموسم قد ابتدأ. ولئن تكن الفرقة تعزف كل يوم احد طوال السنة، فإن أيام الموسم ليست كسواها. فهي تعزف الآن كموسيقيّ يعزف أمام افراد عائلته، لايهمه ماالذي يعزف مادامت حلقة المستمعين إليه خالية من الغرباء. وخيل اليها ان قائد الفرقة يلبس معطفاً جديداً ايضاً، بل انها كانت واثقة من ذلك. وهو يضرب الارض بقدمه، ثم يلوح بذراعيه في الهواء، كالديك على وشك الصياح، في حين يجلس الموسيقيون على المنصة الخضراء، ينفخون اوداجهم ويمعنون النظر في اوراق الموسيقى امامهم. واذا بنغمة قصيرة حلوة تصدر عن «الناي» كأنها سلسلة من قطرات برّاقة. فأكدت لنفسها بأنها ستعاد. واعيدت، فرفعت رأسها وابتسمت.

لم يكن جالساً معها على مقعدها «الخاص» إلا رجل وامرأة. أما الرجل فهو شيخ وقور في معطف مخملي، ويداه منضمتان فوق عصا

ضخمة عليها زخارف منقوشة. أما المرأة فهي عجوز بدينة، مستقيمة الظهر في جلستها، وعلى مريولها الموشّى لفافة من خيوط الصوف. وقد خاب امل الآنسة بريل جين لم يتجاذبا اطراف الحديث، لأنها كانت شغوفة بالاصغاء الى حديث من حولها. وهي تعتقد انها اضحت خبيرة في استراق السمع، كأنها تحتل مكاناً لنفسها ضمن نطاق حياة الناس برهة وهم حولها يتحدثون، ثم تنتقل الى غيرهم.

نظرت من طرف عينيها الى العجوزين، وقالت لعلهما سيذهبان عن قريب. وتذكرت ان يوم الاحد السابق لم يكن فيه من المتعة ما اعتادت عليه، اذ لم يجلس على مقعدها الا انكليزي وزوجته، وكان هو يلبس قبعة «بناما»، قبيحة، وهي تلبس حذاء ذا أزرار، وقد راحت طوال الوقت تتحدث عما اذا كانت ستلبس نظارات ام لا. فهي تعرف أنها في حاجة الى النظارات، ولكن لا ريب عندها انها سرعان ماستكسرها او ان النظارات لن تستقر مكانها. أما الرجل فكان صبوراً جداً. فأقترح على زوجته كل أنواع الاقتراح ـ الحواف الذهبية، والنظارات التي تلتف حول الاذن، وتلك التي لها قطعة صغيرة من اللباد فوق الانف.. ولكن ما من شيء يرضيها إذ قالت: «مهما تكن فإنها ستنزلق على انفي».

وكم ودت الآنسة بريل حينئذٍ لو هزت المرأة بيديها هزة عنيفة.

جلس العجوزان على المقعد لا يتحركان كأنهما تمثالان. ففكرت الآنسة بريل: لابأس فلأراقب الجمهور. وكانت الجماعات والازواج من الناس يتمشون ذهاباً وإياباً أمام أحواض الزهور ومنصة الموسيقيين. أو يتوقفون قليلاً للحديث أو التحية، أو لإبتياع باقات الزهور من متسول هرم كان قد ربط (بسطته) الى قضبان الحواجز

الحديدية. وكان الاطفال يتراكضون بينهم يصيحون ويضحكون. الصبية منهم يلبسون ربطات حريرية بيضاء تحت ذقونهم والبنات، كالدمى الفرنسية الصغيرة، يلبسن فساتين المخمل والدانتل. وكان هناك طفل يخرج فجأة من تحت الشجر الى العراء، ثم يجلس فجأة على الارض، الى ان تسرع امه اليه بخطاها الواسعة ـ كأنها دجاجة صبية ـ وتأخذه بين يديها وتعنّفه. ومن الناس من كان يجلس على المقاعد والكراسي الخضراء، ولكنهم لم يتغيروا قط: فهم هم كل يوم أحد، ويكاد يكون في كل منهم ـ وهذا ما لاحظته الآنسة بريل ـ شيء يبعث على الضحك. فهم غريبو المظهر، يؤثرون الصمت. وكلهم تقريباً طاعنون في السن، يلوح عليهم عندما يحدقون بكل ماحولهم كأنهم جميعاً قد خرجوا منذ دقائق من حجرات صغيرة مظلمة ـ بل كأنهم قد خرجوا من خزائن المطابخ.

كانت الاشجار خلف منصة الفرقة الموسيقية هيفاء تهدلت عليها اوراقها الصفر، ومن خلالها يرى خط رفيع من البحر، والسماء الزرقاء من فوق تشوبها غيوم كعروق من الذهب.

وراحت الفرقة تعزف: تم تم تم. تدل تم. تم تدلي تم تا.

جاءت فتاتان لابستان لباساً احمر، فإلتقى بهما جنديان لابسان لباساً أزرق. فتضاحكوا، وتأبط الواحد ذراع الاخرى وغادروا المكان فرحين. ثم مرت امرأتان قرويتان تلبس كلتاهما قبعة قش مضحكة الشكل، تقودان حمارين أسمرين جميلين. وتلتهما بسرعة راهبة شاحبة الوجه جامدة المحيا، وبعدها جاءت حسناء فسقطت منها وهي تمشي باقة من البنفسج. فلحق بها ولد صغير لكي يسلّمها الباقة، غير انها اخذتها منه والقت بها على الارض كأن البنفسج قد تسمم.

فتمتمت الآنسة بريل: ياسلام! ولم تدر أتعجبه بذلك ام لا. ثم التقى أمامها امرأة تلبس معطفاً من فرو «الأرمين» ورجل في بدلة رمادية طويل القامة، متصلب الحركة، بادي الرزانة. واما المرأة فقد كانت تلبس معطف الأرمين الذي اشترته أيام كان شعرها اصفر الصبغة، ولكن شعرها الآن، ووجهها، بل وعينيها ـ وكل شيء فيها ـ قد حال لونه حتى اصبح في لون فراء الأرمين الرث. ولما رفعت يدها في قفازها المنظف لكي تضع شيئاً من الأحمر على شفتيها، بدت اليد كأنها مخلب صغير اصفر، ويالله كم سرت للقياه، وكم فرحت! (هذا ما سمعتها الآنسة بريل تقول) بل لقد حزرت انهما سيلتقيان بعد ظهر ذلك اليوم! وراحت تصف الاماكن التي ترددت عليها، هنا وهناك وفي كل مكان، وعلى شاطىء البحر. وسألت الرجل قائلة: إنه لنهار جميل، أليس كذلك؟.. غير انه هز برأسه واشعل سيجارته، ونفث الدخان الكثير ببطء في وجهها. وبينما هي لاتزال تتحدث وتستضحك، نفض عود الكبريت من بين إصبعيه واستأنف مشيه.. فوقفت ذات معطف الأرمين وحيدة وابتسمت ابتسامة براقة، ولكن حتى الموسيقيين انفسهم عرفوا ماجال في صدرها من المشاعر، فامتلأ لحنهم حناناً ورقة، وجعل الطبل يردد: «ياوحش! ياوحش!» وإذ استرسلت الآنسة بريل في التخمين ماعساها ان تفعل او ما الذي سيحدث الآن، التفتت ذات معطف الأرمين ورفعت يدها كأنها رأت على مسافة منها رجلاً افضل من الاول بكثير، واندفعت مهرولة. فغيرت الموسيقى ألحانها، فإذا هي متسارعة مرحة. وقام العجوزان عن مقعد الآنسة بريل وغادراها، في حين جاء شيخ هرم مضحك الشكل ذو شارب طويل يمشي على وقع الانغام، كادت ان تسقطه ارضاً فتيات أربع كن يمشين صفاً واحداً عرض الطريق.

فراح لسان حال الآنسة بريل يقول: ما أشد ما تخلب اللب هذه المشاهد وتثلج الصدر! وما الذّ جلوسي هنا ارقبها، كأنها رواية مسرحية ـ بل ما اشبهها برواية مسرحية! فمن لايصدق ان السماء إنما هي مرسومة بالزيوت على ستارة؟ ولما جاء كلب صغير يمشي الهوينا، كأنه كلب مخدّر يمشي على منصة المسرح، ادركت الآنسة السر في فتنة ذلك الجو. انهم جميعاً على المسرح! فهم ليسوا مشاهدين فحسب، بل هم ممثلون ايضاً. وحتى هي نفسها لها دورها في هذه المسرحية كل يوم احد، وما من ريب في انها لو تخلفت مرة عن الذهاب لافتقدها البعض، لانها جزء من المسرحية. كيف لم تفكر في هذا من قبل؟ على ان هذا قد علل الآن سبب مغادرتها الدار في الوقت نفسه من اليوم نفسه كل اسبوع ـ لكي لاتصل الى المسرحية متأخرة ـ كما انه علل ذلك الشعور الغريب المشاب بالخجل الذي كان يعتورها كلما قصت على طالباتها الانكليزيات كيف قضت بعد ظهر يوم الاحد. لاعجب اذن! وضحكت الآنسة بريل بصوت مرتفع: إنني ممثلة على المسرح! وتذكرت حينئذ الشيخ المريض الذي كانت تقرأ له الجريدة وهو نائم في الحديقة بعد الظهر اربع مرات في الاسبوع. كانت قد اعتادت رؤية رأسه الواهن غارقاً في الوسادة، وعينيه الغائرتين، وفمه المفتوح، وانفه المرتفع. ولو كان ميتاً وهي تقرأ له لما عرفت، ولما اهتمّت. بيد انه ادرك فجأة ان المرأة الجالسة بقربه ممثلة، فرفع رأسه الشائب، وتراقصت في عينيه الغائرتين نقطتان من البريق وقال: «ممثلة؟» ثم اعاد القول: «ممثلة؟ ـ احقاً أنت ممثلة؟» فنشرت الآنسة الجريدة بين يديها كأنها نسخة الدور الذي تحفظه وقالت بلطف: «أجل. لقد مرّ عليّ زمن طويل وأنا ممثلة».

كانت الفرقة قد توقفت عن العزف، فبدأت الآن من جديد، وعزفت لحناً جميلاً يخيل الى السامع ان الدفء والشمس في ثناياه. ولكن فيه شيئاً من القشعريرة ـ او شيئاً ما، ما عساه يكون؟ ـ لا، ليس حزناً ـ شيئاً يحدو بالسامع الى الغناء. ثم ارتفع اللحن وارتفع، وتألق الضوء، الى ان خيل الى الآنسة بريل ان جميع من هناك شيبد أون بعد برهة بالغناء، فيكون الصبية الضاحكون الذين يتمشون زرافات اول من يبدأون، ثم تنضم الى اصواتهم اصوات الرجال القوية المتحدية، وبعد ذلك فإنها هي ايضاً ـ هي ايضاً ـ والآخرين الجالسين على المقاعد سينضمون اليهم بغناء اشبه بمرافقة الآلات الموسيقية ـ غناء خافت لايكاد يرتفع او ينخفض، غناء جميل يملأ حنايا الصدر. واغرورقت عينا الآنسة بالدموع، ونظرت باسمة الى جميع الناس الذين حولها وهي تقول لنفسها: أجل، إننا فاهمون، إننا فاهمون ـ أما ما الذي كانوا يفهمون فإنها لم تعرف .

وفي تلك اللحظة نفسها جاء فتى وفتاة، وجلسا حيث كان العجوزان من قبل. كانا يرتديان ثياباً انيقة، وكانا عاشقين.. البطل والبطلة، طبعاً، قادمان من «يخت» ابي البطل. وفيما كانت الآنسة بريل ماتزال تغني دون حسّ، والابتسامة ترتجف على شفتيها، ارهفت اذنيها لتستمع الى ما يدور بينهما من حديث.

قالت الفتاة: «لا، ليس هنا، ليس هنا، لا اقدر هنا».

فسألها الفتى قائلاً: «ولم لا؟ الأنك تستحيين من تلك العجوز الحمقاء الجالسة على طرف المقعد؟ ما الذي يدفعها الى المجيء هنا؟ من يريدها هنا؟ ولماذا لاتُبقي وجهها السخيف في البيت؟».

فأنطلقت ضحكة رنانة من حلق الفتاة وقالت: «إن الذي يضحكني

هو فراؤها. إنه يشبه سمكة مقلية تماماً».

قال الفتى في همسة غضبى: «اذن دعي عنك كل هذا...» وأردف: واخبريني ياحبيبتي الصغيرة...

فقالت: «لا، ليس هنا. لننتظر قليلاً».

* * *

كان من دأب الآنسة بريل وهي عائدة الى الدار ان تشتري قطعة من كعك العسل من الخباز، وهي اشهر ما تبتاعه كل يوم احد. وكانت احيانا تجد لوزة في قطعة الكعك فتعلق على ذلك اهمية كبرى، فإذا كان في القطعة لوزة، عادت الى الدار وكأنها تحمل هدية صغيرة تفاجىء بها نفسها ـ هدية كان من المحتمل الا توهبها. فتسرع الى غرفتها في ذلك اليوم وتشعل عود الكبريت (لكي تغلي ماء الابريق للشاي) بحماس مدهش.

غير انهااليوم مرت بدكان الخباز، وصعدت الدرج، ودخلت غرفتها الصغيرة المظلمة ـ وغرفتها اشبه بخزانة في مطبخ ـ وجلست على اللحاف الاحمر، وبقيت جالسة هناك مدة طويلة. كان الصندوق الذي اخرجت منه فراءها ملقى على السرير. فرفعت الفراء عن عنقها بسرعة، وبسرعة وضعته في الصندوق دون ان تنظر.غير انها لما وضعت الغطاء عليه، خُيل اليها انها سمعت شيئاً يجهش بالبكاء.

ابتسام

د. هـ لورنس
١٨٨٥ ـ ١٩٣٠

لا يزال دافيد هربرت لورنس موضوعاً للنقاش والجدل، والنقاد والقراء يختلفون في شأنه اختلافاً لايزال محتدماً، وهذا دليل على الأثر البالغ الذي تركه لورنس في الأدب الحديث، بشدة لهجته وعنف فكره وتمسكه برأيه الذي يكرّر التعبير عنه في كل شيء يكتبه.

من الصعب أن نوضح رأيه هذا في الحياة والفن بكلمات قليلة، وهو الذي قضى حياته في شرحه وتفصيله. لقد كتب الروايات، والقصص، والمسرحيات، والشعر، كما كتب في النقد والرحلات. كان شعره حرّاً يدور في معظمه حول الطيور والحيوانات والزهور، بأسلوب مستفيض يكاد يعجز عن ضبطه شكلاً، لاهتمامه بنقل الصدق في مشاعره الجامحة دائماً، والتأكيد على موقفه من الحياة بمظاهرها جميعاً. وكان في نقده يبالغ بنبرته الشخصية، غير أنه كثيراً ما يتوهج بنفاذه وحساسيته. وقد بقي من أهم كتاب هذا القرن حتى اليوم، عبقرياً

لاجدال في قوته وعمقه. ولد فقيراً وعاش ومات فقيراً، لأنه رفض ان يهادن المتاجرين بالفكر والناس حتى النهاية.

يريد لورنس من الانسان ان يعود الى حياة البساطة كالأقدمين، فيتصل مرة اخرى بالتربة التي يرى في خصبها رمزاً لكل ماهو جميل في حياته وحياة الحيوان. فلورنس لا يرى في مجالي المدنية الحاضرة إلا قبح الآلة وتحكمها بالروح، ويجد في العلاقات الاجتماعية القائمة تحت ظل هذه الآلة نفاقاً وظلماً ورجساً، ولذا يريد التحرر والانطلاق الى رحاب الارض حيث يبني الناس علاقاتهم على أساس من العاطفة الصرف والغريزة الفطرية،، وهو يرى ان المرأة في هذه المدنية تستعبد الرجل لهواها الى ان تقضي عليه، ولذا فهي مدنية انثى ذابلة الروح، لايتسنى للجسم فيها ان يحقق إمكانياته وليصبح مرآة للروح الوثابة فيه كالعصارة في النبات. ولذلك تجد أن الرجال في كتاباته على نوعين: نوع تحرر فأصبح كما يشتهيه لورنس (وهـذا النوع دائمـاً يشبه لورنس، فإن أبطاله كلهم صور مختلفة لنفسه)، ونوع مستعبد، عنا لمقتضيات الحضارة فضيّع رجولته، وقضى على نفسه بخسارة الحياة الحقيقية.

ولد لورنس في بلدة كلها مناجم فحم قرب نوتنغهام، وكان أبـوه فحاماً معدماً، غير أن أمه كانت على شيء من الثقافة. ولما كبر مرهف الحس تأثر بأمه وتعلق بها تعلقاً شديداً، حتى ليرى القارىء تأثير حبه لأمه في أكثر كتبه، فإنه جعل يرى في حب الرجل للمرأة رغبته في الرجوع الى رحم أمه كالجنين. ولفقره الشديد في صباه اضطر الى مغادرة المدرسة لطلب الرزق زمناً، ثم درس مدة قصيرة في جامعة نوتنغهام، وبعدها عاد الى التدريس وانصـرف في الوقت نفسه الى

الكتابة. ثم انقطع عن العمل، وصمم على ان يعيش من كتبه، بعد ان نشر اولى رواياته. وفي سنة ١٩١٤ تزوج من البارونة فريدا فون ريختوفن: (بعد ان هجرت زوجها عشيقةً له)، ولم يعش معها حياة استقرار. غير أنه استمر في الكتابة دون وقفة، وبعد نهاية الحرب العالمية الاولى جعل يرحل مع زوجته في بلاد الارض يبحث عن مكان يستطيع ان يحيا فيه الحياة التي يتحدث عنها في كتبه. وقد تعرّف في أثناء ذلك على عدد من اعظم كتّاب عصره، ولكنه كان ينظر إليهم نظرة ريبةٍ وحيطة، شاعراً انهم يتآمرون عليه لضعة اصله، غير أنهم في الحقيقة كانوا معجبين وفخورين به.

ولشدة ما أرهق نفسه بالتجوال والكتابة والحديث، وقد كان مصاباً بالسلّ في الشطر الأكبر من سني عمره، مات عام ١٩٣٠ وهو في الخامسة والاربعين،في بلدة قرب نيس بجنوب فرنسا،والعالم ضاجّ بكتبه، بين مستحسن ومستنكر. أما المستنكرون فكانوا يتحاملون عليه بتهمة الخلاعة، في حين أن كتبه وحياته تدل على فرط تعلقه بحياة الروح على الغرار الذي كان يطالب به.

وجاء موته عند صدور روايته «عشيق الليدي تشاترلي»، التي لم تسمح السلطات في لندن بنشرها بنصها الأصلي الكامل حتى عام ١٩٦١، وذلك بعد محاكمة مشهورة بُرِّئت فيها من تهمة البذاءة.

من أحسن كتبه رواية «أبناء وعشاق» (١٩١٣)، وهي عن حياته، وروايتا «قوس قزح» و «نساء في الحب» (١٩٢٠). ويتجلى فنه على أروعه في قصصه القصيرة، والقصيرة الطويلة ـ وبخاصة «الرجل الذي مات» و «الثعلب» و «العذراء والغجري» و «المرأة الهاربة».

اخذت قصة «إبتسام» من مجموعة «المرأة الهاربة» (١٩٢٤).

ابتسام

كان كل ما في البرقية أن «حالة أوفيليا خطرة». فعزم على السهر طيلة الليل كضرب من التكفير، إذ شعر أن ذهابه الى الفراش في عربة النوم، في ظروف كهذه، إنما هو استخفاف بأوفيليا. ولذا بقي جالساً في عربة الدرجة الاولى وقد اخذ منه التعب، والليل يسدل ستائره على فرنسا.

كان عليه في الحقيقة أن يكون الآن جالساً قرب فراش أوفيليا، ولكن اوفيليا لاتريده بقربها، ولذا بقي جالساً يسهر في القطار.

كان في أعماق نفسه ثقل هائل، كقرحة مملوءة يأساً، تنوء به احشاؤه. وبما أنه كان دائماً ينظر الى الحياة نظرة الرزين، غمرته الرزانة الآن حتى بدا وجهه الحليق الأسمر الجميل كوجه المسيح على الصليب، وحاجباه الأسودان الثقيلان مشدودان بعنف، لحدة ما يناوشه من ألم.

كان الليل في القطار جحيماً وما من شيء فيه حقيقي. فقد كانت المرأتان الانكليزيتان المتوسطتا العمر والجالستان إزاءه قد ماتتا منذ زمن، ولعلهما ماتتا قبل أن يموت هو نفسه. لأنه بالطبع كان ميتاً.

بدأ الفجر الاشهب ينبثّ رويداً في الجبال التي على الحدود، فنظر إليه، بعينين لا تريان. ولكنه جعل يردد في فكره:

ولما قدم الفجر معتماً كئيباً
قارساً في برده مع زخات المطر الباكرة
أطبقت جفنيها الهادئين، فكان لها
صباح غير صباحنا...

غير أن وجهه الرهباني المعذب الذي لا تتغير قسماته لم تبد عليه أمارات الاحتقار الذي ملأ صدره، أو أمارات احتقاره لنفسه، لهذا السقوط في عاطفته.

وصل الى إيطاليا. فنظر الى ما حوله بشيء من الكره. وإذ ما عاد يقوى عل شعور كثير، فقد استشعر كرهاً طفيفاً فقط حين رأى الزيتون والبحر، كأن في الأمر خدعة شعرية.

كان الليل قد هبط ثانية عندما بلغ دار «الأخوات الزرق» حيث شاءت أوفيليا أن تقيم.فأدخل الى غرفة رئيسة الراهبات في القصر. فنهضت، وحنت رأسها له صامتة، ونظرت إليه من طرف أنفها، ثم قالت بالفرنسية:

«يؤلمني أن أخبرك أنها ماتت بعد ظهر اليوم».

فوقف غائب الذهن، غير شاعر بشيء، ناظراً الى اللاشيء من وراء وجهه الرهباني الجميل القوي التقاطيع.

وضعت رئيسة الراهبات يدها البيضاء الجميلة بخفة على ذراعه

ناظرة الى وجهه. ثم مالت إليه وقالت بهدوء:

«تشجع. تشجع».

فتراجع الى الوراء لأنه كان دائماً يتذعر إذا مالت إليه إمرأة على ذلك النحو. ورئيسة الراهبات في أثوابها الفضفاضة فائضة بالانوثة.

أجاب بالانكليزية: «طبعاً. أتسمحين لي برؤيتها؟».

قرعت الرئيسة جرساً فجاءت راهبة صبية. وهي شاحبة بعض الشحوب، ولكن في عينيها السمراوين شيئاً ما، ساذجاً ولعوباً معاً. فتمتمت الرئيسة بكلمات التقديم، وحيّت الصبية الرجل بحياء تحية لطيفة. غير ان ماثيو مد يده كغريق يتشبث بآخر قشة. ففردت الراهبة الشابة يديها البيضاوين. ودفعت بخجل أحداهما في يده. وإذا يدها سالبة في الملمس كعصفور نائم.

وإذا هو يفكر في أعماق جحيم بؤسه التي لا تُسبر: ما أطيب هذه اليد!

دخلوا في رواق جميل، لكنه بارد، ثم قرعوا أحد الأبواب. أما ماثيو فما زال، وهو يمشي في جحيمه البعيد، يحس بالفضفضة الناعمة الجميلة الحفيف، التي في ثياب المرأتين السوداء، وهما تتقدمان أمامه بسرعة ملؤها رفرفة وخفة.

ومسّه الرعب عندما فُتح الباب ورأى الشموع تحترق حول الفراش الأبيض في تلك الغرفة البهية العالية الجدران، وقد جلست قرب الشموع. راهبة لها وجه أسمر بدائي تحيط به قبعة الرهبنة البيضاء. رفعت عينيها من كتاب الصلاة، ثم نهضت إمرأة قوية الجسم، وانحنت قليلاً بالتحية، فأحس ماثيو بيدين في بياض الحليب وسمرة الغسق تلفان مسبحة سوداء فوق الحرير الازرق الصقيل

الذي يكسو صدرها.

أسرعت الراهبات الثلاث الى رأس السرير صامتات لكن في رفرفة كلها أنوثة بين أطواء ثيابهن الحريرية السوداء. فأنحنت الرئيسة ورفعت برقة النقاب الأبيض عن الوجه الميت.

وحالما رأى ماثيو سكون الموت الجميل على وجه زوجته وثب في أعماق نفسه شيء كالضحك: فصدر من حلقه صوت قليل ثم غشت وجهه ابتسامة عجيبة.

كانت الراهبات الثلاث يرمقنه بعيون مثقلة بالرأفة والعطف من تحت قبعاتهن، وهن واقفات في ضوء الشموع الذي كان يرتعش دافئاً متألقاً، كشجرة عيد الميلاد. فكن كمرآة. وإذا ست عيون تجفل فجأة خائفة، ثم تنقلب نظرتها الحائرة الى دهشة. ثم جعلت تغشى وجوه الراهبات الثلاث، وهن يواجهنه في ضوء الشموع عاجزات، ابتسامة غريبة، ظهرت بدون إرادة منهن. وجعلت الابتسامة تنمو في كل من الوجوه الثلاثة باختلاف، كثلاث زهرات رقيقة تتفتح. فكانت في الراهبة الصبية الشاحبة أقرب الى الألم، مع شيء من نشوة ماكرة. أما وجه الأخت التي كانت تحرس الغرفة ـ وهي امرأة ناضجة مستوية الجبين ـ فقد تجعّد بابتسامة وثنية، ابتسامة بطيئة دقيقة جداً في روح فكاهتها التي ترجع الى العصور الغابرة. كانت تلك ابتسامة أترسكية دقيقة،لاخجل فيها ولا ردّ عليها.

أما الرئيسة ـ وكان وجهها كبير التقاطيع كوجه ماثيو ـ فحاولت جهدها ألا تبتسم. غير أنه رفع في وجهها ذقنه الضاحك الحاقد، فطأطأت برأسها حين جعلت الابتسامة تنمو وتنمو في وجهها هي ايضاً.

وفجأة غطت الأخت الصبية الشاحبة وجهها بكمها، وجسمها ينتفض. فأرسلت الرئيسة ذراعها حول كتف الفتاة وتمتمت في فيض من عاطفة إيطالية: «مسكينتي الصغيرة. أبكي، أبكي، يامسكينتي الصغيرة». غير أن القهقهة كانت ما تزال في ثنايا تلك العاطفة. وأما الأخت السمراء القوية الجسم فوقفت لم تتغير، قابضة على الخرزات السوداء، وابتسامتها الصامتة جامدة على وجهها.

حينئذٍ التفت ماثيو فجأة الى الفراش ليرى إذ كانت زوجته الميتة قد لحظته: وكانت تلك لحظة رعب.

غير أن أوفيليا اضطجعت جميلة تثير الحنان، وأنفها المحدّد الصغير الميت مرتفع، ووجهها ـ كوجه طفل عنيد ـ ثابت في عناده الأخير. فغادرت الابتسامة ماثيو، وحلت مكانها نظرة الاستشهاد. ولم يبك: إنما نظر إليها ونظره خلو من كل معنى. بيد أن النظرة تعمقت في محياه حين قال لنفسه: «كنت أعلم أن هذا الاستشهاد في انتظاري».

كانت جميلة جداً، ماهرة جداً، عنيدة جداً، قوية الشبه جداً بطفل، وكانت ميتة كل الموت. فشعر بفراغ لا يُحد بين جوانب نفسه.

مر على زواجهما عشر سنوات، لم يكن هو في أثنائها مثال الزوج الكامل ـ لا، لا، أبداً. ولكن أوفيليا كانت تصر دائماً الى اتباع هواها. فقد عشقته ثم عندت فهجرته. ثم غدت مبهمة الشوق مرة، كثيرة الازدراء مرة، سريعة الغضب مرة، وهكذا اثنتي عشرة مرة ـ واثنتي عشرة مرة عادت إليه طائعة.

لم يلد لهما ولد، في حين أنه كان يرغب في الأولاد مدفوعاً بقسط عاطفته، فغمره حزن كثير. أما الآن فإنها لن تعود إليه، هذه المرة الثالثة عشرة، ولن تعود إليه الى الأبد.

أحقاً أنها لن تعود؟ لقد شعر بها، وهو في هذا الظن، تنخزه بين ضلوعه تستفزه على الابتسام. فتلوى قليلاً وغشا جبينه اكفهرار وهو يقول لنفسه إنه لن يبتسم. ضغط بفكه العريض العاري، وأظهر أسنانه الكبيرة، ونظر الى المرأة الميتة التي ما زالت كثيرة الاستفزاز وفي نفسه أن يقول ـ كأحد الأشخاص في رواية لديكنز ـ «أبدأت مرة اخرى؟».

إنه لم يكن كاملاً، فليفكر في نقائصه.

التفت فجأة الى النساء الثلاث اللواتي كن قد انسحبن وراء الشموع، فجعلن يرفرفن بقبعاتهن البيضاء بينه وبين العدم. تألقت عيناه وأبرز أسنانه وزمجر: «إنني نادم يارب! إنني نادم!».

فصرخت الرئيسة منذعرة صرخة خافتة، وافترقت يداها بسرعة ثم انضمتا ثانية في الأكمام الضافية الكثيفة، كعصفورين محبين يأويان الى عشهما.

فأخفض ماثيو رأسه ونظر حوله مهيئاً نفسه للهرب. وشرعت الرئيسة في ركن بعيد تصلي بصوت خافت «أبانا الذي في السموات»، وخرزات مسبحتها تتأرجح. وانسحبت الأخت الصبية الشاحبة إلى ركن أبعد، غير أن الأخت القوية الجسم بقيت عيناها السوداوان تتلألآن كنجمين يتفكهان فوق رأسه إلى الأبد، وإذا هو يشعر بالابتسامة تنخزه بين ضلوعه مرة اخرى. فقال للنساء مفسراً، معتذراً:

«اسمعن! إنني مضطرب جداً. فالأفضل لي أن اذهب».

رفرفن في حيرة فاتنة، ومرق هو إلى الباب. ولكنه ما كاد يمشي حتى عاودت الابتسامة وجهه، إذ أشعلتها زاوية عين الراهبة القوية

الجسم، بسوادها وتألقها الذي لا ينقطع، وقال في نفسه أنه ليود لو استطاع ان يمسك بيديها اللتين هما في بياض الحليب وسمرة الغسق، وهما منطويتان في لذة حسية كعصفورين يتحابان.

غير أنه أصر على التفكير في نقائص نفسه. فزعق لنفسه: «إنني نادم يا رب!» وإذ هو يزعق شعر بشيء ينخزه بين ضلوعه قائلاً له: «ابتسم!».

أما النساء الثلاث اللواتي بقين في الغرفة العالية الجدران فقد نظرت بعضهن إلى بعض وارتفعت أيديهن بسرعة مدة لحظة، كأنها ستة عصافير تطير فجأة من بين أوراق الشجر ثم تحط.

قالت الرئيسة بعطف ورأفة: «مسكين».

فصاحت الراهبة الصبية يدفعها دافع ساذج حاد: «نعم، نعم، مسكين».

ثم دنت الرئيسة دون حس من السرير وانحنت فوق الوجه الميت. وتمتمت قائلة: «يلوح على هذه المسكينة أنها تعرف. أليس كذلك؟».

فإنحنت الرؤوس الثلاثة بقبعاتها، ورأين لأول مرة التجعيدة الطفيفة الساخرة على جانبي فم أوفيليا، فنظرن في دهشة مرفرفة. وهمست الأخت الصبية المنتشية: «لقد رأته!».

ثم، وضعت الرئيسة برفق النقاب الجميل الصنع فوق الوجه البارد. وتمتمن بصلاة للروح وهن يعددن الخرزات. ثم ثبتت الرئيسة شمعتين من الشموع على مسماريهما قابضة على الشمعة الغليظة، بقبضة طرية قوية، ودافعة أياها سفلاً على المسمار الى ان تثبت.

وجلست الاخت القوية الجسم السمراء الوجه ثانية، وأخذت كتاب الصلاة الصغير بين يديها. وخرجت الأخريان، وحفيف اثوابهما

مسموع، إلى الرواق الأبيض الكبير. وبينما هما تقلعان بأثوابهما السوداء بهدوء، ودونما صوت، كأوزتين سوداوين على أمواه النهر، ترددتا فجأة: فقد رأتا معاً شكل رجل مهجور في معطف كئيب، يتسكع في البرد بعيداً في آخر الرواق. وللحال حثت الرئيسة خطاها مسرعة.

ورآهما ماثيو قادمتين نحوه. رأى ذينك القدّين الكبيرين ولكل منهما وجه في إطار ويدان تائهتان. وكانت الأخت الصبية تمشي على بعد قليل وراء الرئيسة.

فقال، وكأنه على قارعة الطريق: «عفوك أيتها الأم. لقد نسيت قبعتي في مكان لست أذكره...».

وجاءت ذراعه بحركة يائسة تقطّع القلب، وقد خلا وجهه من الابتسام خلواً لم يعرف مثله وجه إنسان.

الشاعر

سومرست موام

١٨٧٤ ـ ١٩٦٥

قصصي وروائي ومسرحي غزير بالانتاج. كُتبه واسعة الانتشار، والاقبال عليها شديد، لأنها تروق للطبقات الشعبية كما تروق لفئة كبيرة من الأدباء. لقد كان أروج روائي جاد في العالم لفترة طويلة من هذا القرن. كما أن مسرحياته العديدة كانت تجتذب الجماهير كل مرة لأشهر متوالية.

يحذو موام في قصصه حذو كتّاب القرن الماضي المشهورين، وبخاصة غي دي موباسان، ولايأبه كثيراً للتيارات الأدبية الحديثة، ولا يهمه التعمق في طبقات الوعي مثل د. هـ. لورنس أو تشيخوف، مما حدا بالنقاد إلى وضعه في المنزلة الثانية. فهمّه الأول في القصة هو الحبكة. ولذا يملأ قصصه بالحوادث التي، مع تناثرها في البدء، تتمركز شيئاً فشيئاً في نقطة واحدة، وإذا العقدة تنحلّ في ختام القصة على غير ما يتوقع القارىء. والمتعة التي يجنيها القارىء، في لحظة

الاضاءة تلك، هي في رأيه الهدف الذي يرمي إليه الكاتب. وهو في هذا قصاص ماهر، له موهبة الدفق في القول والمهارة في الحبك، وفي كثير من قصصه نقد مر للمجتمع يكسوه بطبقة من الحلاوة الخداعة. وهو لهذا السبب من المعجبين باولدس هكسلي، لأن كليهما يتمتع باختراق ستر الرياء التي يسدلها المجتمع على نفسه. ولكن سخرية هكسلي أشدّ وأقسى.

تلقّى موام دراسته في جامعة هيدلبرغ، ثم درس الطب في لندن، وتخرج فيه ولكنه لم يحترفه. وهو يعتقد أن دراسة الطب مفيدة جداً للكاتب الناشيء. وما بدأ بكتابة القصص في شكل مستمر حتى بلغ الأربعين. كان واسع الترحال في الشرق الأقصى، وجعل منه مسرحاً لأكثر قصصه. وفي أثناء الحرب الأولى اشتغل في قلم المخابرات السرية الانكليزية في سويسرا. وقد حولت شركات السينما في هوليود الكثير من رواياته وقصصه إلى أفلام.

قصة «الشاعر» هنا مثل جيد على طريقته، وقد أخذت من كتاب Cosmopolitans (١٩٢٤). وسُمّي هكذا لأنه مجموعة قصص قصيرة نشرها كلها بالتتابع في مجلة «كوزموبوليتان» الأمريكية، (لقاء مبلغ كبير من المال أيامئذ).

من اشهر رواياته: «في العبودية الانسانية» (١٩١٥)، «القمر والدرهم»، «الجعة والكعك» (١٩٣٠)، «حدّ الموس» (١٩٤٩). وله مجموعات قصصية عديدة، وسيرة ذاتية بعنوان «الخلاصة».

الشاعر

لايهمني كثيراً أمر مشاهير الناس، ويضيق صدري ذرعاً بتلك الرغبة الملحة التي تقض مضاجع الكثيرين في مصافحة عظماء الأرض. وعندما يقترح البعض عليّ بأن أقابل أمراً يتميز عن أقرانه بمنزلته العليا أو بأعماله، فإنني أتلمس عذراً لطيفاً يتسنى لي به ان أتجنب التشرف بمعرفته. ولذا لما اقترح عليّ صديقي دييغو توري أن يعرّفني على سانتا آنا رفضت اقتراحه. غير أن العذر الذي قدمته حينئذ كان لأول مرة عذراً صحيحاً. لم يكن سانتا آنا شاعراً عظيماً فحسب، بل كان شخصية رومانسية أيضاً، وكان يلذ لي أن أذهب إليه فأرى في وهن شيخوخته ذلك الرجل الذي لغطت اسبانيا في ذكر مخاطراته حتى أضحت من تقاليد البلاد. بيد أنني كنت أعلم أنه طعن في السن وأقعده المرض، فلن يجد في مقابلة غريب أجنبي مثلي إلا عنتا وانزعاجاً. كان كاليستودي سانتا آنا آخر أتباع المدرسة القديمة

التي كانت تُعنى بزخرف القول وفخامته، وقد عاش حياة «بايرونية» في عالم لم يعد يؤثر فيه أبطال كبايرون، وسرد حوادث حياته الملأى بالمجازفات في سلسلة من القصائد أذاعت له شهرة لم يعرف مثلها معاصروه. ولست أنا أهلاً للحكم على قيمتها لأنني قرأتها أولاً عندما كنت في الثالثة والعشرين من عمري، فأفتتنت يومئذ بها وطربت لها. فقد كانت في أطوائها عاطفة تجيش، وكبرياء خليفة بالبطولة، وحيوية دافقة كثيرة الألوان، أعجبت بها إعجاباً شديداً. وما زالت تلك الأبيات الرنانة وموسيقاها الساحرة حتى اليوم ممتزجة في ذكريات شبابي الحلوة، فلا أكاد أقرأها إلا وقلبي ينبض نبضاً. وأغلب الظن عندي أن كاليستودي سانتا آنا جدير بالصيت الذي يتمتع به بين الشعوب الناطقة بالاسبانية. لقد كانت أشعاره في تلك الأيام تتردد على ألسنة الشباب، وكان أصدقائي يغرقون في الحديث لي دوماً عن طرقه الغريبة في الحياة وخطبه النارية (إذ كان سياسياً كما كان شاعراً) وفكاهته اللاذعة وغرامياته الكثيرة، فكان ثائراً وطريد القانون أحياناً، معروف الشجاعة كثير المخاطرات، ولكنه كان عاشقاً أكثر منه أي شيء آخر. كنا نعرف كل شاردة وواردة عن حبه لهذه الممثلة العظيمة أو تلك المغنية الساحرة ـ أو لم نقرأ قصائده التي حملها عشقه ودنفه وغضبه حتى حفظناها عن ظهر قلب؟ وكنا نعرف أن أميرة إسبانية، سليلة آل بوربون ومن أشدهم أنفة وكبراً، استسلمت لحبه، ولما عافها لبست مسوح الرهبنة. فقد كان أسلافها الملوك إذا سئموا من خليلة لجأت إلى دير راضية، إذ لايليق بأمرأة أحبها الملك أن تصبح حبيبة رجل آخر ـ أو لم يكن كاليستودي سانتا آنا أعظم من أي ملك أرضي؟ ولذا حيينا في الأميرة فعلها الرومانسي، فقد كان فيه حسن لاسمها وإطراء على شاعرنا.

ولكن هذا كله حدث منذ سنين كثيرة، فقد انسحب دون كاليستو بازدراء من عالم ليس فيه جديد يستمتع به، وقضى آخر ربع قرن منعزلاً في بلدة أثيخا، مسقط رأسه. وكان أني أعلنت عن همي بالذهاب إلى هذه البلدة (إذ كنت قضيت أسبوعاً أو أسبوعين في أشبيلية) لا لعلاقتها به، ولكن لأنها بلدة أندلسية جميلة تقرنني بها ذكريات عزيزة عليّ، فعرض عليّ دييغو أن يقدمني إليه. والظاهر أن دون كاليستو كان يسمح للأدباء الشباب بزيارته أحياناً فيتحدث إليهم بين الفينة والفينة بتلك النار التي كانت تكهرب سامعيه أيام عنفوان شبابه.

سألت صديقي: «ما شكله الآن؟».

قال: «عظيم».

ـ هل لديك صورة فوتوغرافية له؟

ـ ليست لديّ صورة له، انه رفض أن يواجه آله التصوير منذ أن بلغ الخامسة والثلاثين، قائلاً انه يود ألا تعرفه الأجيال القادمة إلا رجلاً في ربيع الشباب.

أثّر هذا الغرور منه في قلبي، فقد كان الله حباه في مقتبل عمره جمالاً عجيباً، وأن تلك القصيدة التي نظمها يوم أحس بأن الشباب ولى عنه غير راجع لتدل على مبلغ الألم الذي حزّ في قلبه، والحرارة التي ملأت صدره، عندما رأى ذلك الجمال الذي كان معبود الكثيرين يزايله يوماً اثر يوم.

غير أنني رفضت ماعرضه عليّ صديقي. حسبي أن أقرأ القصائد التي كنت أعرفها حق المعرفة مرة اخرى، وأن أتجول حرّاً في طرقات أثيخا الساكنة والشمس ضافية عليها. ولهذا لشد ماكان اضطرابي

عندما بلّغتني رسالة من الشاعر الكبير نفسه مساء وصولي إلى البلدة. فقد كتب يقول ان دييغو توري أرسل إليه يخبره بمقدمي، وأنه سيسر جداً إذا ذهبت لزيارته في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي. ولم أجد حينئذ بدّاً ـ والحالة هذه ـ من أن أقدم إليه نفسي في منزله في الساعة المعينة.

كان الفندق الذي حللت فيه في «البلازا» يعج بالحركة والنشاط صباح ذلك اليوم من أيام الربيع، على أنني ما كدت أغادره حتى شعرت أنني أتجول في مدينة مهجورة. فالشوارع البيضاء الملتوية خالية، ماعدا امرأة هنا وأخرى هناك مسربلة بالسواد، تظهر بين الحين والآخر ماشية بخطوات متسقة عائدة من الصلاة. فأثيخا بلدة مملوءة بالكنائس، حتى ليرى المشاهد كلما مشى قليلاً قبة أو واجهة فخمة متداعية عشّشت فيها اللقالق. وتوقفت عن المشي مرة لأتفرّج على قافلة صغيرة من الحمير يحمل كل حمار منها في خرجه الأحمر مالا يعلمه إلا الله. بيد أن أثيخا كانت في الأيام السالفة مدينة ذات عز وشأن، ولكثير من بيوتها البيضاء مداخل من حجر حفرت فيها شارات النبلاء الذين كانوا يوماً يقطنونها، فإن ثروة الدنيا الجديدة كانت تنصب حينذاك في هذه البقعة النائية، وكان المخاطرون الذين جمعوا أموالاً طائلة في الأمريكتين يؤمونها ليقضوا فيها آخر سني حياتهم. وكان دون كاليستو يسكن أحد هذه البيوت. ولما وقفت على عتبة البوابة الكبرى وقد سحبت سلسلة الجرس، أعجبت بروعة المكان الذي جعل منه مسكناً يليق بعظمته. فقد كان في مظهر البوابة الهائلة فخامة رائعة بان عليها القدم وآثار الزمن، مما وافق فكرتي عن الشاعر المحب للقول المنمق والفعل الغريب. لم يجب على الجرس أحد،

مع أنني سمعته يدق داخل المنزل، ولذا سحبته مرة اخرى، ومـرة ثالثة. وأخيراً جاءت إلى الباب عجوز لها شارب كثيف وسألتني قائلة:

«ماذا تريد؟».

كانت عيناها سوداوين جميلتين، غير أن نظرتها مكفهـرة، فقلت لنفسي لعلها هي التي تدير شؤون الشاعر المسن. فسلمتها بطاقتي وقلت:

«لي موعد مع سيدك».

ففتحت الباب الحديدي وطلبت مني أن أدخل وأنتظر ريثما تذهب إلى فوق ثم تعود. وإذا صحن الدار بارد الهواء بعد هجير الشارع. والبنيان عليه سمات النبل، يحدو بالرائي إلى الظن بأن الذي بناه أحد أبطال الاسبان في أيام إمبراطوريتهم. غير أن الطلاء ملطخ، وبلاط الأرض مشقق، وقصارة الجدران واقعة في أماكن كثيرة. فكان مظهر الفقر يكسو كل شيء، لكنه فقـر لا قذارة فيـه. وكنت أعلم أن دون كاليستو فقير الحال، فكثيراً ما جاءه المال طائعاً غير أنه لم يعلق عليه أهمية ما وأنفقه بكرم حاتمي. وأدركت الآن أنه يعيش في إملاق يربأ بنفسه من أن يهتم له. وكان في وسط الصحن مائدة على كلا جانبيها كرسي هزاز عليها جرائد تعود إلى ما قبل أسبوعين. فسألت نفسي ترى ما هي الأحلام التي تتلاعب في خياله في ليالي الصيف السادرات وهو جالس هناك يدخن السجاير؟ وكان عـلى جدران الرواق الخـارجي صور إسبانيـة رديئة. لاتكـاد ترى لاسمـرارها، ورأيت قـرب أحد الأبواب غدارتين قديمتين معلقتين على الحائـط، فلذ لي أن أتصور أنهمـا كانـا السلاحـين اللذين استعملهما في أشهـر مبارزة ـ من مبارزاته الكثيرة ـ التي قتل فيها الدوق دوس هرنانوس من أجـل

الراقصة بيبا مونتانيز (ولعل هذه الآن عجوز شمطاء لم يبق في فمها سنّ واحدة).

كان كل ما في ذلك المشهد، مع ذكريات الشاعر التي تمثلتها في غير وضوح، يتفق تماماً مع روح الشاعر الرومانسي، حتى طغت عليّ روح المكان، فشعرت أن مظاهر تلك الفاقة النبيلة تضفي على الشاعر مجداً يضاهي في الروعة أبّهة شبابه. فبين جنبيه هو أيضاً تجيش روح أبطال الامبراطورية القدماء، وإنه لمن اللائق أن يقضي ما تبقى من حياته الذائعة الصيت في ذلك البيت الفخم المهدّم. ألا هكذا يحيا الشاعر ويموت! وجعلت أعصابي تهتاج. قليلاً، مع أنني كنت قد بلغت المكان هادىء النفس بل وفيّ شيء من الفتور لمقابلته. فأشعلت سيجارة وأنا أعجب من تواني الشيخ في النزول، مع أنني جئت في الوقت المضروب.. كان في ذلك السكون الغريب شيء مقلق. وراحت أشباح الماضي تتزاحم في الصحن الساكن، وعاد إلى مخيلتي عصر كان قد مات وانقضى، عاد زاخراً بحياة كلها ظلال وخيالات. لقد كان في رجال ذلك العصر روح ثائرة وحدّة في العاطفة زالتا من العالم إلى الأبد. فمن منا يستطيع اليوم أن يقوم بمجازفاتهم الخطرة وأعمالهم الخارقة الأشبة بالروايات المسرحية؟

سمعت صوتاً فجعل قلبي يدق دقات سريعة. فقد تحمست للقياه عند ذاك كثيراً، ولما وقعت عيني عليه أخيراً وهو ينزل الدرج ببطء وتؤدة، وفي يده بطاقتي، أمسكت نفسي، كان شيخاً طويل القامة ضامر الجسم، بشرته في لون العاج العتيق، وشعره الوارف أبيض، غير أن حاجبيه الكثيفين ما زالا أسودين، مما جعل عينيه تتألقان بنار قاتمة. وكان عجيباً أن عينيه ما انفكتا محافظتين على بريقهما رغم طعنه في

السن. وكـان أنفه أقنى وشفتـاه مطبقتـين بشدة. ولمـا تقدم مني استقرت عيناه غير الباسمتين عليّ وفيهما نظرة تتفحصني بدقة. كان يلبس ثياباً سوداء، وفي إحدى يديه قبعة عريضة الحافة، فرأيت في ملامحه وفي مشيته أنفة وثقة في النفس. لقد كان كما كنت أشتهيه أن يكون! وأدركت وأنا أراقبه كيف استطاع أن يستـولي على أذهـان الناس ويمتلك عليهم قلوبهم: لقد كان هو الشاعر ممثلاً من الرأس حتى القدم.

حين بلغ صحن الدار جاء يمشي نحوي ببطء، وإذا له عينا النسر. وقلت لنفسي أن تلك لحظة رائعة، فإن أمامي ليقف الآن وريث شعراء الاسبانيين العظماء، وتذكرتهم واحداً واحداً. إنه آخر تلك السلالة الطويلة التي اقتفى هو آثارهـا ولم يتخلف عنها مقـدرة أو شهرة. وترددت في جنبات صدري أغنيته الرقيقة الجميلة التي هي أشهر ما كتب من قصائد غنائية.

وشعرت بالحياء يدب في عروقي، وكان من حسن حظي، أنني كنت قد هيأت العبارة التي نويت أن أبدأ بها تحيتي.

قلت: «إنه لفخر عظيم ياسيدي لأجنبي مثلي أن يتعرف على شاعر عظيم مثلك». فتألقت ابتسامة في عينيه النافذتين وبدت ضحكة طفيفة على شفتيه المزمومتين لبرهة قصيرة، وقال:

«أنا لست بشاعر ياسيدي. إنما أنا أتاجر بشعر الحيوانات. لقد أخطأت المنزل، فإن «دون كاليستو» يقيم في الدار المجاورة لهذه».

لقد كان أني لم أصب الهدف في بحثي عن الدار...

المونوكل

أولدس هكسلي
١٨٩٤ ـ ١٩٦٣

كان لأولدس هكسلي أثر ذهني عميم في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين. فقد كتب القصة القصيرة والرواية والشعر، وألف في الفلسفة والنقد والرحلات والدين، وجمع إلى إطلاعه الأدبي معرفة واسعة في العلم حتى دعاه البعض الكاتب «الأنسيكلوبيدي». وقد اصطلحت الظروف المؤاتية على إيجاد هذا الأديب الفذ: فجدّه توماس هكسلي من علماء القرن الماضي البارزين، وينتمي من ناحية الأم إلى الناقد والشاعر الكبير ماثيو ارنولد. وكان أبوه أديباً وعالماً من علماء اللغة الاغريقية، وأخوه جوليان هكسلي من علماء هذا العصر المعروفين. وكل ما يكتبه أولدس هكسلي يعكس هذه الثقافة المتشعبة التي نشأ في جوها، وهو يستخدمها في عدم حجته حين يهاجم الحضارة الراهنة وما يفرض العلم فيها على النفس من فراغ وانصراف إلى حيوانية تتنكر في أزياء براقة من المدنية.

كان جده توماس هكسلي يدعو الناس إلى الايمان بالعلم، وإلى الاعتقاد بأن السعادة ستأتي عن طريقه. ولكن هكسلي حين رأى ما أصاب العالم بانتهاء الحرب العالمية الأولى من يأس أدى إلى إفلاس في الروح والأخلاق، أدرك أن التقدم العلمي إذا لم يوازه تقدم مماثل في مسائل الروح، فإن الانسان يحث الخطى نحو الهاوية.

وقد وقع أولدس هكسلي في شبابه تحت تأثير د. هـ.لورنس،مع ما بينهما من فرق كثير. فقد نشأ لورنس فقيراً، ونظر إلى الحياة نظرة النقد والنفاذ إلى اللب، مؤمناً بضرورة العودة إلى الفطرة والعيش البدائي. أما هكسلي، الذي درس في إيتون وأوكسفورد، فكان ينظر إلى الحياة عن طريق الذهن، ويسلّط على كل شيء سلاحاً حاداً من العقل يجزئه به قطعة قطعة، مؤمناً إلى ذلك بضرب من الصوفية الهندية. وبينما رأى لورنس في الجنس خصب الطبيعة وجمالها،افتتن هكسلي بالجنس واشمأز منه في آن واحد. فقد رأى فيه إمكانية للنجاة تلتمع كبريق متقطع في الحب، ولكنه رأى فيه أيضاً الشهوانية التي ترافق الانحلال، حين يعجز الانسان عن مجابهة مشاكله الروحية فيتخبط في حمأة من اللذة الجنسية يتخدر بها مرة بعد اخرى.

ويتوخى هكسلي في ما يكتبه مزيجاً من الفلسفة والتهكم، والنقد كامن في ثنايا سخريته وتشككه. ويمكن تشبيه قصصه بغرف التشريح. فهو أكثر ما يعني بتصوير الشخصية عن طريق الجدل والمناقشة يبحث بهما عن العلل والحماقات الانسانية، مستقصياً محللاً مفصلاً. وطريقته في ذلك (وقد استقاها من روايات توماس بيكوك، معاصر الشاعر شلي وصديقه) هي أن يجمع أشخاصه في حفلات وولائم، بعد أن يطلعنا على شيء من خلفياتهم وظروفهم

الخاصة، ويعرض لنا الخواطر التي تعبث في صدر كل منهم وهو يدفعهم إلى المناقشة والحديث، يشرّحهم بها عضلة عضلة. وإذ يتنقلون من وليمة إلى وليمة ومن حديث إلى حديث، نشاهد تحليقهم الفكري وتمرغهم الخلقي في آن واحد، إلى أن بلغ نقطة نجد عندها أن أكثر الأشخاص الذين أعمل فيهم هذا التشريح قد ماتوا فعلاً في أرواحهم إن لم يكن في أجسادهم. وإذ يفعل هكسلي هذا فإنه يثير اهتمامنا دائماً بسخريته الضافية وبملاحقته غراميات كل من أشخاصه في صراحة وبراعة.

وقصة «المونوكل» توضح هذه الطريقة، كما أنها خير مقدمة لروايات هكسلي الكثيرة نذكر منها: «آنتك هاي» (١٩٢٣)، «تلك الأوراق العقيمة» (١٩٢٥)، «نغمة إزاء نقمة» (١٩٢٨) ـ ولعلها أروع ما كتب (وقد ترجمت مؤخراً إلى العربية بعنوان «قول على قول» وتصور المناخ الثقافي الذي عرفته انكلترا في العشرينات، وروايته «ما أبدع العالم الجديد» (١٩٣٢) تسخر من عنوانها وتصوّر خيبة هكسلي في العالم الذي يخططه العلماء للبشرية، وهي ما زالت توضع إلى جانب رواية جورج أورويل «١٩٨٤» كنذير لكل من يريد أن يستشرف المستقبل. ولهكسلي أيضاً «بلا عينين في غزة» (١٩٣٦)، «وبعد أصياف عديدة» (١٩٣٩) ـ جعل بعدها يكثر من الدراسات الصوفية ومكنونات الطاقة النفسية. ومن أهمها دراسته السيكولوجية التاريخية «شياطين لودن» (١٩٥٢).

أخذت «المونوكل» من مجموعته القصصية Two or Three Graces (١٩٢٦).

المونوكل

كان الصالون في الدور الاول، وضجيج الاصوات التي لايستجلى فيه الكلام ينبعث عائماً على الدرج كأنه جعجعة قطار بعيد. خلع غريغوري معطفه الثقيل وسلمه للخادمة قائلاً:

«لاحاجة بك الى اخذي الى الصالون، فأنا أعرف الطريق».

ومع انه دائماً كثير الاهتمام براحة الاخرين، بل قل لهذا السبب نفسه، يرفض الخدم مساعدته بالمرة، بل هم يحتقرونه ويبغضونه. عاد فألح قائلاً: «لاتزعجي نفسك».

فخيّل اليه ان خادمة الاستقبال ـ وهي فتاة شديدة الحمرة في الوجه صفراء الشعر ـ تنظر اليه نظرة احتقار صامته وتتركه. فقال لنفسه لعلها لم تكن تقصد ان تأخذه الى الغرفة. فشعر بأنه قد اهين ـ مرة اخرى.

كان في اسفل الدرج مرآة نظر فيها الى خياله، ورتب بيده شعره، ثم مس رباط عنقه معدّلاً وضعه. كان وجهه ناعماً في شكل بيضة، وتقاطيعه منتظمة، وشعره شاحب اللون، صغير الفم، شفته العليا في شكل قوس كيوبيد، وهو في سره يعد نفسه جميلاً، ويعجب حين لايشاركه احد في هذا الاعتقاد.

صعد غريغوري الدرج وهو يمسح المونوكل الذي يلبسه، وازداد لغط الاصوات. وفي منعطف الدرج الاول رأى باب الصالون مفتوحاً. فرأى اولاً الربع الاعلى من الباب الطويل ومن خلاله قطعة من السقف؛ وكلما خطا خطوة رأى من الغرفة اكثر فأكثر. رأى شقة من الحائط تحت الكورنيش، ثم صورة، ثم رؤوس أناس، ثم اجسامهم كلها، ثم سيقانهم، اقدامهم، وقبل ان يخطو آخر خطوة وضع المونوكل على عينه، وأرجع منديله الى جيبه. ثم رفع منكبيه ودخل الغرفة ظاناً انه يمشي مشية تكاد تكون عسكرية- ولما كانت ربة الدار واقفة قرب النافذة، في الناحية الاخرى من الغرفة، تقدم نحوها وقد بدأ يرسل بسمات التحية الآلية حوله قبل ان تراه. كانت الغرفة مزدحمة بمن فيها، حارة الهواء، ودخان السجاير فيها كالضباب، والضجيج يكاد يلمس، حتى شعر غويغوري بأنه يشق طريقه شقاً في عنصر اكثف من الهواء. فراح يخوض حتى عنقه في سيل الضجيج حاملاً فوق السيل ابتسامته الثمينة، الى ان قدمها سليمة الى مضيفته:

«مساء الخير ياهرمايوني»

«آه ياغريغوري، مساء الخير. ما أشد سروري بمجيئك!».

فقال غريغوري: «ما ابدع فستانك!» وهو في قوله هذا انما يتبع بدقة نصيحة صديق له يحسد على نجاحه في المجتمع، كان قد اخبره

بأن يكون سخياً في الاطراء، مهما يكن التملق ظاهراً فيه. وعلى كل حال فلا بأس بفستان هرمايوني، لولا انها دائماً تفسد ما تلبس لقبحها الشديد ولخلوها من الرشاقة ـ كأنها في رأي غريغوري مصرّة على القبح! ثم اعاد القول بصوته العالي: «انه جميل جداً».

فابتسمت هرمايوني فرحاً وقالت: «اشكرك» غير أنها قبل ان تستمر في الكلام، قاطعها صوت مرتفع فيه غنة أنفية، وهو يرتّل عبارة من «آسيس وغلاطية».

«هاكم الوحش بوليفيم، هاكم الوحش بوليفيم».

فأحمر وجه غريغوري، واذا بيد ضخمة تضربه في منتصف ظهره تحت لوحي الكتفين، فينبعث من جسمه صوت كصوت الطبل الفارغ.

قال الصوت محدّثاً، لا مرتّلاً: «ها يابوليفيم، وكيف حالك؟».

فأجابه غريغوري دون ان يلتفت إليه: «بخير والحمد لله» ثم أردف وقد ادرك أن صاحب الصوت هو باكستون، ذلك السكّير من جنوب افريقيا: «بخير والحمد لله ياسيلنوس».

سماه باكستون بيوليفيم اشارة الى مونوكله، وبوليفيم هو الوحش الخرافي ذو العين الواحدة الدوارة. وجواباً على ذلك سماه غريغوري بسيلنوس، العربيد المعروف في اساطير الاغريق.

فصاح باكستون: «برافو!» وأجفل غريغوري عندما وقعت على كتفه ضربة أشد من ذي قبل واكثر مرحاً، حين استمر باكستون يقول: «أما هذه فحفلة راقية، أليس كذلك ياهرمايوني؟ وكل من فيها عالي الثقافة ها؟ إذ قلّما تسمع امرأة ضيوفها يتراشقون بنكات إغريقية رومانية، هنيئاً لك يا هرمايوني!» وهنا لفّ ذراعه حول خصرها: «هنيئاً لك فينا!».

فـأفلتت هرمـايوني منـه وقالت نـافذة الصبـر: «لاتكن سمجاً ياباكستون».

فضحـك ضحكة مسـرحية «هـاها!» هي ضحكـة الشـرير في الملودراما. ولم تكن ضحكته فقط مسرحية، بل كان شخصه بأجمعه كاريكاتوراً للمأساة في عهدهـا القديم، بعـرنينـه النسري، وعينيـه الغائرتين، وشعره الاسـود الطويل. ثم قـال وهو يتصنـع المجاملة متهكماً: «ألف معذرة ومعذرة! ما أنا إلا رجل من المستعمرات ينسى نفسه بسرعة، بل قولي سكير فظ لا يعرف من حسن السلوك شيئاً».

قالت هرمايوني: «أبله!» ثم انصرفت.

وجاء غريغوري بحركة يريد بها اتباع هرمايوني، غير أن باكستون أمسـك بكمه وسـأله بحـرارة: «اخبـرني يـابـوليفيم، لمـاذا تلبس المونوكل؟».

فأجابه غريغوري بجفاء: «ان كنت حقاً تريد ان تعرف: فذلك لانني قصير النظر في عيني اليسـرى دون اليمنى، والاشعة لاتجتمـع في بؤرتها».

فردد الآخر في دهشة مصطنعة: «قصير النظر، والاشعة لاتجتمع البؤرة؟ غفر الله لي ذنبي! لقد كنت أظن أنك تحاول ان تشبه الدوق في الروايات الغنائية الفكاهية التي تمثل في المسارح».

فسعى غريغوري في أن يضحك ضحكة تعجّب من رجل يظن مثل هذا الظن، كأنه يقول يـا له من أمر غـريب مضحك. غـير ان نبرة الانزعاج خالطت ضحكته. لان باكستون، بالطبع، كاد يصيب عين الحقيقـة. وذلك ان غريغـوري، حين شعـر بحقارتـه وبعجـزه عن الاستعلاء على الناس بنجاح، جعل من تشخيص طبيب العيون عذراً

لمحاولته ان يضيف الى شخصيته اناقة، وزهواً، وشأناً ـ ولكن عبثاً ما حاول. لم يزد المونوكل في ثقته بنفسه، ولم يشعر قط براحة كلما وضعه على عينه، فقال ان لابسي المونوكل كالشعراء: يخلقون ولايصنعون. ولم تفلح جامعة كمبردج في إنسائه إنه إنما ذلك الولد الذي جاء من مدرسة ثانوية مغمورة. وعلى ثقافته وميله الادبي كان دائماً يحس بأنه ليس إلا وريثاً لصانع احذية. ولذلك لم يعتد قط على المونوكل، بل أنه رغماً عن 'رشادات طبيب العيون، كان في اكثر الاحيان يجد المونوكل يتأرجح في نهاية خيط كالبندول، وينغمس عندما يأكل في الحساء والشاي، في المربى والزبدة، ولم يكن غريغوري يضعه على عينه الا في مناسبات نادرة، واذا وضعه لم يبقه ـ الا في ماندر ـ اكثر من بضع دقائق، بل ثوان، إذ يرفع حاجبه ويدعه يسقط. وما اقل المناسبات التي كانت تصلح لمونوكل صاحبنا، فإما ان يكون محيطه أحط مما يريد، او ارقى مما يريد. فاذا لبس المونوكل في مكان مملوء بالفقراء والبؤساء والأميين، كان ذلك منه تعليقاً على حظهم العاثر، تعليقاً فيه من السنلاطة ما لا يرضيه. وعدا عن هذا فان للفقراءوالأميين عادة قبيحة، وهي الضحك من رموز كهذه تدل على الارستقراطية. ولم يكن غريغوري ممن لايهمهم ضحك الناس منهم. فقد كانت تعوزه الثقة الأبية بالنفس وعدم الوعي بما حوله، مما يتصف به المفطورون على لبس المونوكل. ولم يكن يعلم كيف يتجاهل الفقراء، أو كيف يعاملهم ـ اذا اضطر الى معاملتهم ـ كالآت او حيوانات منزلية. فقد عرف الكثير عنهم ايام كان ابوه حياً، وكان يجبره على الاهتمام بالتجارة والناس اهتماماً عملياً. وعدم الثقة هذا كان السبب ايضاً في جعله غير مولع بوضع المونوكل على عينه في حضرة الاغنياء. فاذا كان معهم شعر بأنه

قد لايكون محقاً في استعمال المونوكل، وبأنه حديث النعمة بالنسبة الى عالم المونوكلات. وأما فئة الاذكياء فهم ايضاً لايصلحون كجماعة يستطيع معهم ان يلبس المونوكل. فكيف يستطيع، وهو لابسه، ان يتحدث عن الامور ذات الشأن؟ فمثلاً اذا اراد ان يقول: «ان موسيقى موتسارت موسيقى صافية، موسيقى روحية صافية» كان من المستحيل عليه ان يقول ذلك والزجاجة محشوة فوق عينه اليسرى، اجل، ان المناسبات نادراً ما تسنح للبس المونوكل. على ان بعضها كان يواتيه احياناً، كحفلة هرمايوني مثلاً - وهي حفلة شبه بوهيمية. غير انه لم يكن قد خطر بباله أنه سيقابل فيها رجلاً كباكستون.

وفي مزيج من الدهشة والمتعة جعل غريغوري يضحك، واذا بالمونوكل يقع عن عينه فجأة، فصاح باكستون: «بربك اعده الى مكانه، ارجوك ان تعيده الى مكانه!» وامسك الزجاجة بيده وهي تتأرجح فوق بطن غريغوري وحاول ان يضعها مكانها بنفسه.

فتراجع غريغوري، ودفع مضطهده الى الوراء بيد، وحاول بالاخرى ان يختطف المونوكل من بين اصابعه. ولكن باكستون لم يفلت منه.

وراح باكستون يكرر: «ارجوك، ارجوك!»

فقال غريغوري بعنف - ولكن بصوت خافت لئلا يلتفت الجمهور ويرى هذا السبب المضحك للشجار: «أعطني إياه في الحال!» لم يهزأ به قط انسان مثل هذا!.

واخيراً ردّه اليه باكستون وقال في ندم مصطنع: «سامحني، سامح هذا السكير المسكين الذي جاء من مستعمرة، ولا يعرف قواعد السلوك عند خاصة القوم. ما أنا الاخمّير، ما انا الا سكّير مسكين

يجهد نفسه بالعمل. أتعرف اوراق التسجيل التي تستعملها الفنادق الفرنسية؟ الاسم، تاريخ الولادة، وهلمّ جراً. أتعرفها؟».

فهز غريغوري رأسه ان نعم بوقار.

«عندما اصل الى كلمة «الحرفة»، اضع ازاءها دائماً «ايفروني». وذلك اذا لم اكن سكرانا فأتذكر الكلمة الفرنسية. والا اضع كلمة «سكّير» بالانكليزية. لانهم جميعهم يعرفون الانكليزية هذه الايام».

فقال غريغوري ببرود: «آ».

قال باكستون بلهجة من يفضي بسر: «انها حرفة من الطراز الاول، وهي تخولك الحق في ان تفعل ما تشاء، مهما خطر في بالك. فمثلاً لك ان تلف ذراعك حول اي امرأة تحب، وتسمعها اقبح الوقاحات، وتهين الرجال، وتهزأ من الناس في وجوههم. فكل شيء مصرّح به للسكير المسكين، وبخاصة اذا كان رجلاً من مستعمرة لايعرف من آداب الخاصة شيئاً. خذ مني هذه النصيحة ياصاح، وانقطع عن حمل المونوكل، فإنه لا يفيدك بشيء. كن شرّيب خمرة، تجد الحياة امتع واجمل. وهذا يذكرني بان عليّ ان احصل على كأس اخرى مهما كلفني الامر، لانني بدأت اصحو من سكرتي».

واختفى بين الجمهور. فارتاح غريغوري ونظر حوله باحثاً عن وجوه يعرفها، وفيما هو يفعل ذلك مسح المونوكل، ثم جفف جبينه، واعاد الزجاجة الى مكانها على عينه.

وراح ينسل بين الكراسي المتلاصقة، وزحف كالبزاقة بين ظهور الواقفين المتراصة، وهو يكرر بين الاونة والاخرى «من فضلك، من فضلك» ولما رأى بعض معارف له واقفين قرب الموقد، وهم رانسم وماري هايغ ومس كامبرداون، انضم اليهم وشاركهم في الحديث

الذي كان يدور عن مسز ماندراغور.

وجعلوا يقصون كل القصص المعروفة عن قانصة الاسود المشهورة. وسرد هو نفسه قصتين او ثلاثاً مع ما يلائمها من حركات مضحكة اتقنها، بعد ان قص هذه القصص مئة مرة من قبل. وفي اثناء احدى الحركات، وقد غيّر ملامح وجهه ورفع يديه بشكل كوميدي، رأى نفسه فجأة وهو يكشّر ويشبر ويفتر، وسمع فجأة صوته يعلو وينخفض يردد عن ظهر قلب العبارات القديمة، فقال في نفسه: لماذا يذهب الانسان الى الحفلات يا الله؟ فهو لا يقابل الا الجماعة المملة نفسها، ولايسمع الا الفضائح نفسها، ولايأتي الا بنفس الأُلاعيب الحمقاء لتسلية من حوله. بيد أنه استمر في تمثيله وزم شفتيه وتغيير صوته وتلويح يديه حتى انهى قصته. غير ان غريغوري خجل من نفسه. ولما بدأ رانسم بحكاية قصة مسز ماندراغور ومهاراجا باتاليابور، شعر كأنه يئن في قرارة قلبه. فسأل نفسه: لماذا، لماذا، ؟ واذا هو يسمع رجالاً وراءه يتحدثون في السياسة، فجعل وهو يتظاهر بالابتسام لحكاية ماندراغور يستمع الى من هم وراءه.

قال السياسي يتنبأ بالدمار بصوت عال مرح: «إنها بداية النهاية».

وقال رانسم وهو يقلد صوت ماندراغور وحركاتها المتلوعة المتشهية: «آه ياعزيزي المهاراجا، إنك لاتعرف مقدار تعشقي للشرقِ!».

«ان السبب في مركزنا الفريد هو أننا بدأنا النظام الصناعي قبل أي دولة اخرى. واما الان، وقد حذا العالم حذونا، فإننا نجد ان من الخسارة ان نكون البادئين. فقد اصبحت عدتنا قديمة و-».

صاحت ماري هايغ: «غريغوري» قص لنا قصة الجندي

المجهول!»

قال غريغوري «الجندي المجهول؟» وهو غير واثق مما يقول. محاولاً ان يستمع الى ما يقال وراءه.

«ان الذين أتوا في النهاية لديهم أحدث المخترعات. وهذا امر واضح. إننا ـ».

«ألا تعرفها؟ قصة حفلة ماندراغور».

«آه عندما دعت جميعهم الى حفلة شاي لكي يقابلوا أم الجندي المجهول؟».

والسياسي مازال يقول بصوته العالي الطروب: «.. كايطاليا مثلاً. وفي المستقبل سنجد جميعاً ان لدينا مليوناً او مليونين من السكان اكثر مما نستطيع ان نستخدم ـ والحكومة تعولهم».

مليوناً او مليونين... فكّر غريغوري في سباق الدربي. فاذا قُدّر الجمهور المشاهد بمئة الف فإنه ليتصور جمهوراً عشرة اضعافه، او عشرين ضعفه، كل افراده على شفى الموت جوعاً، يتظاهرون في الشوارع حاملين اعلام الاحتجاج، عازفين على الآلات النحاسية. حينئذ اسقط المونوكل عن عينيه، وقال لنفسه: يجب ان ارسل خمسة جنيهات الى مستشفى لندن. اربعة الآف وثمانمائة جنيه في السنة، اي ثلاثة عشر جنيهاً في اليوم. هذا دخلي. اما الضرائب فثقيلة، ثقيلة جداً، ويجب تخفيضها طبعاً. وحاول ان يستشعر بالغضب على مسألة الضرائب كما يفعل بعض الذين يحمرّون حنقاً حين التحدث عنها، ولكنه لم يفلح، لانها مهما كانت فادحة لن تكون عذراً له عن عدم التبرع او تبريراً له. وعلى حين غرة اصابه أسى عميق. غير انه حاول ان يعزّي نفسه بقوله ان من بين هؤلاء المليونين العاطلين لن يستطيع

اكثر من عشرين رجلاً او خمسة وعشرين العيش على دخله السنوي. وما خمسة وعشرون رجلاً من مليونين؟ ما اسخف الأمر! غير انه لم يتعزّ بكل هذا.

وكان رانسم مازال يتحدث عن ماندراغور: «والغريب انها لاتهتم قطعاً بأسودها. فمثلاً تراها تبدأ بإخبارك عما قاله لها اناتول فرانس، ثم تنسى وهي في وسط الحديث، موضوع كلامها، من جراء الضجر الذي قد ينتابها في تلك اللحظة».

ففكر غريغوري قائلاً لنفسه: «يا الله! ما اكثر ما سمعت رانسم يدلي بنفس التعليق على سيكولوجية ماندراغور. لاشك انه سيقحم الآن في الحديث قوله المعهود عن الشمبانزي. وقانا الله.

قال رانسم. «هل راقبتم يوماً الشمبانزي في حديقة الحيوانات؟ أتذكرون كيف يلتقط قطعة من القش او قشرة موز، فيتفحصها لعدة ثوان باهتمام شديد؟ (وهنا جعل يقلد حركات القردة) ثم ينتابه فجأة ضجر شديد فيسقطها من يده ويتلفت حوله باحثاً عن شيء جديد. انه دائماً يذكرني بماندراغور وضيوفها، عندما تبدأ بالكلام بشغف وحرارة، كأن محدثها هو الرجل الوحيد في الدنيا، ثم فجأة..».

لم يعد غريغوري يطيق اكثر من ذلك. فهمهم لمس كمبرداون بشيء يعني به أنه رأى شخصاً يود الحديث اليه واختفى، زاحفاً كالبزاقة بين الناس وهو يردد « من فضلك... » ويقول في نفسه: ما افظع هذا كله، ما ابشعه وفي احدى الزوايا لقي كرين - وهو شاب صغير - مع رجلين أو ثلاثة وفي ايديهم الكؤوس.

قال: «بالله اخبرني ياكرين، من اين حصلتم على ذلك المشروب؟».

لاح له ان ذلك السائل الذهبي هو أمله الوحيد. فأشار كرين الى

الممر المؤدي الى غرفة الجلوس الخلفية. ثم رفع كأسه دون ان ينبس ببنت شفة وتجرعها، وغمز غريغوري من فوقها ـ وله وجه كأنه خلق عن صدفة خطأ! فانسلّ غريغوري بين الجمهور وهو يقول عالياً: «من فضلك»، ولكنه في نفسه يقول: كان الله في عوننا.

وجد في الناحية الاخرى من غرفة الجلوس الخلفية مائدة عليها زجاجات وكؤوس، والسكّير المحترف جالساً على صوفا قربها والكأس في يده، وهو يعلق لنفسه على كل من دنا منه وكان في مسمع منه.

وإذ قصد غريغوري المائدة سمعه يقول: «يا الله! انظر الى تلك المرأة»! وما تلك المرأة الا مسز لبدي، وقدها الضامر مكسو بثوب من الذهب واللاليء «يـاالله!» وذلك أنها عندئذ هاجمت فتى خجولاً مستحكماً وراء المائدة.

فأدنت وجهها الحصاني من وجه الفتى وراحت تقول بضراعة: «اخبرني بحياتك يامستر فولي ـ فانك تعرف كل شيء عن الرياضيات ـ اخبرني...»

وصاح السكير المحترف: «أهذا ممكن؟ حتى في اراضي انكلترا الريانة الخضراء؟ ها، ها، ها» وقهقه بضحكته الملودرامية.

ففكر غريغوري لنفسه: ياله مجنوناً مزهواً بجنونه! يحسب نفسه رومانسياً او فيلسوفاً ضاحكاً. فيقول الناس انه يسكر لأن الدنيا ساقطة في عينيه، كأنه، «فاوست» صغير.

واستمر باكستون في القائه: «وهذا بوليفيم ايضاً... يالك من بوليفيم صغير»، وضحك ثانيةً «وريث الاجيال المتعاقبة. ياالله!».

صب غريغوري لنفسه، بكل وقار، شيئاً من الويسكي، ثم ملأ الكأس بماء الصودا بوقار ورشاقة ظاهرة ودقة بالغة، كأنه على

المسرح يمثل دور رجل يملأ كأسه بـالوسكي والصودا. وبعـد ان رشف رشفة، جعل يمثل دور رجل يخرج منديله ويمخط فيه.

واستأنف السكير كلامه: «الا يحدو بك هذا الجمهور على الاعتقاد بمنع الحمل؟ آه لو استشار والدو هؤلاء القوم ماري ستوبس ولو مرة واحدة!» وهنا تنهد على الطريقة الشكسبيرية.

ففكر غريغوري: انه مهرج. والافظع من ذلك هو أنك اذا لقبّته بهذا اللقب قال لك متظاهراً انه كان دائماً يطلب منك ان تفعل ذلك. ولاشك انه قد طلب من الناس الاعتقاد بانه مهرج لكي يأمن سخريتهم. على انه في الحقيقة يظن انه من طراز الفرد دي موسيه، او بايرون في لباس عصري. رجل ذو روح جميلة سوّدتها بنات الدهر وافعمتها بالمرارة. أف!

واستمر غريغوري في تجاهله دنوه من السكير المحتـرف، وراح يرشف من الكأس.

وكانت مسز ليدي عندئذ تقول مبعثرة كلماتها فوق وجـه الفتى الرياضي «لقد وضّحتها أجمل توضيح» وابتسمت له، فقال غريغوري لنفسه: ان في ذلك الوجه الحصاني تعبيراً انسانياً قوياً.

وقال الفتى الرياضي في شيء من اضطراب الاعصاب: «والان لنأخذ العالم ريمان».

فرددت مسز ليدي: «ريمان! ريمان!» في نشوة سكرى، كأن روح هذا العالم ماثلة في اسمه.

فتمنى غريغوري لو كان هناك من يستطيع ان يتحدث اليه فينجو من تمثيل دور الرجل غـير المكترث بـالناس امـام عيني باكستـون الفاحصتين، فاتكأ على الحائط متخذاً وضع من تطغى عليـه فجأة

تأملات الشقاء. وركّز عينيه في نقطة على الجدار المقابل، شارد الذهن، وما الذي طفق يفكر فيه؟ نفسه. يا للغرور، ياللغرور! ما افظع هذا كله وما اشنعه!

«بوليفيم!».

فتظاهر بعدم السماع.

فصرخ باكستون: «بوليفيم!».

فبالغ غريغوري قليلا في تمثيل دور من يستفيق من تأمل عميق، فأجفل ثم رمش جفنيه في شيء من الذهول، والتفت الى السكير:

«آه باكستون، سيلنوس، لم اعرف انك جالس هناك».

قال السكير المحترف: «احقاً لم تعرف؟ تلك مهارة منك. ما الذي كنت تفكر فيه وانت في ذلك الوضع الجميل؟».

فأجابه غريغوري مبتسماً ابتسامة المفكر المتواضع الذي يضطرب عندما يُرى غارقاً في تفكيره: «آه، لاشيء».

«تماماً كما ظننت. لاشيء، لاشيء» ثم ادرف قائلا لنفسه: «ياالله!».

فابتسم غريغوري ابتسامة صفراء واشاح بوجهه وعاد الى تأملاته، اِذ لاح له اِن ذلك احسن ما يستطيع فعله في ظروف كهذه. ثم افرغ كأسه في جوفه حالماً، كأنه لايعي ما يصنع.

وسمع السكير المحترف يتمتم: «ياالله! هذه الحفلة اشبه شيء بجنازة! لافرح فيها البتة».

وعندها سمع صوتاً اخر يناديه، فتظاهر مرة اخرى بأنه يستفيق من ذهوله، لانه خشي ان سبيلر قد يحترم تأملاته فلا يقف للكلام معه.

ولذلك صاح صيحة سرور ودهشة: «سبيلر! كيف حالك ياعزيزي؟» وصافحه بحرارة.

اما سبيلر فكان ذا وجه مربّع، وفم واسع، وجبين عريض يكتنفه شعر جعد غزير، فكان يشبه مشاهير عصر الملكة فكتوريا. وطالما قال اصدقاؤه ان في امكانه ان يصبح من مشاهير عصره، لولا انه بدلا من ان يكتب، يؤثر الحديث عن الكتابة.

قال سبيلر: «جئت اقضي هنا يوماً واحدا فقط، اذ لم استطع ان احتمل الريف ساعة واحدة اخرى، فانا اشتغل كل يوم، ولا صحب ولا خلان لي الا نفسي، ونفسي تضجرني ضجرا شديدا». ثم صب لنفسه شيئاً من الوسكي.

قال السكير المحترف: «يالله! الرجل العظيم! ها، ها!» وغطى وجهه بيديه وارتجف اشمئزازا.

قال غريغوري وهو يشير الى جمهور الحفلة: «اتعني انك جئت خصيصا لهذا؟».

«لا خصيصاً. ولكن لما سمعت ان هرمايوني ستقيم الليلة احدى حفلاتها جئت من تلقاء نفسي».

فسأله غريغوري، متخذاً اللهجة البايرونية المتمرمرة التي يستعملها السكير المحترف: «لماذا يذهب الناس الى الحفلات؟».

فأجاب سبيلر، دون تردد، بلهجة المعصوم عن الخطأ: «لكي يشبعوا رغبات غريزة الجماعة، كما يلاحق الرجل المرأة لاشباع غريزة التناسل». وقد كان لسبيلر طريقة في التعبير تسبغ على كل ما يقول ثوبا علميا، مما جعل غريغوري بتفكيره البعيد عن الوضوح يجد في حديثه ما يثير الذهن واللذة العقلية.

«اتعني ان الناس يذهبون الى الحفلات لكي يجدوا انفسهم في وسط الجمهور، ليس الا؟».

اجاب سبيلر: «بالضبط. لكي يشعروا بحرارة الجماعة التي حولهم ويشتمّوا رائحة اخوانهم الناس». واخذ يشتم الهواء الحار اللزج.

فقال غريغوري: «لعلك مصيب في ذلك. فمن الصعب جدا ان افكر في اي سبب آخر».

وارسل نظره في ارجاء الغرفة كأنه يبحث عن اسباب اخرى. ولشد دهشته عثر على واحد منها: مولي فولز. واذ لم يكن رآها من قبل، ظن انها كانت قد وصلت في تلك اللحظة.

واخذ سبيلر يقول: «عندي فكرة هائلة لمجلة جديدة».

غير ان غريغوري لم يبد رغبة كثيرة في استطلاع هذه الفكرة حين قال: «صحيح؟» ما اجمل عنقها وذراعيها الرفيعتين!

فاستمر سبيلر قائلا: «للفن والادب والعلم. والفكرة عصرية جدا كما ترى، فالغرض منها ان نقرب العلم من الفنون، وهكذا نقربه من الحياة-وحينئذ تستفيد الحياة ويستفيد الفن ويستفيد العلم. افاهم ما اقول؟».

قال غريغوري: «نعم، نعم». بيد انه كان يتابع مولي بنظره، آملاً في ان تقع عيناها عليه. واخيرا تم له ذلك حين نظرت اليه بعينها الرماديتين المتزنتين، وملؤهما الهدوء.

وسأله سبيلر: «اتحب الفكرة؟».

فاجاب غريغوري بحماس فجائي ادهش محدثه: «فكرة رائعة».

فشاع السرور في وجه سبيلر العريض القوي، وقال: «مسرور انا... مسرور جدا لاعجابك بها».

فبالغ غريغوري في القول: «انها رائعة، رائعة جدا» وفكر ان مولي

قد سرت حقا لرؤيته.

فتابع سبيلر الكلام: «اتظن انك تود ان تساعدني في الشروع بها ان الف جنيه تكفي لهذا الغرض».

فخبا الحماس في وجه غريغوري المستدير، واضحى خلوا من كل تعبير. وهز رأسه قائلا بأسف: «انّى لي الف جنيه؟» ولكنه قال في نفسه: لعنة الله عليه! وضع لي فخا لاقع فيه.

فردد سبيلر: «انى لك؟ ولكن ياعزيزي» وضحك. «سيكون لك على الاقل ستة في المئة، فلا خوف عليك. وفي مقدوري ان اجمع فيها عددا من اعظم الكتاب».

فهز غريغوري رأسه ثانية وقال: «وا أسفاه».

فألح سبيلر قائلا: «وعدا عن هذا فانك سوف تعد من المحسنين الى المجتمع».

«مستحيل»، ثبت غريغوري في عزمه، وكأنه قد رسخ قدميه في الارض كحمار يرفض ان يتحرك ولو شبرا واحدا. وذلك ان المال كان الشيء الوحيد الذي لايستطيع احد ان يزحزح عزمه فيه.

قال سبيلر: «ولكن ما الف جنيه في نظر مليونير مثلك؟ فان عندك - كم عندك من المال؟».

فنظر غريغوري في عينيه نظرة زجاجية.

وقال: «دخلي الف ومئتا جنيه في السنة، او قل الف واربعمئة جنيه». غير انه لاحظ ان سبيلر لم يصدقه - قبحه الله. طبعا لم يكن ينتظر منه ان يصدقه، ولكن على كل حال... واردف وفي صوته رنة حزن: «ثم هناك الضرائب، والتبرع للمشاريع الخيرية». وتذكر الخمسة جنيهات التي كان سيرسلها الى مستشفى لندن «كمستشفى لندن مثلا - فهو دائما في حاجة الى المال». وهز رأسه

اسفاً: «لا، مستحيل». وفكر في العاطلين عن العمل، وعددهم عشرة أضعاف المشاهدين في سباق الدربي، وهم على شفى الموت جوعاً يتظاهرون في الشوارع، حاملين الاعلام والالات الموسيقية النحاسية. فشعر باحمرار الخجل يغشو وجهه، وغضب على سبيلر، ألا قبحه الله!

ثم وقع في اذنيه صوتان في آن واحد: صوت السكير المحترف وصوت آخر نسائي ـ صوت مولي.

قال السكير بئن: «هاهي شاربة دماء الرجال!».

وقالت مولي، معيدة اخر كلمة فاه بها: «مستحيل؟ أي شيء مستحيل؟».

فشرح لها سبيلر القضية، فقالت: « لاشك عندي أن غريغوري يستطيع ان يمدك بالف جنيه». ونظرت اليه نظرة غضب وازدراء، كأنها توبخه على بخله.

فقال غريغوري، محاولا أن يتفكه بالموضوع: «اذن تعرفي انت بمالي أحسن مني». وتذكر ما قاله صديقه المعروف بنجاحه في المجتمعات بشأن الاطراء، فأردف: «ما أجملك في هذا الثوب الابيض يامولي!» وارفق بصوته المازح نظرة حاول ان يشحنها توردا ووقاحة في آن. ثم عاد فقال: «ما اجملك!» ووضع المونوكل على عينه.

فبادلته النظرة بنظرة حازمة واجابت: «اشكرك». وإذ كانت عيناها هادئتين براقتين خابت إزاء حدتهما محاولته التودد الوقح، وباءت مداعبته بالفشل. فحول عينيه عنها واسقط المونوكل. فقد كانت هذه الزجاجة سلاحا لم يجرؤ على استعماله، بل لم يعرف كيف يستعمله ـ فجعلت منه أضحوكة للناس. لقد شبه نفسه بمسز لبدي ذات الوجه الحصاني وهي تغازل مهفتها مداعبة.

ثم قال لسبيلر، وقد سر لايجاد منفذ للنجاة من تينك العينين: «اود ان احدثك في هذا الامر على كل حال. ولكنني اؤكد لك انني لااستطيع ـ او قل انني لااستطيع ان ادفع الالف جنيه كلها». قال هذا وهو يشعر يائسا بأنه قد اجبر على الاستسلام رغم انفه.

وصاح السكير المحترف «مولي!».

فذهبت اليه طائعة وجلست قربه على الصوفا.

وسألته وهي تضع يدها على ركبته: «وكيف انت ياتوم؟».

فأجابها بلهجة تراجيدية: «كما تعهدينني دائما كلما رأيتك حولي: مجنون!» وارسل ذراعه حول كتفها وانحنى نحوها قائلا: «مجنون بالمرة».

فقالت: «افضل الا نجلس في هذا الوضع». وابتسمت له. فتبادلا النظرات عن قرب، ثم سحب باكستون ذراعه وتراجع الى موضعه الاول من الصوفا.

فلما رآهما غريغوري كذلك جزم فجأة بانهما عاشقان، وحدّث نفسه. باننا لابد نعشق احط الاشياء حين نراها، فهذه مولي كل عشاقها من نفاية القوم.

والتفت الى سبيلر، فاذا هو مازال يسهب في وصف مجلته الجديدة. فقال له مقاطعا: «تعال لنذهب الى منزلي، فلا ضجيج هناك ولا هواء فاسد». وراح يفكر: مولي وباكستون! مولي وذلك الوحش السكران! أمن الممكن؟ ولكن لاريب، لايب! ثم اردف: «لنخرج من هذا المكان القذر بسرعة!».

فوافق سبيلر: «حسناً. ولكن لنشرب قبل ان نخرج شيئاً من الوسكي. يكون لنا عونا في الطريق». ومد يده الى الزجاجة.

فشرب غريغوري حوالي نصف كوب وسكي دون أن يمزجه. وبعد أن مشى بضع خطوات في الشارع ادرك ان سكرة خفيفة بدأت تتمشى في عروقه.

قال: «اعتقد ان غريزة الجماعة لم تنم في نموا كاملا. ما اشد ما اكره الجماهير! » مولي وسيلنوس في شكل باكستون! وتخيلهما يتغازلان، فقال لنفسه: وانا السخيف ظننت انها سرت لرؤيتي عندما وقعت عيناها علي!

ولما بلغا ميدان «بدفرد سكوير» كانت الحدائق رهيبة في ظلمتها، كأنها الآجام في الريف، فاصطلحت عليه الآجام من حوله والوسكي في جوفه وحولت اساه الى انغام، فطفق يغني: «وما الذي تفعلين الان، ياحبيبتي يرويديسي..».

قال سبيلر مجيباً على عبارته: «خير لك ان تبقى بدونها. تلك خدعة الحب وسخافته. فانك في كل مرة تعشق تعتقد اعتقادا جازماً بان الحب شيء عميق المعنى، خالد ابد الدهر. كل مرة. وبعد وثلاثة أسابيع تبدأ تحس بالملل من مبعودتك، او ان رجلا اخر يغازلها بعينيه، فتتحول المشاعر اللامتناهية الى مكان اخر، وتبدأ انت اجازة خالدة اخرى. ان الحب ياصاح اشبه شيء «بمقلب» قبيح ومزعج، غير ان طريقة الطبيعة في التنكيت غير طريقتنا».

فقال غريغوري في شيء من الحنق: «اذن تظن ان الحب نكته؟ لا اوافقك. ان الحب يمثل شيئاً حقيقياً، مكانه خارج انفسنا، شيئاً في تركيب الكون».

«ولكل خليلة كون يختلف عن كون الاخرى؟».

فقال غريغوري بصوت فيه آثار الدموع: «وماذا تقول في امريء لم

يحب الا مرة واحدة في حياته؟» وتاق لو يحدث صاحبه عن طرف من شقائه في مولي، ذلك الشقاء الذي لم يعرف مثله انسان من قبل.

قال سبيلر: «ما من امرىء الا ويحب اكثر من مرة».

«واذا قلت لك ان هناك من لم يحب الا مرة واحدة؟» قال غريغوري هذا وشهق. فأجابه الاخر بأسلوبه العلمي الحاسم: «سبب ذلك اذن قلة سنوح الفرص».

وكان كل ما استطاع غريغوري ان يفوه به: «لا اوافقك». وصمم على الا يذكر له شقاءه، فلعل هذا الفاسق ممن لايشاطرون محدثيهم الحزن.

واستأنف سبيلر الكلام: «اما انا فقد امسكت منذ زمان عن محاولة فهم هذا المشكل. فانا اتقبل هذه المشاعر اللامتناهية كما هي ـ فهي ملذة للحس ومثيرة للذهن مادامت باقية ـ باقية ـ ولا احاول ان افسرها او ادرسها دراسة منطقية. وهذا ولا ريب هو الاسلوب الوحيد لمعالجة الحقائق».

وتلا ذلك سكون، وقد وصلا الى شارع «توتنهام كورت» وانواره تتألق، وارضه المصقولة تعكسها، ومداخل دور السينما تشبه كهوفا من ضوء اصفر باهر. وفي تلك اللحظة مر بهما باصان يزمجران.

واستأنف سبيلر كلامه يقول: «وهذه المشاعر اللامتناهية خطرة بل خطرة جدا. فقد كدت يوما ان اتزوج بسبب بعضها. ما اعجب ما تفعله البواخر من اثارة الشهوات في صدور من لم يعتادوا ركوب البحار، ولاسيما النساء. وجدير بفزيولوجي قدير ان يدرس هذه الظاهرة الغريبة. طبعا قد يكون السبب فيها الفراغ، والطعام الكثير، والاختلاط المستمر. غير انني اشك في امكانية الحصول على النتيجة

نفسها لو توفرت هذه الظروف في البر. ولعل التغيير الكلي في المحيط من البر الى البحر يضعف في الناس ما اعتادوا عليه من وازع ارضي. ولعل قصر امد الرحلة البحرية يساعد في ذلك، كأنهم يحسون بان الرحلة عما قريب ستنتهي فليقطفوا الورد في براعمه وليجرعوا كؤوس الصبابة قبل فوات الاوان. من يدري؟» وهز كتفيه: «مهما يكن السبب، فانها ظاهرة عجيبة. على كل حال، فقد بدأت حكايتي، كما قلت، على ظهر باخرة».

واصغى غريغوري اليه وشفتاه منفرجتان بابتسامة، واضواء شارع «توتنهام كورت» وضوضاؤه تتراقص خلف عينيه كما تتراقص امامهما. واستمر صاحبه في قصته الى ان اوغلا في شارع «فشارنغ كروس».

وعندما فرغ منها كان غريغوري قد بدا عليه الطرب والترنح. فقد قرن نفسه في الخيال بسبيلر، فاضحت مخاطرات سبيلر مخاطراته هو، فقهقه بالضحك، ووضع المونوكل على عينيه بعد ان كان يتلوح فيرن على ازرار صدريته اثر كل خطوة. ولا يغيب عن اللبيب ان ذا الحشا المتفطر لا يستطيع ان يضع زجاجة على عد·· ، وهو قد اضحى ايضا العاشق الذي يخدع النساء. وتلعثم قليلا، وكاد يحط من مرحه شعوره بدوخة طفيفة. ولكنها كانت طفيفة جدا، اجل، اجل، انه هو ايضا يعرف اسرار الحياة في البواخر، وان تكن اطول رحلاته البحرية لم تمتد الا من جنوب انكلترا الى «دييب» في فرنسا.

ولما بلغا «ميدان كمبردج» كانت المسارح تلفظ جماهيرها. فكانت ارصفة الشوارع مزدحمة، والجلبة وعطور النساء تملأ الجو. واليافطات من فوق ترتجف وتطقطق. وابهاء المسارح تسطع

بانوارها. فلم يجد غريغوري مشقة في الشعور بالانفة عن مـظاهر رفاهية شعبية كهذه لاشيء فيها من الارستقراطية. وطفق يتفحص من وراء المونوكل كل امرأة عابرة، وقد شعر بمرح عجيب (كادت دوخته ان تتحول الى احساس مزعج نوعا) وشعر بطرب عجيب، وشعر ايضا ـ وذلك من الغرابة بمكان ـ بانه كبير، اكبر من الحياة. اما مولي فولز فلسوف يلقنها درسا يوما ما.

قال: «تلك مخلوقة فتانة» واومأ الى امرأة في عباءة من حرير احمر لها شعر ذهبي قصير.

ولكن سبيلر هز برأسه غير معير ذلك اهتماما كثيرا وقال وهـو يفكر «ولنعد الى حديث مجلتنا. اظن انه يحسن بنا ان نبدأهـا بسلسلة مقالات عن قواعد العلم المتافيزيقية، والاسباب التاريخية والفلسفية التي تحدو بنا الى الاعتقاد بان الحقيقة العلمية صحيحة فعلا».

قال غريغوري: «احم».

«وفي نفس الوقت ننشر سلسلة اخرى عن معنى الفن واغراضه. وفي كلتا الحالتـين نبدأ من القـواعد الأولية. ألا اتظن انهـا فكرة حسنة؟».

قال غريغوري: «تمام». وقابلت احدى نظراته المونوكلية ابتسامة قبول من احدى النساء، ولكنها كانت لسوء الحظ دميمة الوجه، ويلوح عليها جلياً انها ممن يحترفن البغاء. فمرّ بها متعجرفا كأنها ليست هناك.

وكان سبيلر لا يزال يقول متأملا: «لست موقنا تمام اليقين ان كان تولستوي مصيباً في رأيه. هل يجوز لنا ان نصدق ما يقوله من ان غاية الفن هي نقل العاطفة؟ لعل ذلك بعض غاية الفن، لاكلها». وهز رأسه الكبير.

قال غريغوري كأنه يخاطب نفسه: «يظهر ان سكري في ازدياد». وغدا يقلقه ذلك، وان يكن مازال يمشي مشية مستقيمة. وبدأ شعوره بالدوخة يزداد شدة.

ولم يسمع سبيلر ما قاله صاحبه، او انه ان كان سمعه فقد تجاهله. واستمر في القول: «اما انا فاعتقد ان غاية الفن الاساسية هي اعطاء المعرفة. فالفنان يعرف اكثر منا عن العلاقات القائمة بين روحه والكون. فهو يسبقنا الى معرفة لايمكن ان تعم في الناس الا عندما يبلغون درجة عليا من العطور. ولذا تجد ان اكثر معاصرينا، اذا قيسوا باعظم وارقى ممن ماتوا في العصور السابقة، ماهم الا بدائيون».

قال غريغوري غيرُمصغٍ: «تمام». كانت افكاره تتبع عينيه في مكان آخر.

واردف سبيلر: «وعدا عن هذا فان في وسع الفنان ان يقول ما يعرفه، بل ان يقوله في طريقة تجعل معرفتنا البسيطة المتفككة، التي لانظام فيها ولا ترتيب، تتخذ شكلا معينا ـ كبرادة الحديد تحت تأثير المغناطيس».

على حافة الرصيف وقفت ثلاث غادات كواعب، يثير صباهن الغض كوامن الهوى، وهن يتجاذبن اطراف الحديث، ويمعن النظر في المارة بعيون براقة تزدري بهم، ويعلقن على الناس بهمسات مسموعة، وينفجرن بضحك عال نافذ النبرات. واذ دنا منهن سبيلر وغريغوري، رمقتهما احداهن، فنخزت صاحبتيها.

«ياللمنظر!».

وقهقهن عالياً، وملأت آمارات الشماتة وجوههن.

«انظروا الى هذا المارد!» وكان المقصود بهذه العبارة سبيلر الذي كان ماشياً عاري الرأس، وقبعته الرمادية الكبيرة في يده.

وانطلقت صيحة اخرى لصاحب المونوكل:« والى هذا الأخرق!».

وقال سبيلر دون ان يعي بشماتة الحسان به: «وهذه القوة المغناطيسية التي تنظم فوضى العقل وتضفي عليها شكلا ثابتاً، هي التي تجعل الحقيقة التي يعبر عنها المرء شعرا او فنا، اجلّ قدرا من الحقيقة التي يعبر عنها المرء نثرا».

وأما غريغوري فهز اصبعه على الشامتات يوبخهن مداعباً، فانطلقت من حناجرهن صيحة نافذة اخرى، ومر الاثنان بهن، ثم التفت غريغوري الى الخلف مبتسماً، وقد اشتد طربه ومرحه على ان الدوخة غدت امرا مزعجا حقا.

قال سبيلر: «مثلا قد اعرف تمام المعرفة ان الانسان مائت لا محالة، غير ان هذه المعرفة تتخذ شكلا معينا، بل تزداد اتساعا وعمقا عندما يتحدث شكسبير عن ذلك فيقول ان كل مآسينا قد انارت للبشرية الحمقاء الطريق إلى الموت والتراب.

وكان غريغوري يبحث في ذهنه عن عذر يتخذه لكي يتهرب من صديقه ويعود الى مغازلة الغادات الثلاث، حيث يطارحهن الحب جميعا في آن واحد كما قال مالارميه:

أشتت شمل القبلات الواشجات
التي احسنت الآلهة مزجها..

وجاءت اليه عبارة مالارميه، مكونة من رغباته المبهمة أروع الأشكال وأنقها. اذن كان سبيلر السخيف مصيبا في ما يقول! واما

كلمات سبيلر فجاءت اليه كأنها صادرة من مكان بعيد.

ـ «افتتاحية» «كوريولان» التي نظمها بتهوفن جزء من معرفة جديدة، كما انها تنظم معرفة قديمة كانت تشتتها الفوضى».

وفكر غريغوري في ان يقترح الذهاب الى فندق مونيكو بحجة نداء الطبيعة، وهناك يتسلل الى الخارج خلسة ولا يعود. افليس من السخف من سبيلر ان يبالغ في ثرثرته الان؟ لاشك في ان ما يقوله طلي جدا لو انه قاله في مناسبة اخرى. اما الان... ولا ريب ايضا انه يظن انه سيستخرج مني، انا غريغوري، الف جنيه. ياللمهزلة! غير انه في ازدرائه هذا شعر بان سكره قد تحول الى اضطراب في المعدة مزعج.

وسمع سبيلر يقول: «والمشاهد الطبيعية في بعض لوحات سيزان مثلا».

وعلى حين غرة خرج من بوابة مظللة، على بعد بضع اقدام منهما، شيء يتحرك ببطء وهو يرتجف، شيء كأنه حزمة من خرق سوداء مهلهلة، يمشي على حذائين مهصورين، وعلى رأسه قبعة مقطعة متثنية الحواف. وله وجه هزيل في لون الطين، ويدان تحمل احداهما طبقا صغيرا عليه علب كبريت. وكان يفتح فمه، وقد فقد من اسنانه الصفراء سنين او ثلاثا، وهو يغني بصوت يكاد لايسمع. وخيل الى غريغوري انه يرتل انشودة «انني منك ياربي ادنو..».

واقتربا منه، واستمر سبيلر في تلاوة قائمته التي لانهاية لها: «ورسوم جونو، وبعض تماثيل الاغريق القديمة...».

نظر ذلك المخلوق اليهما ونظر غريغوري اليه، وتقابلت عيونهما. فوسع غريغوري فتحة عينه اليسرى وسقط المونوكل الى اخر خيطه الحريري. وبحث في الجيب الايمن من بنطلونه، الجيب الذي يحفظ

فيه العملة الفضية، لعله يعثر فيه على نصف شلن، ولا بأس حتى من قطعة شلن. غير انه لم يكن في جيبه الا اربع قطع من ذات الشلنين والنصف. شلنان ونصف! فتردد، ورفع احدى القطع الى منتصف الجيب ثم اسقطها فرنت فيه. وبعد ذلك ادخل يده في الجيب الايسر حيث القطع النحاسية واخرجها مملوءة الحفنة. واسقط في الطبق الذي قُدّم اليه خمسة عشر بنسا.

وقال: «كلا، لا اريد كبريتا».

وتوقف الرجل عن الترتيل لحظة لكي يشكر غريغوري. غير ان غريغوري احس بخجل شديد، وقد جعل المونوكل يرن في ازرار صدريته. وصار اذ يخطو يضع الرجل امام الاخرى بحذر، وهو يمشي مشية مستقيمة ولكنها اشبه بمن يمشي على الحبل. كم تمنى لو كان صاحيا. وكم تمنى لو لم يشته تلك «الكومة المشتتة من القبلات» خمسة عشر بنساً! ولكن مازال لديه متسع للرجوع فيعطي السائل قطعة ذات شلنين ونصف، بل قطعتين. فليعد راكضا... غير انه استمر في مشيه مع سبيلر خطوة خطوة، كأنه يمشي على الحبل... اربع خطوات، خمس خطوات... احدى عشرة خطوة، اثنتا عشرة خطوة، ثلاث عشرة خطوة. آه،يالسوء الطالع! ثماني عشرة خطوة، تسع عشرة... فات الاوان. من السخف ان يعود الان، من الحماقة ان يعود الان. اثنتان وعشرون خطوة، ثلاث وعشرون خطوة... لقد تحولت دوخته الى اضطراب لاريب فيه في المعدة.

وكان سبيلر يقول: «ولكنني في الوقت نفسه لست ادري كيف يمكن لاكثر الحقائق والنظريات العلمية ان تصبح موضوعا للفن. لست ادري كيف يمكن وضعها في قالب شعري عاطفي دون ان تفقد دقتها، فمثلا كيف تستطيع ان تضع نظرية الضوء المغناطيسية

الكهربائية في شكل ادبي مؤثر؟ طبعا هذا مستحيل».

فصاح غريغوري في غضبة فجائية: «بالله كفاك كلاماً! كيف تستطيع ان تتكلم وتتكلم طيلة الوقت؟» وشهق شهقة من يكاد ان يتقيأ.

فسأله سبيلر في شيء من الدهشة: «ولم لا؟».

فقال غريغوري بصوت حزين، والدموع تكاد تطفر الى عينيه: «اتتكلم عن الفن والشعر والعلم وفي انكلترا مليونان من الناس على شفى الهلاك جوعا؟ مليونان من الناس». وكان غرضه من تكرار العدد ان يؤثر في نفس صاحبه، ولكنه شهق شهقة اخرى، وشعر انه لابد ان يتقيأ، غير انه استمر وصوته آخذ في الانخفاض: مليونان من الناس يسكنون كهوفا نتنة، مختلطين بعضهم ببعض كالحيوانات، بل اسوأ من الحيوانات.

ووقفا، وواجه كلاهما الاخر.

واراد غريغوري ان يعيد غضبته السابقة في سبيل الانسانية، غير ان شعوره في معدته بدنو لحظة التقيؤ كان كبخار عفن يتصاعد من مستنقع، ويملأ دماغه وينفي عنه كل فكر وكل عاطفة، سوى ترقب الاستفراغ المخيف..

وفي تلك اللحظة فقد وجد سبيلر فجأة علائم العظمة والشهرة التي كانت مرتسمة عليه، وبدا كأنه يتفتت، فانفتح الفم، واضيقت العينان، وتجعد الجبين، وجعلت الخطوط الممتدة من طرفي المنخرين الى طرفي الفم تمتد وتتقلص، وصدر عنه صوت عميق ـ فقد كان جسمه الضخم يهتز من جراء ضحكه الشديد، كأنه عملاق يقهقه.

ولم يبق لدى غريغوري الا الصبر وامل يتلاشى، فانتظر صابرا الى ان فرغ صاحبه من نوبة ضحكه. لقد جعل من نفسه معتوها وها هو

الآن مضحكة لزميله على انه لم يكن في وسعه الان ان يأبه لامر مثل ذلك.

واستطاع سبيلر بعد لحظات ان يستعيد مقدرته على الكلام بعد الضحك، فقال وهو يلهث: «انك مدهش ياعزيزي غريغوري!» ووقفت الدموع في عينيه اذ اعاد: «انك مدهش حقا!» واخذه بذراعه متحببا وهو ما زال يضحك، وعاد الى المشي. ولم يجد غريغوري، مندوحة عن المشي ايضا.

ولكنه بعد بضع خطوات قال: «من فضلك لنستقل تكسي».

قال سبيلر: «ونذهب الى شارع جرمين؟».

فألح غريغوري: «اجل. لنستقل تكسي».

وفيما هو يدخل السيارة علق المونوكل بمقبض الباب. وانقطع الخيط وسقطت الزجاجة على ارض السيارة. فالتقطها سبيلر وناوله اياها.

قال غريغوري... «شكراً». ووضعها في جيب صدريته لئلا يصيبها اي اذى.

التركة

فرجينيا وولف
١٨٨٢ـ ١٩٤١

ترعرعت فرجينيا ولف في جو مشبع بالثقافة. فقد كان أبوها، السر لزلي ستيفن، ركناً من أركان الحياة الأدبية في عصر الملكة فكتوريا، كما انها كانت تنتمي من ناحية الأم الى عائلة داروين. وكانت دار أبيها ملتقى لأكبر كتاب عصره، فرشفت من مناهلهم منذ الصغر، فلما كبرت غدت زعيمة لمدرسة أدبية تمثلت فيها، لحوالي ربع قرن، أرستقراطية الفكر والابداع. وهي تذكر في إحدى رواياتها «أورلاندو» اسماء بعض الذين هي مدينة لهم بمعرفة الأحوال التاريخية والاجتماعية التي تقتضيها الرواية، وإذا هم عدد كبير جداً من أبرز الشعراء والروائيين والنقاد والرسامين والمؤرخين في هذا العصر.

أكثر ما تعنى فرجينيا ولف في الرواية، بتيار الوعي، ولهذا تراها لاتهتم بالحبكة اهتمامها بدقائق الشخصية كما تصورها الأفكار

المتواردة النافرة التي تمرّ بخاطرها. وقد تأثرت من هذه الناحية بالروائيين الفرنسيين رومان رولان ومارسل بروست، والروائي الامريكي هنري جيمز. ولكتابتها طابع شعري، يمازج بين الغنائية والرهافة والأسى، ويجعلها من القلّة الباقية في تاريخ الأدب الانكليزي.

كتبت عدداً كبيراً من الروايات يتسم كلها بأسلوبها النثري المتفرد. ولها بضعة كتب في النقد تدل على حساسية مركبة نادرة. فهي كانت تحاول التجديد دائماً، منتبهة الى التغيرات في الحساسية والذوق التي عمّت العشرينات، وغدت كتاباتها من مؤشرات الحداثة التي تلت الحرب العالمية الاولى: فهي لاتريد للرواية ان تكون صورة فوتوغرافية للحياة، بل إعادة خلق للتجربة نفسها. ولما كانت من أُسرة ثرية، وبعيدة عن معرفة حياة الناس بما فيها من بؤس ومرض وموت وقتل، فقد ركزت على التجارب الداخلية والاحاسيس العابرة، التي كانت تعيش معها بخيالها وعقلها معاً ـ الى أن اختلّ عقلها، واصيبت بكآبة نفسية أدت بها في النهاية الى إغراق نفسها. وقد نشرت في السنوات الاخيرة مذكراتها ورسائلها في مجلدات عديدة، كما ظهرت أكثر من سيرة طويلة لحياتها، مما يجعلها شديدة الحضور في الحياة الادبية الانكليزية حتى اليوم.

رواياتها جميعاً تدل على مقدرتها المجهرية على تفحص دقائق الشعور والاختبار الحسّي، والجمع فيما بينها على تنافرها. ولكن ليس لها من القصص القصيرة إلا عدد قليل جمع بعد موتها في كتاب بعنوان «البيت المسكون». وقصة «التركة» مأخوذة منه، والمرجح انها كتبت حوالي عام ١٩٣٠.

تزوجت الكاتبة من ليونارد ولف (وتسمّت بلقبه)، ثم انشآ معاً داراً

للطبع والنشر (هوغارت بريس) تقوم بطبع دواوين الشعر وكتب الادب ودراسات التحليل النفسي ـ بما فيها عدد من مؤلفات فرويد ـ إضافة الى مؤلفاتها.

من أشهر رواياتها: «مسز دالاوي» (١٩٢٥)، «الى المنارة» (١٩٢٧)، «الامواج» (١٩٣١)، «بين الفصول» (١٩٤١).

التركة

«يُعطى لسي مِلَر». التقط «غلبرت كلاندن» دبوس اللؤلؤ من بين كومة من الخواتم والدبابيس على منضدة صغيرة في غرفة جلوس زوجته وقرأ ما كتب عليه: «يعطى لسي ملر، مع خالص حبي».

لم يكن غريبا أن «آنجلا» تذكرت حتى سكرتيرتها سسي ملر، ولكن غلبرت كلاندن قال لنفسه، ما أغرب انها تركت كل شيء في هذا الترتيب العجيب، مانحة هدية ما لكل من اصدقائها ـ كأنها عرفت بدنو اجلها. غير أنها كانت في تمام عافيتها عندما غادرت البيت صباح ذلك اليوم منذ ستة أسابيع، يوم أن نزلت من الرصيف الى قارعة الطريق في بيكادلي، فدهمتها السيارة وقتلتها.

كان الان جالساً ينتظر سيسي ملر. فقد طلب منها ان تأتي اليه، اذ شعر بأنه مدين لها برمز التقدير هذا، بعد السنوات الطويلة التي قضتها في خدمة زوجته. وراح يفكر: أجل، ما أغرب ان آنجيلا تركت

كل شيء في ذلك الترتيب! فقد لحق كل صديق من اصدقائها هدية منها تدل على مودتها. وهذه الخواتم كلها، وهذه القلائد كلها، وهذه العلب الصينية كلها ـ وما كان أشد ولعها بمثل هذه العلب ـ تحمل كل منها إسماً تركت له. وكل واحدة منها تحمل لغلبرت كلاندن ذكرى جميلة. فهو قد أعطاها هذا واعطاها ذلك، وهذا الدلفين المصقول بعينين من الياقوت، انه ليذكر كيف هجمت عليه تلهفاً في شارع صغير في البندقية، وانه ليذكر صيحة فرحها. اما له فهي بالطبع لم تترك شيئاً خاصاً ـ إلا مذكراتها. وهي ـ تقع في خمسة عشر جزءاً صغيراً، مجلدة بجلد أخضر. وها هي مصفوفة على منضدتها. لقد كانت منذ زواجهما تدون مذكراتها، وكان هذا موضوع خصام ـ او قل جدال ـ طفيف بينهما في بضع مناسبات قليلة. وذلك انها، اذا دخل عليها وهي تكتب فيها، أغلقتها او وضعت يدها عليها وقالت: «لا، لا، لا، ـ ولكن لعلي اسمح لك بقراءتها بعد ان اموت»، ولهذا تركتها له. فقد كانت الشيء الوحيد الذي لم يشتركا فيه في اثناء حياتها. على انه كان يعتقد دائماً أنه سيموت قبلها. ولو انها في تلك الساعة المشؤومة وقفت لحظة وتروت لكانت الان حية ترزق. ولكنها، كما قال سائق السيارة في التحقيق، نزلت عن الرصيف ومشت الى عرض الطريق، ولم تعطه فرصة لإيقاف سيارته.. هنا سمع اصواتاً في القاعة قطعت عليه تأملاته.

قالت الخادمة: «سيدي، الانسة ملر هنا».

ودخلت الآنسة ملر. لم يكن قد رآها وحدها من قبل، او رآها باكية. اما الان فهي مغمومة مضطربة، ولا عجب. فإن آنجيلا كانت لها اكثر من مستخدمة، لقد كانت صديقة لها. اما هو فقد قال في نفسه وهو

يدفع لها كرسياً لتجلس عليه، إنه لايرى فيها شيئاً يميزها عن بقية النساء امثالها. ففي الدنيا آلاف من نوع سسي ملر، نساء صغيرات الحجم في ثياب سوداء شعثاء، يحملن محافظ جلدية. غير ان آنجلا كانت بمقدرتها الفائقة على العطف قد اكتشفت خصالاً حميدة كثيرة في سسي ملر، فهي لبقة وهي سكوت وهي امينة، وللمرء ان يقول لها ما شاء دون خوف، وهلم جرا.

لم تستطع الانسة ملر ان تتكلم في أول الامر، بل جلست وراحت تجفف دموعها بمنديلها. ثم حاولت بجهد فقالت:

«عفوك يامستر كلاندن».

فتمتم بشيء يدل على انه يقدر الموقف، وان بكاءها في تلك الحال أمر طبيعي، اذ كان يعرف مبلغ المودة التي يكنها قلبها لزوجته.

قالت وهي تنظر حولها: «كنت سعيدة جدا هنا». ثم استقرت عيناها على المكتبة التي وراءه. هناك اشتغلتا سوية ـ هي وآنجلا. لانه كان لآنجلا نصيبها من الواجبات التي تقع على كاهل زوجة سياسي بارز. وقد كانت اكبر عون لزوجها في حياته السياسية. وكثيراً ما رآها جالسة الى المكتبة تملي الرسائل على سسي، وهذه تطبع على الالة الكاتبةولاريب ان سسي كانت الان تفكر في ذلك ايضاً. وعلى كل لم يكن عليه الا ان يعطيها الدبوس الذي تركته لها زوجته. ولكن يالها من هبة غير مناسبة! اولم يكن أليق لو تركت لها مقداراً من المال، او على الاقل الآلة الكاتبة؟ ولكن ما الفائدة، فهذه الكلمات مخطوطة على الدبوس: «يُعطي لسسي ملر، مع خالص حبي». أخذه بيده ثم ناولها اياه، مع خطاب قصير كان قد هيأه. فقال انه يعلم انها ستقدر الدبوس تقديراً كبيراً. فقد لبسته زوجته مرات عديدة... فاخذته واجابت، وكأنها هي

ايضاً قد هيأت خطابها، بانه سيبقى عندها ذخراً ثميناً... وفكر قائلاً لنفسه ان لعل لديها ثياباً اخرى يكون عليها الدبوس اللؤلؤي زينة مناسبة. اما في تلك الساعة فقد كانت مرتدية ذلك المعطف الأسود الصغير وتلك التنورة السوداء اللذين يلوح انهما بزة مهنتها. ثم تذكر انها في ثياب الحداد. فهي ايضاً كانت لها مأساتها ـ فقد مات أخ حبيب لها قبل موت آنجلا باسبوع. وهل كان ذلك في حادث اصطدام؟ إنه لايذكر الا آنجلا وهي تقص عليه الخبر. وقد انزعجت آنجلا، بما لديها من مقدرة فائقة على العطف، انزعاجاً كثيراً. حينئذ نهضت سسي ملر وجعلت تلبس قفازها. وكان من الواضح انها تشعر بان عليها ان تحترم خلوة الزوج الحزين بنفسه. على انه لم يكن في وسعه ان يسمح لها بالذهاب دون ان يتحدث معها عن مستقبلها. فسألها: ما الخطط التي رسمتها لنفسها؟ وهل تود ان يساعدها بطريقة ما؟

واذ كانت تنظر الى المنضدة حيث كانت تجلس الى آلتها الكاتبة، وحيث كانت المذكرات مصفوفة، وقد تاهت في ذكريات آنجلا، لم تجب حالاً على سؤاله بمساعدتها، بل بدت لحظة كأنها لاتعي مايقول. ولهذا اعاد القول:

«ما الخطط التي رسمتها لنفسك؟».

فأجابت بدهشة: «الخطط التي رسمتها لنفسي؟ أرجوك ألا تزعج نفسك بي..».

ففهم انها تعني انها ليست في حاجة الى مساعدة مالية. ومهما يكن، فقد أدرك ان الأجمل به ان يسألها سؤالاً مثل ذاك في رسالة خاصة. فكان كل ما استطاع ان يقول عندما ضغط على يدها مصافحاً: «تذكري يامس ملر، ان تودي المساعدة بأي طريقة ما، فإنه

يسرني ان اقوم بها..» ثم فتح الباب. واذا بها تقف لحظة على العتبة، كأن خاطراً فاجأها، وتنظر اليه نظرة مستقيمة لأول مرة، حتى ادهشه لأول مرة ما في عينيها من تعبير عن العطف وعن السؤال معاً.

قالت: «مستر كلاندن! ان انت احتجت يوماً ما الى مساعدة استطيع ان أسديها، تذكر انه سيسرني ان اقوم بها، من اجل زوجتك..».

قالت هذا وانصرفت. بيد ان كلماتها والنظرة التي رافقتها لم تكن منتظرة اذ لاح فيها كأنها تعتقد، او تأمل، انه سيحتاج اليها يوماً ما. فجال في خاطره فكر غريب، بل غريب جداً، عندما عاد الى كرسيه. أكان من الممكن انها في اثناء تلك السنوات الطوال، حين لم يكد يشعر بوجودها، كانت تضمر في قلبها ـ كما يقول الروائيون ـ نيران حبه؟

عندها مر بالمرآة ولمح فيها خياله. لقد تعدى الخمسين، ولكنه لم يجد ندحة عن الاعتراف بانه مازال رجلاً بارز الشخصية، كما تدل على ذلك المرآة.

فقال وهو يكاد يضحك: «مسكينة ياسسي ملر!» وكم اشتهى لو استطاع ان يقص تلك النكتة على زوجته. والتفت ـ مدفوعاً بدافع غريزي ـ الى مذكراتها، واذ فتحها كيفما اتفق قرأ هذه الكلمات: «كان غلبرت اليوم جميلاً جداً...» فكأن زوجته قد اجابت على سؤاله، وكأنه بها تقول: طبعا ان النساء يجدنك جذاباً جداً. ولا شك ان سسي ملر شعرت بنفس الشيء. ثم استمر في القراءة: «ما اشد افتخاري بانني زوجته!» وكان هو ايضاً فخوراً جداً بانه زوجها. وكثيراً ما نظر اليها، إذ هما في مأدبة ما وهي على الجانب الاخر من المائدة، وقال لنفسه: انها اجمل امرأة في هذا المكان. واستأنف القراءة. كان في السنة

الاولى من زواجه قد رشّح نفسه للبرلمان، وكان هو وزوجته يطوفان في مقاطعة ناخبيه لكي يخطب فيهم: «ولما جلس غلبرت كان الهتاف هائلاً، ثم قام الجمهور بأجمعه وغنى. (ياما أحسنه من رجل). لقد تأثرت جداً بالموقف». أنه ليذكر ذلك ايضاً. هاهي جالسة بقربه على المنصة، وانه ليرى تلك النظرة التي ألقتها عليه، والدموع في عينيها. ثم ماذا؟ فقلب الصفحات. هاهما يذهبان الى البندقية. واستعاد ذكرى تلك العطلة السعيدة التي قضياها هناك بعد الانتخابات.

«اكلنا الدندرمة عند فلوريانز». وابتسم، لانها كانت ما تزال طفلة، تعشق الدندرمة. «قص عليّ غلبرت خلاصة ممتعة جداً لتاريخ البندقية. فقال ان الدوقات...» لقد كتبت كل ما قال بخطها الاشبه بخط بنات المدارس. وكان من لذائذ السفر مع آنجلا أنها كانت ابداً متشوقة للمعرفة، وكان من دأبها أن تقول إنها جاهلة جداً، كان ذلك لم يكن من عناصر فتنتها. وبعد ذلك ـ هنا فتح المجلد الثاني ـ رجعا الى لندن. «كنت عازمة على ترك أثر قوي في من حولي، ولذا لبست فستان عرسي». انه ليراها الان بعين خياله جالسة قرب الشيخ السر أدوارد، رئيسه، وهي تنتصر على قلب ذلك العجوز الشديد البطش. واستمر في القراءة مسرعاً، مستعيداً مشهداً اثر مشهد من النتف التي في مذكراتها. «تعشينا في مجلس العموم.. ثم ذهبنا إلى حفلة في دار لنغروف، وسألتني الليدي ل. ان كنت أدرك ما عليّ من مسؤولية بصفتي زوجة غلبرت»، ثم مرت السنون ـ وتناول مجلداً اخر من على المنضدة ـ وأضحى عمله يشغل باله في ازدياد، ووجدت زوجته نفسها وحيدة في مناسبات متزايدة. ويلوح أن ألما جعل يحزّ في قلبها لان لا ولد لهما. وكتبت في مذكراتها: «كم اتمنى لوكان لغلبرت ابن» ولكن من

الغريب انه لم يأسف هو على ذلك، اذ كانت الحياة مفعمة، زاخـرة بالعمل. وفي تلك السنة حصل على وظيفة ثانوية في الحكومة، ولكن تعليق زوجته كان، بالرغم عن الوظيفة الثانوية: «لاشك عندي الان في أنه سوف يصبح يوماً رئيس الوزراء». آه، لو تغيرت مجاري الامور لتحققت هذه النبوءة، وهنا توقف عن القراءة لكي يتأمل في ما كان قد يحدث لو تغيرت مجاري الأمور: فقال ان السياسة قمار. ولكن اللعبة لم تنته بعد، فهو مازال في الخمسين فقط من عمره ، ثم عاد فألقى نـظرات عجلى عـلى صفحات اخـرى مملوءة بالطفـائف الصغيرة، بالطفائف اليومية السعيدة التي كونت حياتهما.

وتناول مجلداً آخر وفتحه كيفما اتفق: «يالي من جبانة! لقد سمحت للفرصة مرة اخرى بالضياع. ولكنني شعرت انه من الأنـانية ان ازعجه بمشاكلي، وله من شواغل الذهن ماله. ونادراً ما يتاح لنا ان نقضي المساء وحيدين». ما معنى هذا؟ آه، هاهو التفسير ـ انها تشير الى عملها في الإيست أند، حي العمال والفقراء: «واخيراً جمعت اليوم شتات شجاعتي وتحدثت الى غلبرت، كان لطيفا جدا، طيب القلب، فلم يعترض» وتذكر ذلك الحديث عندما اخبـرته بـانها لاتعمـل شيئاً، ولاتفيد أحداً، ولذلك فهي تود ان تقوم بعمل ما. وتذكر كيف احمرت خجلاً فازدادت جمالاً وهي جالسة على ذلك الكرسي نفسه، إذ قالت انها تود لو تقوم بعمل ما لتساعد الاخرين. وقد ناقشها قليلاً في الامر، اذ سألها الم يكفها انها تعتني به وببيتها؟ ولكنه قال انه مع هذا لن يعترض عليها اذا وجدت في عملها الجديد ما يسلّيها. وما نوع عملها؟ وفي اي اقليم؟ واي لجنة؟ ولكن يجب عليها ان تعد بانها لن تمرض نفسها بالعمل المرهق. وهكذا ظهر انها كانت تذهب الى هوايت تشابل

كل اربعاء. وهـو يذكـر كرهـه للثياب التي كـانت ترتـديها في تلك المناسبات، غير انها كانت جادة في الامر. ومذكراتها ملأى باشارات مثل هذه: «رأيت مسز جونز.. لها عشرة اولاد. فقد زوجها ذراعه في حـادث... سعيت جهـدي لكي أجـد وظيفـة لابنتهـا ليـلى». وقلب الصفحات. ولم يعد اسمه كثير الظهور. فقل اهتمامه، وجعلت بعض القطع المدونة لا تحمل له أي معنى... مثلاً :«وقعت مع ب م في جدال حاد حول الاشتراكية». من ب م هذا؟ لم يستطع ان يكمل الاسم من الحرفين... لعله اسم امـرأة قابلتهـا في إحدى اللجـان التي كانت تشترك فيها.. «هاجم ب م الطبقات العليـا هجومـاً عنيفاً... وبعـد الاجتماع مشيت معه وحاولت اقناعه، غير انه ضيق الذهن». اذن كان ب م رجلاً ـ لاريب احد هؤلاء الذين يسمون انفسهم برجال الفكر، المعروفين بعنفهم وضيق ذهنهم، كما تقول آنجـلا.. «جاء ب م الى العشاء عندنـا، وصافـح الخادمـة ميني!» وغيرت عـلامة التعجب الصورة الذهنية التي كان قد كونها في خياله... يلوح ان ب م لم يكن معتاداً على مرأى الخدم، لانه صافح ميني.لعله اخذاحدهؤلاء العمال الأليفين الذين لايفصحون عن آرائهم الا في صالونات السيـدات: وغلبرت يعرف هذه العينة من الرجال، وهو لايميل اليها مهما يكن ب م هذا... هاهو هنا مرة اخرى: «ذهبت مع ب م الى قلعة لندن.. قال ان الثورة لابد قائمة يوماً... قال انما نحن عائشون في فردوس مجنون..» وهذا بالطبع ما يقوله عادة رجل من نوع ب م. ان غلبرت ليكاد يراه وهو يتكلم بمثل هذا: فهو رجل قصير قوي البنية، ذو لحية خشنة، وربطة عنق حمراء، يلبس بدلة من التويد ـ كباقي افراد طبقته ـ ولم يشتغل يومـاً واحداً في حيـاته بـاخلاص، كيف لم تكتشف آنجـلا

خداعه؟ واستمر في القراءة: «تحامل ب م بشدة على...» وكان الاسم هنا قد مُحي تماماً، «فقلت له انني لن أسمح له بشتم...» وهنا ايضاً كان الاسم قد مُحي... امن الممكن انه اسمه؟ اكان هذا السبب في ان آنجلا غطت الصفحة عند دخوله؟ فزاد هذا التساؤل في كرهه لب م. اكان له من الوقاحة ان ينتقصه في هذه الغرفة نفسها؟ ولم لم تخبره آنجلا بذلك قط؟ لم يكن من خصالها ان تخفي عنه شيئاً، وهي الصراحة بعينها، فصار يقلب الصفحات باحثاً عن كل إشارة الى ب م. «سرد ب م علي قصة طفولته، كانت امه غسالة... انني اذ افكر في ذلك لا اقوى على الاستمرار في العيش في هذا الترف.. ثلاثة جنيهات ثمن قبعة واحدة» لماذا لم تبحث هذه المسائل معه بدلاً من ان تزعج رأسها المسكين بمشاكل أصعب من ان تفهمها؟ لقد اعارها كتباً، كارل ماركس، الثورة القادمة، وجعل الحرفان ب م، ب م، ب م، يتكرران بكثرة، ولكن لماذا لم تذكر الاسم بكامله؟ ففي استعمال حرفي الاسم الاولين شيء من عدم التكلف، بل شيء من التودد، مما لم يعهده في آنجلا، وهل كانت تدعوه ب م حتى في حضوره؟ وقرأ: «جاء ب م على غير انتظار بعد العشاء، ولحسن الحظ كنت وحدي» ، كان هذا في العام الماضي، «لحسن الحظ» ـ ولم لحسن الحظ؟ ـ «كنت وحدي». اين كان هو في تلك الليلة؟ راجع مواعيده بنفس التاريخ، واذا بها الليلة التي اقام فيها رئيس بلدية لندن مأدبته. اذن قضى ب م وآنجلا المساء وحيدين؟ ثم حاول أن يستذكر تفاصيل تلك الليلة: هل كانت مستيقظة تنتظره عندما وصل الى الدار؟ هل كانت الغرفة في ترتيبها كالعادة؟ هل كان على المائدة اقداح خمر؟ هل كان الكرسيان ملتصقين الواحد بالاخر؟ غير انه لم يستطع ان يتذكر شيئاً، سوى الخطاب الذي أُلقاه

هو بعد العشاء في دار رئيس البلدية، وازداد الموقف عليه تعقيداً، فهذه زوجته تستقبل في دارها رجلاً غير معروف، وهي وحدها. لعل التفسير في المجلد التالي. وبسرعة لحأ الى اخر المجلدات، المجلد الذي لم تتمّه قبل وفاتها. واذا باسم هذا الملعون على الصفحة الاولى: «تعشيت لوحدي مع ب م... وقد اضطرب كثيراً، وقال انه قد آن لنا ان يفهم كلانا الاخر... وحاولت ان اجعله يصغي الي فلم افلح. ثم هددني ان انا لم..» غير ان بقية الصفحة كانت ملطخة لكي تستحيل قراءتها، وقد كتبت على الصفحة كلها بخط كبير (مصر، مصر، مصر). لم يستطع ان يقرأ ولو كلمة واحدة. ولكن لم يكن هناك الا تفسير واحد. لقد طلب منها هذا النذل ان تكون خليلته! وحدهما في غرفته! تدفق الدم في وجه غلبرت كلاندن، وجعل يقلب الصفحات بسرعة. ماذا عسى كان جوابها؟ لم يعد يرى الحرفين، بل رأى ان مجرد ـ هو ـ قد حلت محلهما. «جاءني هو مرة اخرى. فأخبرته بان ليس في وسعي الوصول الى قرار نهائي... ورجوته ان يتركني». لقد فرض نفسه عليها في بيته هو. ولكن لم لم تخبره بذلك؟ بل كيف قويت على التردد في إخباره؟ ثم: «كتبت اليه رسالة». وبعد ذلك كانت هناك عدة صفحات خالية.. ثم هذا: «لاجواب على رسالتي». ثم صفحات خالية أخرى، إثر صفحة، واذا هي كلها خالية. ولكن في اواخر المجلد، بتاريخ اليوم الذي سبق وفاتها ـ قرأ هذا: «هل لي من الشجاعة ان افعل نفس الشيء؟».

أفلت غلبرت كلاندن الكتاب من يديه فسقط على الارض. انه يراها امام عينيه. فها هي واقفة على الرصيف في بيكادلي. هاهي تجحر بعينيها، وتقبض قبضتيها ـ وها هي السيارة قادمة...

لم يقو على احتمال الموقف، ولابد له من ان يعرف الحقيقة. فخطا

نحو التلفون.

«الانسة ملر!» وتلا ذلك سكون. ثم سمع احداً يدخل الغرفة».

وجاءه الصوت اخيراً مجيباً: «الانسة ملر تتكلم».

فقال مزمجراً: «من هو ب م؟».

وسمع حينئذٍ الساعة الرخيصة تدق ثوانيها على رف مدفأتها، ثم سمعها تتنهد تنهدة عميقة طويلة، وفي النهاية قالت:

«كان اخي».

كان أخاها، أخاها الذي انتحر. ثم سمع سسي ملر تسأله: «هل من شيء تريدني ان أوضحه لك؟».

فصاح: «لاشيء! لاشيء!».

لقد استلم تركته، لقد اخبرته بالحقيقة، لقد نزلت عن الرصيف لكي تجتمع بحبيبها لقد نزلت عن الرصيف لكي تتخلص منه...

اول النضج

شيروود أندرسن
١٨٧٦ ـ ١٩٤١

كان شيروود أندرسن شخصاً بوهيمياً منذ البداية، لم يعرف الاستقرار في مكان او عمل طوال السنين الخمس والثلاثين الاولى من عمره. ولد في بلدة كامدن بولاية أوهايو، من أب يعود بنسبه الى اصل اسكوتلندي ارلندي وأم ايطالية. غير أن والديه كانا، على حد وصفه، أقرب نفساً الى الغجر في تنقلهما الدائم مع اولادهما من بلدة الى اخرى، بسبب مصاعب العيش وتراكم الديون. وقد كان شيروود واحداً من ثمانية أخوة واخوات، لم يولد اثنان منهما في بلدة واحدة! ولكنه قضى شطراً مهمّاً من طفولته في كلايد، بأوهايو، ولم يتح له بعد سن الثانية عشرة أن يدخل أية مدرسة. وانتهى به التجوال الى شيكاغو، ثم الى الخدمة في الجيش مقاتلاً في كوبا (في الحرب الامريكية الاسبانية)، عاد بعدها ليستقرّ زمناً في بلدة ايليريا، بأوهايو، حيث تزوج، وبدأ ـ الى جانب عمله في ادارة احد المصانع ـ بالكتابة. ولم

ترفق له علاقة رأس المال بـالعمل في وطنـه، فغادر مكتبـه ذات يوم مغضباً، ولم يعد، وقال الناس عنه انه قد جُنّ، وراق له الايدفع تلك التهمة عن نفسه!

بعد ذلك عاد الى شيكاغو، حيث التقى عن طريق أخيه الرسام، الشاعر كارل ساندبيرغ، والروائي ثيـودور درايسر، وغيرهمـا من مشاهير كتّاب تلك المدينة، الذين رحّبوا بأول قصة قصيرة نشرها عام ١٩١٦. ولما فرغ من اولى رواياته، واعاد قراءتها بعنايـة، أزعجته وألقى بأوراقها من نافذة في قطار كان يستقله! ثم ألّف رواية اخرى، وأعقبها بديوان شعر (١٩١٨)، غير ان الكتاب الذي استقبله النقاد بحرارة كان «واينزبيرغ، اوهايو» (١٩١٩). فقـد رأوا فيه صـورة بديعة لبلدة صغيرة في «الغرب الاوسط» من الولايات المتحدة، هي في الواقع صورة مركّبة للبلدان الصغيرة التي عرفها اندرسن معـرفة حميمة إبّان طفولته ومـراهقته. والكتـاب مجموعـة من الحكايـات والتخطيطات القَلَمية تعدّ من اروع ماكتب في القرن العشرين عن الحيـاة في امريكـا. وقد وُضـع المؤلف عنـدها في مصـاف الكُتّاب الامريكيين الكبار الذين صوروا هذه الحياة، امثال ادغارلي ماسترز وسنكلير لويس. والممتع أن البعض قد قارن اندرسن بدستويفسكي وتشيخوف، في حين اعترف هو بأنه لم يقرأ أيّاً منهما! وكان احد الذين تأثر اندرسن بكتابتهم، د.هـ. لورنس ـ الذي كان في الواقع يصغره بحوالي عشر سنوات. وقد تأثّر به، وبخـاصة بكتـابه «واينـزبيرغ، اوهايو»، كـان من همنغواي وفـوكنر في فتـرة مبكرّة من حيـاتهما الابداعية.

كتب اندرسن بعد ذلك سيـرته الذاتيـة في مجلّدين، وعدداً من

الروايات منها «البيض الفقراء» (١٩٢٠)، و «زواجات عديدة» (١٩٢٣)، و «ماوراء الرغبة» (١٩٣٣)، وغيرها ـ والبشمة التي كثيراً ما تبرز فيها هي علاقات السود بالبيض. وأصدر كذلك عدة مجموعات من القصص القصيرة منها «انتصار البيضة» (١٩٢١)، «الخيل والرجال» (١٩٢٣)، و «موت في الاحراش» (١٩٣٣) ـ وهذه المجموعة توازي مجموعته عن واينزبيرغ في اهميتها الادبية.

واضافة الى هذا كله، أصدر عدداً من الكتب هي مجموعات من المقالات في تأملاته الفلسفية وعن الشخصيات التي عرفها في حياته، وآرائه في الحياة الامريكية الحديثة وهيمنة الآلة على المجتمع. وقد نظم الشعر وألف اكثر من مسرحية.

كان لعدم تلقي اندرسن دراسة اكاديمية منتظمة، واعتماده على مطالعاته بتلقائية الموهبة المتميزة، أثر في نوع الاسلوب الذي تحقق في كتبه. وكان لأسفار العهد القديم والعهد الجديد التي قرأها في باكورة حياته اثرها في بساطة الاسلوب والسرد لديه، ولو أنها بساطة قد يملّها القاريء بعد حين، ولكنه يبقى على اروعه عندما يكتب بما يبدو اشبه بالنزعة الفطرية عن الريف، والبلدة الصغيرة الناشئة، وعن حياة الكادحين فيها. ويخفق عندما يتصدّى لتصوير المدن الكبيرة المعقّدة. ويبرز أشد تعاطفه وتفهمه في تصوير طور المراهقة، وبدايات النضج ـ كما في قصتنا المختارة هنا.

لقد ساهم اندرسن في تحرير الادب الامريكي المعاصر من الاساليب التقليدية، فحق له ان يعدّ ظاهرة مهمة في فترة بدايات الحداثة في الولايات المتحدة في العشرينات من هذا القرن.

أخذت قصة «بداية النضج» من «واينزبيرغ، اوهايو».

اول النضج

كان الوقت أول المساء في يوم من أيام اواخر الخريف، وقد اجتذبت «معرض ناحية واينزبيرغ» جموعاً من الناس الى البلدة. كان النهار صاحياً، وجاء الليل دافئاً طيباً. وعند معبر ترانيون، حيث تمتد الطريق بعد خروجها من البلدة بين حقول اشجار التوت بانواعها وقد اكتست بالاوراق البنيّة اليابسة التي تساقطت عن الاغصان، والغبار يتصاعد كالسحب من عربات الخيل المتهادية،وعلى القش المنثور على دكات العربات ينام الاطفال، وقد كوّروا انفسهم بما يشبه الكُرات الصغيرة. شعرهم مليء بالغبار واظافرهم سوداء لزجة. كان الغبار يتدحرج متنائياً فوق الحقول وقد اشعلته الشمس الغاربة بالالوان.

وفي الشارع الرئيسي في بلدة واينزبيرغ ملأت الجموع الحوانيت والارصفة.واذ جاء الليل راحت الخيول تصهل، وكتبة المخازن يتراكضون كالمجانين، وضلّ الاطفال سبلهم وارتفع صوت بكائهم. انها بلوة امريكية تحاول جهدها ان تمتع نفسها.

شق الفتى جورج ويلارد طريقه بين الجموع في «الشارع الرئيسي»، ثم أخفى نفسه على السلّم المؤدي الى مكتب «الدكتور ريفي» ليطيل النظر الى الناس، ويراقب بعينين محمومتين الوجوه المناسبة تحت اضواء المخازن. وجعلت الافكار تتطرّق الى رأسه، وهو يريد ان يفكّر. وخبط على الادراج الخشبية نافد الصبر، وهو يتلفت بحدة حواليه، وتمتم لنفسه: «هل ستقضي اليوم بطوله معه؟ هل انتظرت أنا هذا الانتظار كله عبثاً؟»

جورج ويلارد، هذا الفتى القادم من قرية في اوهايو، كان على وشك بلوغ مبلغ الرجال، وثمة أفكار جديدة تراوده الان. راح يتجول طوال النهار في ارض المعرض وقد استبدت به الوحشة. وهو سيترك واينزبيرغ قريباً ليذهب الى مدينة ما يأمل في ان يجد عملاً في احدى جرائدها ـ وهو يشعر أنه قد شبّ عن الطوق. وكانت الحالة النفسية التي تسلطت عليه أمراً لا يعرفه الرجال، ولايعرفه المراهقون. إنه يشعر بتقدم السن، وبشيء من التعب. واستيقظت في نفسه الذكريات. وحسّه الجديد بالنضج أوحى اليه بأنه يعزله عن الاخرين، وبأنه شخصية شبه مأساوية. لقد اراد أن يجد من يفهم الشعور الذي استبدّ به بعد موت أمه.

ثمة وقت في حياة كل فتى، يبدأ فيه بالنظر لاول مرة الى ما قد مضى من حياته.ولعل تلك هي اللحظة التي يعبر فيها الخط نحو الرجولة. ان الفتى ليسير في طريق بلدته من اولها الى نهايتها، وهو يفكّر في المستقبل وفي الشخصية التي سيكونها في العالم. وتستيقظ فيه لحامو حات والتأسّيات: وفجأةً، يحدث أمر ما، ويقف تحت شجرة في انتظار صوت يناديه باسمه. وتتسلل الى وعيه أطياف أشياء قديمة، وتهمس له

اصوات من الخارج تحدثه عن محدوديات الحياة. وينتقل من الثقة بنفسه، الى الشك فيها، فاذا كان فتى خصب الخيال، انشقّ له باب ليتطلع منه لاول مرة الى الخارج، الى العالم، ويرى، كما في مسيرة تتحرك امام عينيه، شخوصاً لاتحصى من الناس خرجوا قبله من العدم ودخلوا العالم، وعاشوا حياتهم، واختفوا مرة اخرى في العدم إنه حزن اول النضج، قد جاء الفتى. ويشهق للفجاءة التي يرى نفسه فيها لمجرد ورقة سقطت عن شجرة وراحت الريح تتقاذفها عبر طرقات قريته. ويعلم انه، رغم كلام رفاقه الكبير، لابدّ له من ان يحيا ويموت بغير مايقين، كشيء تتقاذفه الرياح، كشيء كُتب عليه ان يبذل في الشمس كشجيرة الذرة انه يرتجف ويتلفت حوله بشوق. وتبدو له السنون الثماني عشرة التي عاشها وكأنها لحظة واحدة، لحظة تنفسٍ قصيرة في مسيرة الانسانية الطويلة، بل انه اخذ يسمع نداء الموت. فيريد بجماع قلبه ان يقترب جداً من انسان آخر، ان يلمس مخلوقاً اخر بيديه، وان تلمسه يد مخلوق آخر. ولئن يفضل ان يكون الانسان الاخر امرأة، فما ذلك الا انه يعتقد ان المرأة ستكون رفيقة به، وأنها ستفهم. فهو يريد، أكثر مايريد، أن يُفهم.

عندما جاءت جورج ديلارد لحظة اول النضج، تحّول ذهنه الى هيلين وايت، ابنة المصرفيّ في بلدة واينزبيرغ. فقد كان دائم الشعور بتنامي تلك الفتاة لتغدو امرأة، كشعوره بتناميه هو ليغدو رجلاً. وفي احدى ليالي الصيف حين بلغ الثامنة عشرة، تمشّى معها في طريق ريفية، وبحضورها سمح لنفسه بالتباهي، لكي يبدو في عينيها كبيراً وذا شأن. اما الان، فهو يريد رؤيتها لغرض اخر. إنه يريد أن يخبرها عن الدوافع الجديدة التي باتت تتحرك في داخله. لقد حاول ان يجعلها

تنظر اليه كرجل يوم لم يكن يعرف شيئاً عن الرجولة، واما الان فهو يريد أن يكون معها ليجعلها تحسّ التغيير الذي يعتقد أنه قد تحقق في طبيعته.

أما هيلين وايت، فهي ايضاً قد ادركت مرحلة تغيير. وما احسّ به جورج، احست به هي ايضاً على طريقتها كأمرأة شابة، فهي ما عادت فتاة صبية، وجعلت تتعطش لادراك ماتتميز به المرأة البالغة من جمال ورشاقة. وكانت قد عادت الى اهلها من كليفلاند، حيث تدرس في الكلية، لقضاء يوم في مهرجان المعرض، وهي ايضاً بدأت تستقيظ فيها الذكريات. وفي اثناء النهار جلست على المدرّج الكبير مع شاب، هو احد المدّرسين في الكلية، استضافته امها. كان الشاب لايخلو من التنطّع فأحست في الحال انه لن يفي بغرضها. ولكنها في المعرض سُرّت بظهورها بين الناس بصحبته، لانه غريب وحسن الهندام، وهي تعلم ان حضوره سيخلق انطباعاً لديهم، ولئن كانت سعيدة في النهار، فانها مع قدوم الليل جعلت تحس بالقلق وعدم الرضا. وارادت ان تبعد المدّرس عنها، والاّ تبقى في صحبته ولو انها عندما جلسا معاً على المدرّج، واعين اترابها في مدرستها السابقة ترمقها، ابدت لرفيقها من الانتباه ماجعله يزداد اهتماماً بها، ويقول لنفسه: «كل دارس يحتاج الى المال. عليّ ان اتزوج امرأة ذات مال».

كانت هيلين وايت تفكّر بجورج ويلارد فيما كان هو يتجول مكتئباً بين الجموع ويفكّر بها. تذكرت تلك الامسية الصيفية التي ذهبا يتمشيان فيها معاً، وارادت ان تتمش معه مرة اخرى، وفكّرت بأن الاشهر التي قضتها في المدينة، والذهاب الى المسارح، ورؤية الجماهير الحاشدة وهي تتجول في الشوارع المضاءة، قد غيرتها حتى الاعماق. ارادته ان يحسّ ويعي التغيير الذي تحقق في طبيعتها.

وتلك الامسية الصيفية التى تركت اثرها في ذاكرة الشاب والشابة كليهما، حين يُنظر اليها بعين العقل، انما قضياها معاً على نحو غبي، فقد خرجا سيراً على الاقدام من البلدة في درب ريفي. ثم توقفا عند السياج من حقل يتماوج بشجيرات الذرة الفتية، ونزع جورج سترته وعلّقها على ذراعه. وقال: «نعم، بقيت أنا في واينزبيرغ. لم اغادرها، ولكنني كبرت، انني اقرأ الكتب، وافكّر وسأحاول ان اكون شيئاً ذا بال في هذه الحياة».

سكت لحظة، ثم اردف مفسّراً: «ليست هذه هي النقطة المهمة.. لعل الافضل هو ان اكفّ عن الكلام».

وضع الصبيّ المشوّش يده على ذراع الفتاة. وارتعش صوته. وشرعا في السير عودة الى البلدة. وفي يأسه، قال جورج متباهياً: «سأصبح رجلاً مهمّاً ـ اهم رجل عاش هنا في واينزبيرغ». ثم اضاف: «اريد منك ان تفعلي شيئاً. شيئاً ما، لا اعرف ماهو. لعله ليس من شأني. اريد منك ان تحاولي ان تختلفي عن غيرك من النساء. أترين؟ ليس الامر من شأني، كما قلت. اريد منك ان تكوني امرأة جميلة. أترين ما اريد؟».

تلاشى صوت الفتى، وعادا صامتين الى البلدة، وسارا في الشارع الى دار هيلين وايت. وعند البوابة الخارجية حاول ان يقول شيئاً يؤثّر فيها، أو يثير اعجابها. والكلمات التي كان قد هيأها في ذهنه عادت اليه، غير انها بدت تافهة تماماً. «ظننت ـ كنت أظن ـ خطر لي انك ستتزوجين سيث رجموند. اما الان فأعلم انك لن تتزوجيه»، هذا كان كل ما استطاع ان يقوله وهي تعبر البوابة في اتجاه باب الدار.

في تلك الامسية الخريفية الدافئة، فيما كان جورج واقفا على السلّم ينظر الى الجموع المنسابة في «الشارع الرئيسي» فكّر في ماقاله على

حافة حقل الذرة الفتية. وخجل من الشخص الذي جعل من نفسه في عينيها. كان الناس في الشارع يتماوجون صُعداً ونُزلاً كالمواشي المحصورة في حظيرة. والعربات الصغيرة والكبيرة تكاد تملأ الشارع الضيق. كانت هناك فرقة نحاسية تعزف، والاولاد الصغار يتسابقون على الرصيف ويمرقون من بين سيقان الرجال. وهناك شباب وجوههم حمراء لامعة يتمشّون والفتيات ممسكات بأذرعهم. وفي غرفة فوق احد المخازن كانت تهيّأ للرقص، راح عازفو الكمان يدوزنون الآتهم. وطفت الالحان المتكسرة من خلال النوافذ المفتوحة انتشرت عبر ضوضاء الناس ولغطهم، وصرح ابواق الفرقة النحاسية. خليط الاصوات هذا اثار اعصاب جورج ويلارد. فحيثما التفت، احسّ بأن حياة الحشود والحركة تطوّقه، وتشد عليه الخناق، فأراد ان يهرب، بمفرده، ليفكّر. وزمجر لنفسه: «ان كانت هي تريد ان تبقى مع ذلك الشخص، فلتبقَ معه. ماهمني؟ ما الذي من الامر يعنيني؟» وسار في «الشارع الرئيسي» ومن خلال دكان السمّان هيرن عبر الى زقاق جانبي.

شعر جورج انه وحيد مهجور، والكآبة تأخذ منه، حتى اراد البكاء لولا ان الكبرياء دفعته الى السير قُدماً بسرعة، وهو يؤرجح ذراعيه، الى ان وصل الى اسطبل وسلي مويار، وتوقف في الظلال ليصغي الى زمرة من الرجال يتحدثون عن فوز حصان وسلي، المسمى توني تيپ، في السباق الذي جرى في المعرض عصر ذلك اليوم. وقد تجمع جمهور من الناس عند مدخل الاسطبل، ووسلي يتبختر امامهم جيئةً وذهاباً، ويفاخر بما جرى، وفي يده سوط ينقر به الارض، ويثير نفخات من الغبار تتصاعد في ضوء المصباح. وهتف عالياً: «كفاكم كلاماً ياجماعة. لم اكن خائفاً قط. كنت اعلم انني سأغلبهم جميعاً». على

طول الخط. لم اكن خائفاً قط».

لكان جورج ويلارد في الظروف الاعتيادية يبدي اشد الاهتمام بتباهي مويار، راكب الحصان. غير ان التباهي الان اغضبه، واستدار عائداً الى الشارع، واستأنف سيره السريع، والكلمات تتفجّر من شفتيه :«هذا المهذار السخيف! لماذا يتفاخر؟ لماذا لايسدّ فمه؟».

دخل جورج ارضاً غير مبنية، وسقط على كومة من النفايات. واذا بمسمار ناتيء من برميل فارغ يمزّق بنطلونه. فجلس على الارض وهو يشتُم. ووصل ماتمزّق بدبوس، ونهض وعاود السير. وحين بلغ سياجاً تسلق عليه، وقال وهو يقفز الى ناحيته الاخرى: «سأذهب الى دار هيلين وايت. سأذهب الى دارها. سأدخل من الباب وسأقول إنني اريد ان اراها. سأدخل واجلس في دارها. هذا ماسأفعله.» وراح يركض.

في شرفة منزل السيد المصرفي وايت، كانت هيلين قلقلة، مضطربة، كان المدّرس جالساً بين الام وابنتها، وكلامه قد أتعب الفتاة. ورغم ان المدّرس كان هو ايضاً قد نشأ وترعرع في بلدة صغيرة في ولاية اوهايو، فانه يتصنّع بكلام اهل المدينة وتصرفهم لأنه يريد ان يظهر بمظهر الرجل الحديث، رجل الدنيا. قال: «اعجبني انكم اعطيتموني المجال لدراسة الخلفية التي تأتي منها الغالبية من فتياتنا.. واشكر لك كرمكِ، مسز وايت، بدعوتي لزيارتكم» والتفت ضاحكا الى هيلين :« أما زالت حياتك مرتبطة بحياة هذه البلدة هل فيها احد يهمّك أمره؟»، وأحسّت الفتاة أن صوته ثقيل ومتنطّع.

نهضت هيلين ودخلت الدار. وفي الباب المؤدي الى حديقة خلفية. وقفت واصاخت السمع، وبدأت أمها تتكلم: «ليس لدينا هنا من هو لائق بمصاحبة فتاة لها تربية هيلين واسرتها».

عندها نزلت هيلين الدرج الخلفي ركضاً، خارجة الى الحديقة. وفي الظلام توقفت وهي ترتجف. وبدا لها ان العالم مليء بأناس لا معنى لهم يقذفون بالكلمات. واشتعل فيها توق جعلها تركض خارجة من بوابة الحديقة، وانعطفت عند عنبر ابيها. ودخلت زقاقاً جانبياً، وصاحت، وقد امتلأت باثارة عصبية: «جورج! اين انت ياجورج؟» توقفت عن الركض، وأتكأت على شجرة وراحت تضحك ضحكات هستيرية. وفي الزقاق المظلم نفسه كان جورج يسير، وهو مازال يحدّث نفسه. «سأذهب الى دارها. سأدخل من الباب واجلس» قال ذلك وهو يتقدم منها. توقف وحدق بعينين لا تفقهان. «تعالي!» قال، وامسك بيدها. خفضا رأسيهما، وانطلقا معاً في الزقاق تحت الاشجار كانت الاوراق اليابسة تتقصّف تحت اقدامهما وتساءل جورج في دخليته. «والان وقد وجدتها،ما الذي يحسن بي ان افعل واقول؟».

في الطرف الاعلى من ارض المعرض في واينزبيرغ هناك مدّرج قديم متآكل. اخشابه لم تُصبغ قط وقد التوت وتشوّهت مع الزمن. وارض المعرض نفسها تمتد على قمة تل منخفض يشرف على وادي «واين كريك»، ومن المدّرج بوسع المرء ان يرى في الليل، عبر حقل الذرة، اضواء البلدة وهي تنعكس إزاء السماء.

تسلّق جورج وهيلين التل الى ارض المعرض، واذا شعور الوحشة والعزلة الذي كان قد المّ بالشاب في شوارع البلدة المزدحمة، يتكسّر ويشتد معاً لوجود هيلين الى جانبه. ومايستشعره، ينعكس فيها.

في الشباب ثمة دائماً قوتان تتصارعان في الانسان فالحيوان الصغير الدافيء الذي لايفكّر يصارع الشيء الذي يتأمّل ويتذكر، وهذا الشيء الانضج سنّاً وعقلاً هو الذي تملك جورج ويلارد. وقد احسّت هيلين بحالته تلك، ومشت الى جانبه باحترام. وعندما وصلا الى

المدّرج، صعدا الى القسم الذي تحت السقيفة، وجلسا على احد المقاعد الطويلة.

هناك شيء لاينسى في تجربة المرء الذي يدخل ارض معرض قائمة على حافة بلدة في الغرب الاوسط، في الليل بعد انقضاء المعرض السنوي، فالاحساس الذي ينتابه حينئذ سيلصق بذاكرته: حيثما التفت وجد الاشباح ـ لا اشباح الموتى، بل اشباح الاحياء. هنا، في ساعات النهار التي للتوّ إنقضت، انصبّ الناس من المناطق المحيطة كلها، ريفها وبلدتها. فلاحون بصحبة زوجاتهم واطفالهم، وضروب البشر من مئات البيوت الهيكلية الصغيرة تجمّعوا ضمن هذه الجدران الخشبية التي تسيّج المعرض. الصبايا يضحكن واصحاب اللحى يتحدثون عن امور حياتهم. لقد امتلأ المكان وطفح بالحياة. وفعلت الحياة حكّاً ووغراً في الناس، وهذا الليل قد هبط، وانسحبت تلك الحياة جميعاً. واذا الصمت يكاد يكون رهيباً. ويخفي المرء نفسه اذ يقف صامتا قرب جذع شجرة كبيرة، وتشتد فيه نزعة التأمل. وإنه ليرجف إذ يرى الحياة عديمة المعنى،.وفي الوقت ذاته، اذا كان اهل البلدة هم أهله، فانه يعشق الحياة حتى لتطفر الدموع الى عينيه.

في الظلام، تحت سقيفة المدّرج، جلس جورج ويلارد قرب هيلين وايت وبه احساس عميق بضآلته في خطة الوجود. والان، وقد خرج من البلدة حيث ازعجه حضور الناس في دورانهم وانشغالهم بآلاف الامور، زايله الانزعاج كلّياً. حضور هيلين جدده وانعشه. كأن يدها، التي هي الان يد امرأة تسعفه في اجراء تعديل دقيق في آلية حياته. وطفق يفكّر بالناس في البلدة التي لم يعش في غيرها بشيء اشبه بالتقدير والاحترام. واحسّ بالتقدير والاحترام تجاه هيلين: يريد ان

يحبها، ويريدها ان تحبه، ولكنه لا يريد في هذه اللحظة ان يتشوّش بنضجها كأمرأة. امسك بيدها في الظلام، وعندما زحفت والتصقت به، وضع يده على كتفها، هبّت الريح، فأرتجف. وحاول بكل قواه ان يفهم الحالة النفسية التي اصابته،ففي ذلك المرتفع في وسط الظلام اس كت الذرّتان الانسانيتان المرهفتان الواحدة بالاخرى بشدة، وانتظرتا. وفي ذهن كل منهما الفكرة نفسها. «لقد جئت الى هذا المكان المنعزل، وها هو الاخر معي» كانت خلاصة مشاعرهما.

لقد انقضى النهار المزدحم في واينزبرغ وتلاشى في ذلك الليل الطويل الذي هو ليل اواخر الخريف. كانت خيول المزارع تخبّ طوال الدروب الريفية الموحشة وهي تجرّ حصّتها من الاناس المتعبين. وشرع الكَتَبَة في نقل نماذج سلعهم من الرصيف واقفال ابواب المخازن. وفي دار الاوبرا تجمّع حشد من الناس للتفرّج، وفي مكان آخر من «الشارع الرئيسي» راح عازفوا الكمان، وقد دوزنوا آلاتهم، يعرقون وهم يعزفون لتظل اقدام الشباب تطير وتحط على ارضية الرقص.

في ظلمة المدرّج بقي جورج ويلارد وهيلين وايت صامتين. كان السحر المسيطر عليهما يفقد قدرته بين حين واخر، فليتفتان وفي العتمة يرنو الواحد الى عيني الاخر. تبادلا القبل، ولكن ذلك الدافع لم يطل بهما. وفي الطرف الاعلى من أرض المعرض كان خمسة او ستة رجال يمشطون الاحصنة التي شاركت في السباق عصر ذلك اليوم. وقد اشعلوا ناراً وضعوا عليها اباريق الماء. ولم يكن يرى منهم الاسيقانهم وهم يتحرّكون في ضوء النار. وكلما هبت الريح، اشتد تراقص لُهبُها الصغير.

قام جورج وهيلين، ومشيا في الظلام. ودخلا ممراً يحاذي حقلاً من الذرة التي لم تكن قد جُنيت بعد، والريح تهمس من خلال سيقان

الذرة، وللحظة في اثناء سيرهما عودة الى البلدة انقطع السحر المسيطر عليهما. ولما بلغا قمة تل ووتردیركس توقفا قرب شجرة، ووضع جورج مرة اخرى كلتا يديه على كتفي الفتاة. فعانقته بحرارة، ومرة اخرى انسحبا بسرعة وكلاهما يقاوم ذلك الدافع. وتوقّفا عن التقبيل وافترق جسماهما قليلاً. كلاهما كان محرجاً، وتخفيضاً للحرج، لجآ الى حيوانية الشباب، فضحكا واخذ يجرّ الواحد الاخر ويحاول رفعه، لقد طهّرتهما ونقّتهما الحالة التي كانا فيها، فأمسيا لا رجلاً وامرأة، لافتى وفتاة، بل حيوانين صغيرين مُثارين باللعب.

على هذا النحو نزلا التل. وفي الظلام راحا يتعابثان كمخلوقين شابين رائعين في عالم شاب. ومرةً، سبقت هيلين رفيقها بالركض وعرقلته، فوقع. تلوّى وصرخ، واهتز بدنه بالضحك وهو يتدحرج على منحدر التل. وهيلين تركض وراءه. وللحظة واحدة، توقفت في الظلام. ومن يدري اي افكار نسوية ساورتها؟ ولكنها حين بلغا سفح التل وادركت فتاها، اخذت بذراعه وسارت الى جانبه بصمت وقور. ولسبب لم يكن بوسعهما تفسيره، لقد حصلا كلاهما من امسيتهما الصامتة على الشيء الذي كان بهما حاجة اليه. رجلاً ام فتى، امرأةً او فتاة، لقد امسكا لبرهة من الزمن بذلك الشيء الذي يجعل الحياة الناضجة للرجال والنساء في العالم الحديث امراً ممكناً.

جنازة النحات

ويلا كاثر
١٨٧٦ - ١٩٤٧

من الطريف أن ويلا كاثَر، التي تعود بنسبها الإمريكي إلى أصول انكليزية، تلقّت العلم في صغرها في منزل أسرتها. فقد ولدت في ونشستر بولاية فرجينيا، ولما كانت في الثامنة من عمرها انتقلت مع والديها إلى مزرعة كبيرة في نبراسكا، حيث عرفت بساطة العيش في وسط الاراضي والفلوات المترامية، ولم تكن هناك مدرسة تذهب إليها. غير أنها فيما بعد عملت في إحدى جرائد بلدة لنكولن، واستطاعت الدخول في جامعة نبراسكا حيث درست بجهودها الخاصة، وتخرجت وهي في التاسعة عشرة. وعندها ارادت الخروج من الحياة الريفية الى مجتمع تستطيع فيه أن تستمتع بالموسيقى والفنون والتعبير عن النفس بالكتابة. فرحلت إلى المدينة الكبيرة بتسبيرغ، لتعمل في إحدى جرائدها، وترأس في الوقت ذاته قسم اللغة الانكليزية في مدرسة ثانوية فيها.

في هذه الفترة انصرفت ويلا كاثر بهمّها إلى الكتابة. فبدأت تنظم الشعر، وراحت تنشر قصائدها في مجلات مختلفة، ثم أصدرت مجموعتها الأولى عام ١٩٠٣. وبعد ذلك بسنتين، ظهرت اولى مجموعاتها القصصية، فلفتت النظر إلى براعة فنها وأسلوبها، وطُلب إليها ان تعمل محررةً في «مجلة مَكْلور» (١٩٠٦)، ثم مديرةً لتحريرها ـ وكانت من أنشط وأجرأ المجلات في الولايات المتحدة، وعرفت بتميّز المستوى في ماتنشر من قصص، وأتاح لها العمل في هذه المجلة كثيراً من الترحال والسفر إلى اوربا، ولكنها كانت، كلما استطاعت، تعود لقضاء بعض الوقت في نبراسكا وأرياف طفولتها وحداثتها.

تركت ويلا كاثر مجلتها هذه عام ١٩١٢، وانقطعت إلى الكتابة، واستّمرت في إنتاج قصصها ورواياتها التي حُظيت باقبال القراء، ولاسيّما عشاق الأدب منهم. وواقع الأمر أنها انصرفت بخيالها وطاقتها الأبداعية إلى كتابة الرواية بصورة خاصة، فكتبت اكثر من عشر روايات (فاز بعضها بالجوائز)، منها «الفتاة البوهيمية» (١٩١٢)، «أيها الرواد!» (١٩١٣)، «واحدٌ منّا» (١٩٢٢)، «سيدة ضائعة» (١٩٢٣)، «الموت يجيء إلى الاسقف» (١٩٢٧)، «لوسي غايهارت» (١٩٣٥)، وغيرها.

وإلى جانب رواياتها، أصدرت ويلا كاثر عدة مجموعات قصصية ابتداءً من عام ١٩٠٥، منها «الشباب وميدوسا المتألقة» (١٩٢٠)، «مقادير مجهولة» (١٩٣٢)، «لا تحت الاربعين» (١٩٣٦)، وغيرها.

لم تكن حياتها كثيرة الأحداث ، وقضت الشطر الأكبر منها بين كتبها واللوحات التي تمثّل البلاد العديدة التي زارتها، وصور

الموسيقيين والأدباء الذين التقتهم. غير أنها كانت دقيقة الملاحظة وشديدة الحسّ للحياة الامريكية التي جعلت تتحدّد معالمها وشخصيتها في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن، وبخاصة في الولايات الوسطى الغربية. فلم تكن رائدة فقط في ماصوّرته من هذا كله، بل أيضاً في ماطورّته من صناعة الرواية الامريكية المعاصرة، فكانت ريادتها مزدوجة ومتميزة، وساهمت في إعطاء الرواية الامريكية بعضاً من نكهتها وبروزها، اسلوباً ومحتوى، في آداب القرن العشرين.

والذي يتبدّى في معظم ما كتبت هو ثيمتها الثنائية: الاستكشاف والتطوير، انطلاقة الفن وألفة الأسرة، طلب الإثارة وطلب الطمأنينة. وهي تعنى، من ناحية، بخلق الشخصيات الانسانية المتنوّعة والمتضاربة، متأثرةً بما عرفته في البيئة التي عاشت فيها في حداثتها وشبابها. وهي تعنى، من ناحية أخرى، باسلوبها الذي تجعله متفرّداً بوضوحه وطراوته وصقله، بالغةً به أحياناً بسّاطة خدّاعة تنطوي على مهارة فنان كبير. ومن دأبها، إذ تتعرّض لما في التجربة من جمال وسمّو، وقبح وخسّة، أن تتجنب المباشرة، لتترك الكثير لخيال القاريء واستنتاجه.

قصة «جنازة النحات» مثل جيد على فنها القصصي هذا، وقد أخذت من مجموعتها «الشباب وميدوسا المتألقة» Youth and the Bright Medusa

جنازة النحات

وقفت جماعة من الأهالي على رصيف المحطة في بلدة صغيرة بولاية كانْسَس، في انتظار مجيء قطار الليل، وقد تأخّر عشرين دقيقة في الوصول.

كانت الثلوج قد هطلت بغزارة على كل شيء.. وفي ضوء النجوم الباهت شكّلت التلاع المسترسلة، وعبر الحقول البيضاء الشاسعة جنوبيّ البلدة، منحنيات ناعمة دخانيّة اللون إزاء السماء الصاحية. وراح الرجال على الرصيف يقفون مرةً على هذه القدم ومرةً على تلك، وأيديهم مدفوعة عميقاً في جيوب بنطلونتهم، ومعاطفهم مفتوحة، واكتافهم مشدودة بفعل البرد، وهم يرسلون أبصارهم من حين لآخر نحو الجنوب الشرقي، حيث تلتفّ سكة الحديد مع التفافة ضفة النهر. كانوا يتحدثون بنبرات منخفضة ويتحركون دونما استقرار، وكأنهم لايعرفزن بالضبط ما الذي عليهم ان يفعلوه. واحد فقط من

أفراد الجماعة بدا عليه كأنه يعرف بالضبط سبب وجوده هناك، وابقى نفسه معزولاً عنهم بشكل ظاهر، وهو يتمشى إلى الطرف الأقصى من الرصيف، ثم يعود إلى باب المحطة، ثم يعيد الخطى من حيث جاء، وقد دفن ذقنه في ياقة معطفة العالية، وكتفاه البدينان منحنيان ومشيته ثقيلة وملحة. واذا برجل طويل ضامر، بادي الشيب، يتقدّم منه، وقد ارتدى بدلة عتيقة باهتة من ملابس «جيش الجنوب»، وخرج من بين الجماعة مشحشطاً قدميه باتجاهه بضرب من الاحترام مادًّا عنقه إلى أمامه حتى شكّل ظهره زاوية مطوى فُتحت حتى ثلاثة ارباعها. وقال بصوت أشبه بالوصوصة، كأنها ليست بصوته:

- «أحسب ان القطار سيتأخر كثيراً هذه الليلة أيضاً، يا جِم. لعل الثلج هو السبب؟»

- «لا أعلم،» أجاب الآخر بشيء من الانزعاج، مصدراً صوته من خلال لحية حمراء مذهلة الغزارة، وقد انتشرت بشراسة وكثافة في كل اتجاه حول وجهه.

حوّل الرجل الضامر مسواكاً من عظم الريشة كان يمضخه إلى الزاوية الأخرى من فمه، وقال: «من غير المحتمل، فيما اظن، ان أحداً من المنطقة الشرقية سيرافق الجثمان.»

- «لا أعلم،» اجاب الآخر باقتضابٍ أخشن من السابق.

- «من المؤسف أنه لم ينتمِ إلى أحد المحافل او احدى الجماعات التي لها شأنها. فأنا إحب الجنازات المنظمة، لأنها تبدو أليق بالأناس الذين يتمتعون ببعض السمعة»، هكذا اسدى الرجل الضامر، وفي صوته الحادّ لهجة من لايريد إزعاج سامعه، وهو يضع مسواكه بعناية في جيب صدريته. لقد كان دائماً هو الدي يحمل الراية في جنازات «جيش الجنوب».

استدار الرجل المتين على عقبه دون ان يجيب، وتمشى على الرصيف، بينما عاد الضامر إلى جماعته القلقة وقال، متعاطف: «جِم حزين جداً، كالعادة.»

وفي تلك اللحظة سُمع صوت صافرة بعيدة، وانطلقت الأقدام تشحشط على الرصيف. وظهر فجأة عدد من الصبية الهزَّل بفجاءة ولزوجة ثعابين البحر أيقظها قصف الرعد. بعضهم جاؤا من غرفة الانتظار، حيث كانوا يتدفأون قرب الموقد الاحمر، او ينعسون على مقاعد الترايش الخشبية. وبعضهم انتزعوا انفسهم من عربات الامتعة او انزلقوا خارجين من عربات الأجرة. وقفز اثنان من مقعد السائق لعربة جنازة كانت في الانتظار ومؤخرتها في اتجاه الرصيف، ونصب كلاهما كتفيه المنحنيين ورفع رأسه، وبرق في عينيه الخامدتين وميض من الحياة للحظتين، لسماعه تلك الصيحة الرنانة الباردة التي تستنفر الناس في كل مكان في العالم. لقد أثارت القوم كأنها صدح البوق، بالضبط كما كانت تثير الرجل العائد هذه الليلة إلى أهله، أيام صباه.

كان قطار الليل السريع مقبلاً أحمر كصاروخ، من أحشاء المستنقعات الشرقية، ويستدير مع ضفة النهر تحت الخطوط الطويلة لأشجار الصفصاف الراعشة وهي تحرس المروج، والبخار المنطلق يتكاثف كُتَلاً شهباء إزاء السماء الشاحبة ويحجب نجوم المجرّة. وسرعان ما انهال الوهج الأحمر من الضوء الأمامي على الطريق المكسوة بالثلوج، وجعل يتألق على حديد السكك السوداء البليلة. وأسرع الرجل الضخم ذو اللحية الحمراء المشعّثة نحو القطار القادم، حاسراً رأسه وهو يسير على الرصيف، أما افراد الجماعة الذين وراءه، فترددوا، وتبادلوا النظرات، ثم حذوا حذوه بشكل أخرق. وعندما توقف القطار، تقدّم الجمهور من عربة منه

فُتح بابها ودفع الرجل الضامر رأسه الى الأمام بفضول، بينما ظهر مراسل القطار في المدخل يرافقه شاب يرتدي معطفاً وقبعة سفر.

وسأل الشاب القوم: «هل أصدقاء السيد مريك هنا؟»

تمايل الرجال على الرصيف بشيء من الاضطراب، ثم أجاب المصرفي فيليب فلبس بلهجة رصينة: «جئنا لنتولىّ أمر الجثمان. اما والد السيد مريك فضعيف جداً ولايستطيع المجيء.»

فزمجر مراسل القطار: «ارسلوا الينا الوكيل، واطلبوا من العامل أن يعيننا.»

أخرج التابوت من صندوقه الخشن وأُنزل إلى الرصيف المكسوّ بالثلج. وتراجع اهل البلدة ليفسحوا له المجال ثم شكلوا نصف دائرة حوله، وهم ينظرون بتساؤل إلى سعفة النخل المستقرّة على الغطاء الأسود. ولم يقل أحد شيئاً.. ووقف الحمّال قرب مركبته في انتظار الحقائب. والقاطرة تلهث لهاثاً ثقيلاً، والوقّاد يندسّ دخولاً وخروجاً بين العجلات بمصباحه الاصفر ومزيتته الطويلة ليعالج صناديق المحاور. ووقف الشاب البوسطوني متلفّتاً حوله بحيرة، وهو أحد تلاميذ النحات المتوفّى، وقد صاحب الجثمان. ثم توجه نحو المصرفيّ، لأنه رأى فيه الرجل الوحيد في تلك الجماعة القلقة، السوداء، المحنية الاكتاف، الذي يبدو أن له من الفردية ما يؤهله لأن يخاطبه المرء.

وسأ له دونما تأكيد: «ألم يجيء أحد من إخوة السيد مريك؟»

ولأول مرة تحرّك ذو اللحية الحمراء وانضم إلى الآخرين ليقول: «كلا. لم يجيئوا بعد، والعائلة مشتّتة. وسوف يؤخذ الجثمان إلى الدار مباشرة.» وانحنى ليمسك بأحد مقابض النعش.

«خذ طريق التل الطويلة في صعودك ياتومبسن، فهي أسهل على

الخيل،» قال السائس ذلك فيما أغلق الحانوتي باب عربة النعش وتهيأ للصعود إلى مقعد السائق.

والتفت ليرد، المحامي ذو اللحية الحمراء، إلى الغريب الشاب، وقال: «لم نكن نعلم أيرافقه أحد أم لا. المسيرة طويلة، ولذا فخير لك أن تذهب بهذه العربة.» وأشار إلى مركبة مهشمة وحيدة قريبة منهم. غير أن الشاب أجاب بنبرة جافة: «شكراً، ولكني سأذهب في عربة النعش.» والتفت إلى الحانوتي وأردف: سأركب معك، إذا أذنت.»

وتسلق كلاهما فوق العجلات، وانطلق في ضوء النجوم صاعدين التل الابيض الطويل باتجاه البلدة. كانت المصابيح مازالت تشعّ من تحت السقوف المنخفضة المحمّلة بالثلوج. ووراءها. على الجانبين، ترامت السهول حتى الفضاء، وادعةً شاسعة كالسماء الناعمة نفسها، يلفّها صمت أبيض، ملموس.

عندما تراجعت العربة إلى ممشى خشبي امام بيت هيكلي عار جرّحه الطقس، التأمت قرب البوابة تلك المجموعة نفسها التي كانتً على رصيف المحطة. كان الفناء الأمامي مستنقعاً من الجليد، وقد مُدَّ لوحان عتيقان من الممشى الجانبي إلى الباب، أشبه بجسر قلق للأقدام. وكانت البوابة الحديد معلّقة بمفصل واحد فلم تنفتح على سعتها إلا بصعوبة. ولاحظ ستيفنز ـ الغريب الشاب ـ أن شيئاً اسود قد رُبط على مقبض الباب الأمامي.

عندما سُحب التابوت من عربة النعش صدر عنه صرير سمعه من في الدار، فانطلقت من الداخل صرخة عالية، وفُتح الباب الأمامي بنترة قوية، واندفعت امرأة طويلة جسيمة، حاسرة الرأس، الى الثلج، وارتمت على التابوت وهي تزعق: «ولدي، ولدي! هكذا عدت إلى امك ياولدي!»

أشاح ستيفنز بوجهه، وأغمض عينيه برجفة من الاشمئزاز لاتوصف، واذا بأمرأة أخرى، طويلة هي أيضاً، ولكنها هزيلة عظماء، متشحة كلها بالسواد، تنطلق من الدار وتأخذ السيدة مريك من كتفيها وتصيح بحدّة «كفى يا أماه، كفى! كفى!». وعندما استدارت نحو المصرفي، تغيّرت نبرتها إلى نبرة الخنوع وهي تقول له: «سيد فلبس، الصالون جاهز.»

سار حاملو النعش على اللوحين الضيقين، فيما سبقهما الحانوتي بالقاعدة التي سيوضع عليها النعش. وحملوا النعش إلى غرفة واسعة غير مدفأة، تعبق برائحة الرطوبة والاهمال وصبغ الأثاث، ووضعوه تحت مصباح معلّق مزوّق بأطياف زجاجية تجلجل عند الحركة وأمام تمثال لجون روجرز يمثّل جون اولدن وبريسيلا مزينين بأكليل صناعي.

تلّفت هنري ستيفنز حوله وبه قناعة كالغثيان بأن هناك خطأ ما، وبأنه على نحوما وصل إلى مكان هو غير الذي قصده. نظر إلى الأثاث الأخضر والتنجيد البدين والمزهريات واللوحات الخزفية الصغيرة المرسومة باليد، يبحث عن دليل على هوية، عن شيء بوسع المرء ان يتصور أنه ينتمي إلى الفنان هارفي مريك. ولم يشأ لأيّ من هؤلاء الأناس الاقتراب من التابوت إلى أن تبيّن صديقه واستاذه في صورة بالقلم لولد صغير، معلّقة فوق البيانو.

صاحت المرأة الكبيرة من خلال نشيجها: «سيد تومبسن، ارفع الغطاء. دعني أرى وجه ولدي.» وهنا تمعّن ستيفنز خائفاً، راجيا، في وجهها المحمّر، الوارم، تحت كثافات شعرها الاسود القوي اللماّع. أحس بالدم يرتفع إلى محياه، فغضّ طرفه، ثم رفعه لينظر، غير مصدّق، إلى وجهها. كان في وجهها ضرب من القوة ـ بل ضرب من الحُسْن الوحشي؛ غير انه مجّرح ومثلّم بالعنف، وقد لوّنته

وخشّنته عواطف شرسة يبدو أن الحزن لم يضع عليها يوماً أصبعه الرقيقة. كان الأنف الطويل منتفخاً ونهايته كالعقدة، وعلى جانبيه خطوط عميقة. وحاجباها الكثيفان الاسودان يكادان يلتقيان عبر جبينها، واسنانها كبيرة مربعة ومفارقة ـ اسنان تستطيع التمزيق، لقد ملأت الغرفة بحضورها، وامّحى الرجال وبدوا كأغصان صغيرة يابسة تتقاذفها المياه، حتى ان ستيفنز نفسه أحس بأن الدوامة تجرّه إلى أعماقها.

أما ابنتها ـ تلك المرأة الطويلة العظماء المتّشحة بالحرير الاسود، وفي شعرها مشط الحداد يضيف طولاً إلى وجهها الطويل ـ فجلست متشنجة على الصوفا، ويداها في حضنها باديتا الضخامة في عُقَد الأصابع، وقد انشدّت عيناها وشفتاها إلى الأسفل وهي تنتظر بوقار فتح التابوت. وقرب الباب وقفت امرأة خلاسية، هي من خدم المنزل ولاريب، بملامح وَجِلَة ووجه نحيل يقطر حزناً وشفقة ورقّة. كانت تبكي بصمت، وترفع طرف مريولها الى عينيها، وتكبت من حين لأخر شهقة راجفة من الحزن. فخطا ستيفنز إليها ووقف بجانبها.

سُمع وقع خطوات واهنة على الدرج، دخل على إثرها رجل شيخ غير مطمئن إلى حركته ـ رجل طويل القامة، ضعيف البنية، تفوح منه رائحة تبغ الغليون، شعره الأشيب غير ممشّط ولحيته ملوثة بالتبغ حول الفم. وتقدم ببطء من النعش ووقف بجانبه يلفّ بين يديه منديلاً قطنيا أزرق، وقد بدا عليه الألم والحرج من صيحات الفجيعة التي تطلقها زوجته حتى ماعاد يعي اي شيء آخر حوله.

«كفى، كفى، آني، عزيزتي، كفى،» راح يردد بصوت راجف وَجِل، ويده المرتعشة تربت باضطراب كوعها فاستدارت وهمدت على كتفه بعنف جعله يترنّح قليلاً لثقلها. نظرةً واحدة لم يلق على

التابوت، بل استمر ينظر إلى زوجته بتعبير بليد يجمع بين الخوف والاستعطاف، أشبه بكلب ينظر إلى السوط. وتطرق الاحمرار إلى خديه الهضيمين واشتعلا خجلاً وبؤساً. وعندما أسرعت الزوجة بالخروج من الغرفة، لحقت بها ابنتها مزمومة الشفتين. وتسلّلت الخادمة إلى التابوت، وانحنت فوقه للحظة، ثم انسحبت إلى المطبخ تاركة ستيفنز والمحامي والأب وحدهم، والشيخ واقفٌ يرنو إلى وجه ابنه الميّت. وقد بدا رأس النحات الرائع وكأنه ازداد نبلاً في سكونه الجامد عما كان عليه في الحياة. كان شعره الاسود قد زحف على جبينه العريض، وبدا طويلاً على نحو غريب، ولكنه يخلو من تلك الراحة المسترخية التي نتوقع رؤيتها في وجوه الموتى. فقد انشدّ الحاجبان حتى حفرا خطيّن عميقين في أعلى الأنف الأقنى. واندفعت الذقن عاليةً تتحدى. فكأن ضغوط الحياة كانت من الحدة والمرارة بحيث لم يستطع الموت ان يُرخي التوتر ويبسط الوجه إلى مايوحي بالسلام التام ـ كأن الرجل مازال يحرس شيئاً غاليا قد يُنتزع منه حتى بعد الموت.

تحرّكت شفتا الشيخ من خلال لحيته المخضّبة بالتبغ. والتفت إلى المحامي باحترام وَجِل: «هل سيعود فلبس والآخرون ليسهروا مع هارفي؟ شكراً، جم، شكراً.» ابعد الشعر برفق عن جبيني ابنه. «كان ولداً طيبًا، جم. كان دائما ولداً طيبا. رقيقاً كالطفل، وأعطفهم جميعاً ـ ولكن لم يفهمه أحد منا، أبداً...» وترقرقت دموعه على لحيته وسقطت على سترة النحات.

«مارتن، مارتن! يامارتن! تعال هنا!» عاطت زوجته من أعلى الدرج. فردّ الشيخ راجفاً: «نعم، آني. ها أنا قادم.» أشاح بوجهه.

وتردد وبقي للحظتين واقفا في حيرة بائسة. ثم عاد وربت على شعر ابنه الميت برفق. وخرج يتعثر من الغرفة.

علّق المحامي قائلاً: «شيخ مسكين، ما كنت اظن أن دموعاً بقيت لديه ليذرفها يخيل إليّ ان عينيه جفّتا منذ زمن بعيد وفي سنِّهِ ليس ثمة مايستطيع التأثير فيه عميقاً.»

شيء ما في نبرته جعل ستيفنز يرفع بصره نحوه. فبينما كانت الأم في الغرفة، لم ير الشاب احداً غيرها. اما الآن، منذ اللحظة التي رفع فيها بصره لاول مرة نحو وجه جم ليرد الذاوي وعينيه المضرّبتين بالدم، فقد عرف أنه عثر على مايئس من العثور عليه حتى تلك اللحظة ـ الشعور، العطف، الفهم، الذي لابد أنه موجود في شخصٍ ما، حتى في هذا المكان.

كان الرجل أحمر الوجه كلحيته، وقد انتفخت تقاطيعه وغامت بالشراب والاسراف، وفي عينيه الزرقاوين حرارة واجيج. كان وجهه مرهقاً ـ وجه من يكبح نفسه بصعوبة ـ وراح ـ يجّر بلحيته حنقا وامتعاضاً، واذ جلس ستيفنز قرب النافذة، راقبه وهو يخفض نور المصباح اللاعج، ويوقف جلجلة البلورات المعلقة به بحركة غاضبة، ثم يقف ويداه تمسك الواحدة بالاخرى خلف ظهره، ليحدق في وجه الفنان الكبير. وجعل يتساءل أية صلة كانت في يوم مضى بين وعاء «البورسلين»الرائع هذا وبين تلك الكومة السخماء من طين خزّاف اخرق.

سُمع من المطبخ لغط وصياح. وعندما فُتح باب غرفة الطعام، اتضح معناهما: كانت الأم تعنّف وتشتم الخادمة لانها نسيت أن تهييء الصلصة لسَلَطة الدجاج التي أُعِدَّت لحّراس العزاء. لم يكن

ستيفنز قد سمع في حياته تعنيفاً كذاك: لقد كان سيلاً من الشتائم الدرامية العاطفية الجارحة، الفذة والمذهلة قسوةً وايلاماً، وكلها بانفلاتِ وعنفِ الحزن الفاجع الذي رآه قبل عشرين دقيقة. واتجه المحامي مقشعرّ البدن إلى غرفة الطعام، وأغلق بابها المؤدّي إلى المطبخ.

وعندما عاد، قال: «وقعت كلها برأس المسكينة روكسي.. مريك وزوجته أخرجاها من دار الفقراء المعدمين قبل سنوات، لتعمل في هذا البيت. ولو سمح لها ولاؤها بالكلام، لروت المسكينة حكايات تجمّد الدم في العروق. إنها المرأة المولدَّة التي كانت واقفة هنا قبل دقائق، ومريولها يجفف عينيها. وصاحبتنا العجوز سُخطٌ حي: لم أر امرأة مثلها قط. ولقد جعلت حياة ابنها هارفي جحيماً عندما كان يقيم هنا. وكان يخجل ويستعرّ من تصرفها حتى المرض. لا اعرف كيف استطاع ان يحافظ على حلاوة طبعه في مثل هذا الجو.»

فقال ستيفنز على مهل: «كان رائعاً، رائعاً.. ولكنني لم اكن أعلم كم كان رائعاً حتى هذه الليلة.»

ـ «وهنا موطن العجب الأبدي في الأمر ـ أن هذه الروعة يمكنها أن تنبثق حتى من مزبلة كهذه!» قال المحامي ذلك صائحاً، ومع إيماءة عريضة تشير إلى ماهو اكثر بكثير من الرقعة المحاطة بالجدران الاربعة حيث كانا يقفان.

فتمتم ستيفنز: «اريد شيئاً من الهواء.. الغرفة مخنوقة وبدأت أحس بمايشبه الاغماء.» وراح يكافح في محاولته فتح احدى النوافذ. غير أن عارضتها كانت عاصية ، ولم تستجب لمحاولته، فجلس مكتئباً وجعل يسحب ياقته. وعندها ذهب المحامي وزحزح

العارضة بضربة من قبضته الحمراء، ورفع درفة النافذة بضع بوصات. فشكره ستيفنز ولكن الغثيان الذي كان يتصاعد الى حنجرته في نصف الساعة الاخير ترك فيه رغبة واحدة ـ رغبة يائسة تدفعه إلى الابتعاد عن هذا المكان بما تبقّى لديه من هارفي مريك. آه إنه الآن قد ادرك سّر تلك الابتسامة المريرة الهادئة التي كثيراً ما رآها ترتسم على شفتي استاذه!

ذات مرة عاد الفنان مريك من زيارة لأهله ومعه منحوتة ناتئة شديدة الحساسية والايحاء، تصوّر عجوزاً باهتة جالسة تخيط شيئاً ثُبّت بدبّوس على ركبتها، وقد وقف بجانبها طفل مكتنز الشفتين، مكتنز الحيوية، وبنطلونه معلق بخصره بدبوس كبير، وهو يلجّ بنتع فستانها ليلفت نظرها إلى فراشة امسك بها. فسأله يومئذ ستيفنز، إذ أعجب برهافة التشكيل ورقته البادیتين في الوجه النحيل المجهد، هل تلك المرأة أمه؟ ولم ينس كيف احمّر عندها وجه النحات وتوهّج.

جلس المحامي في كرسي هزاز قرب النعش، وقد ألقى برأسه الى الوراء، واغمض عينيه. فتمعّن ستيفنز في وجهه، وأدهشه خط الذقن، وتساءل لماذا يخفي اي رجل ملمحاً قويا متميزا كهذا تحت كومة من لحية تشوّهه. وبغتةً، كأن المحامي أحس بنظرة النحات الشاب النافذة، فتح عينيه.

وتساءل فجأة: « هل كان دائما محارة مغلقة؟ فقد كان شديد الحياء في صباه.»

أجاب ستينفز: «نعم، كان محارة مغلقة، على حدّ قولك. ومع أنه كان شديد التعلق بالناس، فقد كان يوحي اليهم بأنه منفصل عنهم.

كان يكره العواطف العنيفة، ويميل إلى التأمل وعدم الثقة بنفسه ـ فيما عدا مايتصل بعمله الفني، بالطبع. فقد كان واثقاً من فنه. كان قليل الثقة بالرجال عموماً، وأقل ثقة بالنساء، ولكن، بشكل ما، دون أن ينسب اليهم ايّ نية شريرة. بل إنه كان مصمماً على ان ينسب اليهم أطيب النوايا. غير أنه كان يخشى الاستقصاء.»

فقال المحامي واجماً: « الملدوغ يخشى جرَّة الحبل.» واغمض عينيه.

واسترسل ستيفنز معيداً تركيب ذلك الصِّبى البائس. كل هذا القبح الناهش الفجّ كان هو نصيب الرجل الذي غدا ذهنه فيما بعد قاعة صُور لانطباعات جميلة لا نهاية لها ـ وهي من رهافة الحسّ بحيث أن مجرّد ظلٍ تلقيه ورقة من أشجار الحَوْر على جدار مشمس، ينحفر فيه ويبقى هناك الى الأبد. واذا كان هناك من كانت الكلمة السحرية على رؤوس اصابعه، فهو هارفي مريك. مالمس شيئاً إلّا وكشف عن أقدس سرّ فيه، وحرّره من إساره وأعاده إلى بهائه الأول. وكل شيء اتصل به، ترك عليه سجلاً جميلاً لتلك التجربة ـ كأنه يطبع عليه توقيعاً من الأثير؛ عطراً. رنيناً، لوناً كان مُلكه هو.

لقد فهم ستيفنز في تلك الليلة المأساة الحقيقية التي اتصفت بها حياة استاذه: لم تكن حباً او خمراً اسرف فيهما، كما حسب البعض، بل ضربة وقعت مبكّراً وجرحته جرحاً أعمق من اي شيء آخر ـ عاراً لم يكن عاره، ولكنه ما استطاع الخلاص منه، وبقي مختبئاً في قلبه منذ حداثته. وفي الخارج، كانت هناك حرب الحدود؛ توقُ صبيٍّ، أُلقي به بَرّاً في صحراء من الجدَّة والقبح والضَّعة، إلى كل ما كان نقياً وعريقاً، ومفعماً بنبل التقاليد.

في الساعة الحادية عشرة جاءت المرأة العظماء وأعلنت ان حرّاس العزاء قد قدموا، وطلبت اليهما أن «يتفضلاّ إلى غرفة الطعام». وفيما نهض ستيفنز، قال المحامي: «اذهب انت ـ ستستفيد من التجربة. أما انا فلا قِبَل لي بهؤلاء الناس: لقد تحملتهم عشرين سنةً كاملة.»

وحين أغلق ستيفنز الباب وراءه ألقى نظرة اخيرة على المحامي وهو جالس قرب النعش في الضوء الكابي، وذقنه مستقرة على يده.

الجماعة الضبابية نفسها التي وقفت امام باب عربة القطار أخذ افرادها يجرّون الخطى الى غرفة الطعام. وفي ضوء المصباح النفطي تفارقوا وأمْسَوا اشخاصاً متمايزين. فكان هناك الكاهن، رجل شاحب ، واهن، ابيض الشعر وأشقر الشارب. اتخذ لنفسه مقعداً قرب مائدة جانبية وضع عليها كتابه المقدس. وجلس الرجل صاحب «جيش الجنوب» وراء الموقد، وأمال كرسيه الى الخلف ليستقر على الحائط راحةً له: وأخرج من جيب صدريته مسواك عظم الريش. وانزوى المصرفيان فلبس وإيلدر في ركن وراء مائدة الطعام حيث بوسعهما إكمال مناقشتهما لقانون الرِّبا الجديد وأثره في القروض العينية. وسرعان ما انضمّ اليهما دلاّل العقارات، وهو رجل عجوز ذو وجه باسم منافق. وجلس تاجر الفحم والأحطاب، وناقل المواشي، كل مقابل الآخر بجانب كانون الفحم، راكنَيْن اقدامهما على إطاره المعدني البرّاق. اما ستيفنز فأخرج كتاباً من جيبه، وراح يقرأ. وشمل الحديث حواليه مواضيع شتى تهمّ اهل البلدة، بينما اخذت الدار تهدأ، الى أن اتضح ان اهل الدار قد آوَوا إلى أفرشتهم، وعندها رفع صاحب «جيش الجنوب» كتفيه، وطوى ساقيه

الطويلتين،وركن عقبيه على قواعد كرسَيه، وتساءل بصوته المخنّث الضعيف: «أتظن أن هناك وصيه ما، يافلبس؟»

ضحك المصرفي ضحكة مزعجة، وجعل يقلّم اظفاره بسكين صغيرة لؤلؤيّة المقبض، وتساءل بدوره: «وهل ترى ان هناك أية حاجة لوصية؟»

غيّر الرجل الآخر وضعه مرة اخرى، رافعاً ركبتيه قريباً من ذقنه، وقال: « ولكن صاحبنا الشيخ يقول إن إبنه هارفي كان كثير الكسب في الاونة الاخيرة.»

فتدخل المصرفي الآخر قائلاً: «اعتقد انه يقصد بذلك ان هارفي لم يعد يطلب إليه ان يرهن المزيد من المزارع لكي يستطيع الاستمرار بدراسته.»

فعلّق صاحب الجيش، بضحكة رفيعة: «لا استطيع ان أعود بذاكرتي إلى زمن لم يكن فيه هارفي مشغولاً بالدراسة.»

وقهقه الجميع. وأخرج الكاهن منديله ومخط فيه بصوت عال. والمصرفي فلبس أغلق سكينة بنقرة، قائلاً بلهجة من يحكم على أمر بعد التأمل فيه:« من المؤسف أن أبناءصاحبنا كبروا خائبين. فهم لم يتماسكوا قط. وهو انفق على هارفي مالاً يكفي لملء عشر حظائر بالمواشي، وكأنه صبَّه صبَّاً في «خليج الرمال».. ولو مكث هارفي عند أهله وأعانهم في تنمية ما لديهم، وأضاف المواشي إلى مزرعة أبيه البعيدة، لتحسّنت حالهم جميعاً. الا أن الشيخ اضطر إلى الاعتماد في كل شيء على المستأجرين الضامنين، فخدعوه يميناً وشمالاً ومن كل جانب.»

وهنا تدخل تاجر المواشي قائلاً: «لا، ما كان بوسع هارفي ان

يتعامل مع الاغنام والأبقار والدواب. لم يكن نبيهاً. اتذكرون يوم اشترى بغال ساندر باعتبارها في سن الثامنة، بينما لم يكن في البلدة من لايعرف أن حَما ساندر كان قد أعطى زوجته هذه البغال كهدية زواج قبل ذلك بثماني عشرة سنة، وكانت كلها كبيرة تامة النمو. اتذكرون؟»

ضحك الجميع دون رفع اصواتهم، وفرك صاحب «جيش الجنوب» ركبتيه بفرح طفولي.

وقال تاجر الفحم والأحطاب: « هارفي لم يكن يهتم بأي شيء عملي. ومن المؤكد انه لم يكن يحب الشغل، قطعاً. اذكر آخر مرة جاء فيها إلى الدار: يوم رحيله، وقد خرج والده إلى العنبر ليساعد المعين في ربط الحصان بالعربة لنقل هارفي الى القطار، وكال موتس منهمك في إصلاح السياج. خرج هارفي الى الدرج، وراح كمن يغنّي بصوت نسائي، يقول: كال موتس، كال موتس! ارجوك تعال وشدّ حقيبتي!»

ـ«هذا كان هارفي بالضبط،» قال صاحب الجيش الجنوبي مؤيداً.

ومازال صوته يرن في أذني وهو يعيط، عندما اصبح فتى يلبس البنطلون الطويل وأمه تجلده بحزام جلدي في العنبر، لأنه سمح للبقرات بأن تتيه في حقل الذرة وهو يعود بها من المرعى. وقد تسبب في مقتل إحدى بقراتي ذات مرة وكانت بقرة «جيرزي» وافضل حلوب عندي أيامئذ، واضطر أبوه إلى دفع التعويض عنها. كان هارفي يتأمل في الشمس وهي تغرب وراء الأهوار عندما هربت منه البقرة.»

ـ «كانت غلطة والده هي أنه ارسل الولد شرقاً الى المدرسة،» قال

فلبس وهو يمسّد سكسوكته ويتكلم بلهجة قضائية مقصودة. «وهناك حشا دماغه بالكلام الفارغ. أما الذي كان هارفي، دون الناس كلهم، بحاجة إليه، فهو دورة دراسية في كلية ممتازة للادارة والأعمال في مدينة كانسَس.»

كانت حروف الكلمات تسبح أمام ناظري ستيفنز. أممكن أن هؤلاء الرجال لايفهمون، وأن سعفة النخل على النعش لاتعني شيئاً لهم؟ ولكان اسم بلدتهم بالذات مدفوناً إلى الأبد في دليل البريد لو لم يُذكر بين حين وآخر في العالم لصلته بالفنان هارفي مريك. وتذكرّ ما قاله استاذه يوم وفاته، بعد أن أَنهى احتقان الرئتين اي أمل له بالشفاء، وطلب أليه النحات أن يرسل جثمانه إلى أهله وبلدته. قال، وعلى شفتيه ابتسامة خائرة: «ليست بلدتي بمكان طيب يرقد فيه المرء والعالم يتحرك ويفعل ويتحسن، ولكن يبدو لي ان علينا ان نعود في النهاية إلى المكان الذي انطلقنا منه. لسوف يأتي أهالي البلدة ليلقوا نظرة عليّ، وبعد ان يقولوا مايريدُون ان يقولوه، لن يبقى لديّ الكثير مما أخشى عليه من حكم ربي!»

قال تاجر المواشي: «اربعون عاماً ليست بالعمر الطويل لآل مريك، فمن شأنهم أن يتقدموا في السن. ولكن لعل هارفي أسرع بخاتمته بالويسكي.»

غير أن الكاهن علّق بتؤدة: «اهل والدته لا يعّمرون، وهارفي بالذات كان مزعزع البنية.» أراد ان يقول المزيد، فقد كان معلّم هارفي في حداثته ايام الأحد، وكان يحّبه. إلّا أنه أحسَّ انه لم يكن في موقف يتيح له التكلم كما يريد، فابناؤه كلهم اخفقوا في حياتهم، وما انقضت سنة بعد على اليوم الذي قام فيه احدهم برحلته الأخيرة الى

مسقط رأسه في القطار نفسه، صريعاً برصاصة أُطلقت عليه في احدى دور القمار في بلدة «التلال السود».

وأضاف تاجر المواشي، واعظاً: «ومع ذلك، فالذي لاشك فيه هو أن هارفي كثيراً ما عاقر الخمر وهو حمراء، وعاقرها وهي صفراء وبيضاء، وهي ولاشك قد ذهبت بالكثير من عقله.»

وفي تلك اللحظة صدرت طقطقة عالية عن الباب المؤدي إلى الصالون، فجفل الجميع دون ارادة منهم، ولكنهم عادوا فتنفسوا الصعداء حين لم يخرج إليهم إلا جم ليرد. غير أن رجل «جيش الجنوب» أخفض رأسه حين لمح الشرر في عينه الزرقاء المضرّبة بالدم. فقد كانوا كلهم يخافون جم: إنه سكّير، ولكن بوسعه التحايل على القانون ملاءمةً لحاجة عميله اكثر من اي رجل آخر في كانسَس الغربية كلها، والكثيرون يحاولون ولا يفلحون. اغلق المحامي الباب وراءه، واتكأ عليه مكتّفاً ذراعيه، وأمال رأسه بعض الشيء جانباً. وكان اذا ما اتخذ هذا الوضع في المحكمة، جعل كل من فيها يصيخ السمع، لأنه وضع ينبىء بسيل من التهكم اللاذع سيطلقه على غريمه.

شرع يتكلم بنبرة جافة، متّزنة: «لقد صاحبتكم ايها السادة من قبل، وانتم تجلسون قرب توابيت فِتْيَةٍ ولدوا وترعرعوا في هذه البلدة. وكنتم دائماً، اذا لم تخنّي الذاكرة، غير راضين عنهم حين تناولتموهم بالتقويم. ما الذي جرى ياقوم؟ لماذا تجدون الشباب الجيدين المستقيمين أندر من اصحاب الملايين في «مدينة الرمال»؟ قد يُخيّل إلى أي غريب عنكم ان هناك خللاً ما في بلدتكم التقدمية. كان روبن ساير ألمع محام انتجه مجتمعكم، فلماذا بعد مجيئه اليكم من

الجامعة مستقيماً ككعب النرد لجأ إلى الشرب وزوّر صكاً واطلق النار على نفسه؟ لماذا مات ابن بل مريت من الرجاف في خمّارة في «أوماها»؟ لماذا وقع ابن السيد توماس صريعاً برصاصة في دار للقمار؟ لماذا حرق آدمز الشاب مصنعه ليخدع شركات التأمين ويدخل السجن؟»

توقّف المحامي، وأرخى ذراعية، ثم وضع قبضة إحدى يديه بهدوء على الطاولة. «سأقول لكم لماذا. لأنكم لم تقحموا في آذانهم إلا حديث المال والنذالة منذ صباهم؛ لانكم رحتم تنتقدونهم كما رحتم تنتقدون هذه الليلة، جاعلين نماذجكم أناساً كصديقينا هنا فلبس وإيلدر، كما كان يجعل اسلافنا جورج واشنطن وجون آدمز. غير ان الفتية كانوا صغاراً، وجاهلين بالأعمال التي فرضتموها عليهم، وأنّى لهم أن يضاهوا الفنانين البارعين من أمثال فلبس وإيلدر؟ اردتموهم ان يكونوا اوغاداً ناجحين؛ وما كانوا إلا اوغاداً فاشلين ـ وذلك هو الفرق الوحيد. فتى واحد فقط نشأ في هذه الأرض الحرام بين نزعة النهب ونزعة الحضارة ولم ينته إلى الاخفاق والخيبة، هو هارفي مريك. وانتم كرهتم هارفي مريك لأنه خرج رابحاً اكثر مما كرهتم الفتية الآخرين كلهم الذين سقطوا تحت العجلات. يا إلهي، يا إلهي، كيف كرهتموه! صاحبنا فلبس هنا يروق له ان يقول إن بوسعه ان يبيعنا ويشترينا جميعا في اية لحظة يشاء، ولكنه كان يعلم ان هارفي لن يشتري مصرفه ومزارعه ومواشيه، كلها معاً، بفلس أحمر. وفلبس ينقم على من يُبدي له عدم تقدير كهذا.

«وصاحبنا الشيخ نمرود يعتقد أن هارفي اسرف في الشرب ـ هذا الكلام يقوله رجل مثل نمرود ومثلي! تصوروا!

« اما أخونا إيلدر فيقول إن هارفي استهتر بأموال أبيه ـ وقصّر في مشاعر الابن تجاه والده، ربما. وكلنا نذكر اللهجة التي تحدث بها اخونا إيلدر حين أقسم أن أباه يكذب ـ وأين؟ في المحكمة! وكلنا يعلم ان اباه خرج من شركته مع ابنه ممعوطاً كالخروف الذي جُزّ صوفه كله... ولكن، لعلني أخذت أمَسُّ الناس بأشخاصهم، ويجمل بي أن انصرف إلى ما أريد أن اقوله.»

توقف المحامي لحظةً، ثم رفع كتفيه العريضتين، واستأنف: «أنا وهارفي مريك كنا نذهب إلى المدرسة معاً، في الاقليم الشرقي. كلانا كان جادّاً جدّاً، وأردنا أن تفخروا جميعكم بنا في يوم قادم. كلانا اراد ان يكون رجلاً عظيما. حتى أنا، وأنا لم افقد بعد حس الفكاهة، أيها السادة، اردت ان اكون عظيماً. عدت إلى بلدتي هذه لكي امارس المحاماة، واذا بي أجد أنكم لاتريدونني قطعاً ان اكون رجلاً عظيماً. أردتموني أن اكون محامياً شديد الدهاء ـ أجل ! صاحبنا الجندي القديم هنا، ارادني ان احصل له على زيادة في راتبه التقاعدي بحجة العجز، لأنه مصاب بالإمساك ـ وفلبس اراد مسح المقاطعة من جديد بحيث يتم ادخال المزرعة الصغيرة التي تمتلكها الأرملة ولسون ضمن حده الجنوبي. وإيلدر اراد أن يعطي قروضاً بفائدة خمسة في المئة شهرياً، يقبضها بأنتظام. وصاحبنا ستارك هنا اراد أن يغري عدة عجائز في فيرمونت باستثمار اموالهن القليلة في رهونات عقارية لا تساوي قيمتها الورق الذي تكتب عليه... آه، كنتم في اشدّ الحاجة إليّ، ولسوف تبقون في أشد الحاجة إليّ!

«إذن، أنا عدت اليكم وأضحيت الحيّال اللعين الذي اردتموه.

وانتم تتظاهرون انكم تحترمونني بشكل ما، ومع ذلك فانكم تقفون وتقذفون هارفي مريك بالوحل، لانكم لم تستطيعوا أن تلوّثوا روحه، ولم تستطيعوا أن تقيّدوا يديه. يالكم من ذوي فضل وفضيلة وتمييز! كثيراً ما كنت ارى اسم هارفي وارداً في جريدة ما في ولاية شرقية فأشعر بالعار تجاه نفسي، ككلب عوقب بالجلد. وكثيراً ما كان يروق لي أيضاً ان اتخيله في خضمّ العالم، بعيداً عنّا، بعيداً عن قمامة الخنازير هذه، وهو يرتقي السلّم النظيف العالي الذي وضعه نصب عينيه.

«وأما نحن؟ الآن وقد تعاركنا وكذبنا وعرقنا ونهبنا، وكرهنا كما لايكره إلّا المكافحون الخائبون في بلدة صغيرة عديمة الروح شديدة التمرمر ـ ما الذي لدينا نبرزه لنتباهى به؟ ما كان هارفي مريك ليوازي بين غروب واحد على مستنقعاتكم وبينكم مجموعين سوية، وأنتم تعلمون ذلك، وأنا ليس لي أن أعرف السبب في ان الله تعالى، بحكمته التي لاتدرك ، انجب عبقرياً من هذا المكان، مكان الكراهية والمياه المرّة. إلّا انني أريد لهذا الشاب من بوسطن أن يعلم ان الهراء الذي سمعه هنا هذه الليلة هو الثناء الوحيد الذي بوسع اي رجل عظيم عن حق ان يناله من مجموعة كواسج مريضة، منسية، ملدوغة، بائرة الأرض،كأصحاب الأموال هؤلاء الموجودين هنا، من اهالي«مدينة الرمال»هذه البلدة التي رحمها الله وكان في عونها!»

ومدّ المحامي يده لستيفنز وهو يمرّ به، وانتزع معطفه من على المشجب في قاعة المدخل، وغادر الدار قبل ان يجد رجل الجيش الجنوبي وقتاً لرفع رأسه المطأطىء، ومدّ عنقه الطويل للتلفّت بين صحبه.

وفي اليوم التالي كان جم ليرد ثملاً وعاجزاً عن حضور قدّاس الجنازة. وذهب ستيفنز إلى مكتبه مرتين ولم يجده، واضطر الى الرحيل شرقاً دون ان يراه.ولأنه حدس بأنه ستأتيه رسالة منه، كان قد ترك عنوانه علىمنضدة المحامي. فاذا كان ليرد قد وجده فأنه لم يكتب له قط. فالشيء الذي أحبه فيه هارفي مريك، لا بد أنه غار في الأرض ودفن مع تابوت هارفي مريك، لأنه لم ينطق قط مرة اخرى. وقد أصيب جم بالزكام الذي سبّب وفاته حين كان راحلاً عبر جبال كولورادو،ليرافع دفاعاً عن أحد ابناء فلبس الذي جرت محاكمته هناك لأنه اقتطع أحطاب أشجار الحكومة عن غير حق.

اخونا الأبيّ، الموت

توماس ولف
١٩٠٠ ـ ١٩٣٨

ولد توماس ولف في آشفيل بولاية نورث كارولانيا، لأبٍ حجار وام تدير فندقاً صغيراً. ودرس في جامعة الولاية، ثم ذهب الى جامعة هارفرد لدراسة كتابة المسرحية وبعدها عمل مدرّساً للانكليزية في جامعة نيويورك. وقد كان طويل القامة جداً اكثر من ١٩٢ سم ـ واولع بالكتابات الطويلة الدافقة التي كانت سِيَراً ذاتية يحورّها ليجعلها في صيغة روائية.

ظهرت اولى رواياته الطويلة هذه عام ١٩٢٩ بعنوان «انظر صوب الوطن، ياملاك»، حيث يظهر توماس ولف بأسم يوجين غانت، وحظيت في الحال بنجاح كبير. واتبعها عام ١٩٣٥ برواية «عن الزمن والنهر». اما في روايتيه التاليتين، فيظهر ولف بأسم جورج ويبر. وقد نشرت كلتاهما بعد موته المبكر إثر نزلة صدرية حادة، وهو في الثامنة والثلاثين، وهما «النسيج والصخر» (١٩٣٩)، و

«لاتستطيع العودة الى الوطن ثانية» (١٩٤٠) ونشرت له ايضاً بعد موته كتابات متفرقة اخرى.

وقد استطاع هذا الشاب ان يبرز في عالم الرواية الامريكية في الوقت الذي كان همنغواي وفوكنر وستاينبك وغيرهم هم سادة الموقف فيه، ربما لشدة الاختلاف بين اسلوبه واساليبهم. ففي حين تميز همنغواي، مثلاً، بلغته المشدودة، واقتضابه الموحي، وندر النعوت في جمله القصيرة، كان توماس ولف على العكس منه تماماً غزير الاسترسال، موسيقيّ الاطناب، يقذف بالنعوت يميناً وشمالاً في جمل طويلة متداخلة. ولعلّ ذلك هو ما حببّه الى القراء: انه لايمسك القلم عن قول، وبصب عواطفه صباً مضطربة وجائشة حُبّاً، ومقتاً، وغضباً، ودهشة.

يقال ان الشباب كانوا، ومازالوا، هم الاكثرية الغالبة من قرّاء هذا الكاتب الضاجّ دوماً بكلماته. ربما لان موضوعه في معظمه هو متابعة المراهق والشاب في نموّهما وصراعهما من اجل النجاح في الحياة، والانتماء الى الاسرة، والبحث عن الحب، في عالم قاسٍ وحشي الكراهية، كثير الشجار، ومهدّد بالظلام. وهو في كل مايكتب، اضافة الى ذلك، مولع بتصوير الحياة فسيحةً ومترامية ترامي واتساعَ مدنِ وبراري وجبال الولايات المتحدة التي يباهي بعشقها.

وقد بقي رومانسيّ النزعة، يجعل الكثير من فقرات رواياته قصائد نثر تتوالى فيها صيحات الفرح والنشوة وخواطر الألم والموت، ولا يكبح انطلاقاته اللفظية، رغم التكرار، والاسهاب. فأهم ما لديه في نهاية الامر هو التعبير عن الذات ـ ذاته هو وما يسمى بقصصه القصيرة يصعب وضع الفواصل فيما بينها، كما يصعب عزلها عن سرده الدافق، سواءً روائياً او كسيرة ذاتية.

ورغم هذا التمركز في الذات، يبقى توماس ولف من ابرز كتّاب امريكا شخصيّةً واسلوباً، بسبب من ابعاد رؤيته، وحرارة حماساته. قد لانستطيع التفريق بين الشخص فيه وبين الفنان، بين الوجه والقناع، ولكن لعل ذلك بالضبط هو السرّ في تميّزه الروائي.

اخذت قصة «اخونا الابيّ، الموت» من كتاب «من الموت حتى الصباح» From Death to Morning، ويتجسد فيها، حتى من خلال الترجمة، الكثير مما قلناه هنا في فنه واسلوبه.

اخونا الأبيّ، الموت

وجه الليل، قلب الظلام، لسان اللهيب ـ لقد عرفت الاشياء كلها التي تحيا او تتحرك او تعمل في مصير الليل. كنت ابن الليل، ولداً من اولاد اسرته القوية، وعرفت كل ما يتحرك في قلوب الناس الذين يعشقون الليل. رأيتهم في الف مكان، ولم اجد غرابة قط في اي شيء يقولونه او يفعلونه. ايام طفولتي، اذ كنت اعمل كصبي مراسل في جريدة صباحية، رأيتهم في شوارع بلدة صغيرة ـ تلك الجماعة الغريبة المستوحشة من البشر الذين يتسكعون في طرقات الليل، قد يكون كل بمفرده، او برفقة واحد او اثنين آخرين، دائماً وأبداً في حراسة الهزيع الاوسط من الليل في هذه البلدة الصغيرة او تلك، يتمشون على الارصفة الخالية من الشوارع المقفرة، يمرّون امام دمى الشمع الشاحبة الواقفة في نوافذ متاجر الملابس، ويتوقفون طويلاً في مطاعم صغيرة حيث يتبادلون ببطء وهدوء اخبار الآخرين،

وقد غمروا البوز والشفة واللغد الهزيل في الاعماق الملوثة من كوب قهوة، او يهرئون رماد الزمن الاشهب الونيّ دون كلمة يقولونها.

وذكرى وجوههم، وتجوالهم القلق آناء الليل، وكلها يومئذ مألوفة لديّ ولا اسائلها، عادت الآن اليّ بغرابة الحلم. ما الذي كانوا يريدون؟ ما الذي كانوا يأملون ان يجدوه وهم يتسكعّون مروراً بألف باب في تلك البلدان الشتائية، الصغيرة، المقفرة؟

املهم، هَوَج معتقدهم، الاغنية الظلماء التي كان الليل يثيرها فيهم، هذا الشيء الذي كان يحيا في الظلام والناس نيام ويعرف لذة نصر منتشٍ خفيّ، وكان في كل مكان من الوطن، هذه كلها دُوِّنت في قلبي. لافي حلاوة ونقاء الفجر بكل ما في الكشف عنها من روعة وجمال وشجن، ولا في ما في الصبح من اضواء العادة والعمل، ولافي ما في سيقان الذرة من قوام صامت في الظهيرة مع تلك الهمهمة الناعسة التي تطغى في الحقول في الثالثة بعد الظهر، ولا في ذلك الذهب المخضوضر السحري الذي يملأ الآجام الغنائية الهوجاء، حتى ولا في الارض التي راحت تنفث عنها بهدوء آخر قيظ النهار وعنفه في اعماق الغسق وسكونه الجاثم على الدنيا ـ بروعة وجمال تلك الايام وأضوائها ـ لا في هذه جميعاً استشعرت ووجدت غوامض امريكا وبهاءها وجمالها العصيّ على الفناء.

لقد وجدت الارض الظلماء في قلب الليل، في قلب الليل المظلم، الخفي، المتكبّر: كانت الارض الشاسعة المستوحشة تحيا لاجلي في دماغ الليل. رأيت سهولها، وأنهارها، وجبالها تنتشر امامي بكل جمالها الاسمر الخالد، بكل فضاء وفرح اندفاعها الكبير، بكل وحشتها، ووحشيتها، وهولها، وبكل خصوبتها الرقيقة الهائلة،

واتحد قلبي مع قلوب كل الرجال الذين كانوا يسمعون ما تطلقه من موسيقى هوجاء غريبة، تملأها التناغمات المجهولة والف لسان اهوج وخفي يرفع لي الموسيقى الراعبة المنتشية التي هي انغام الارض البرية، انغام الظفر والكشف، منشداً نبوءة مريرة غريبة هي نبوءة الحب والموت.

ذلك لان شيئاً ما كان ينبض حياةً على الارض في الليل. وفي قلوب الناس كان ثمة مَدٌّ مظلم يتحرك. مَدٌّ اهوج، غريب، يصيح بالفرح، وينتشر عبر الارض النائمة الشاسعة، كان قد كلمني في الف سهرة ليل، ولغة السنتهِ الخفية المظلمة كلِّها كُتبت في قلبي. لقد عبرت فوق رأسي برفرفة ايقاعية من جناحها العظيم، وانطلقت تصيح كعيارات النار صيحات النشوة الجنّية برفقة هبات رياح الشتاء السريعة: لقد جاءت ناعمة، خفيفة، تحمل في طياتها المظلمة توقعات فرح هائج في السماوات الشهباء الناعمة التي ستهمي بالثلوج، وكان مرآها مظلماً هائجا محمّلاً بالسرّ، في الليل، عبر الارض، وفوق ما يملأ المدينة من صمت حركي هائل، والمدينة قد هجعت في حجيرات نومها المليون، وهي ترتعش ابداً في الليل بذلك الصوت المدمدم، القصيّ، الهادر، صوت الزمن.

وانضممت معرفةً وحياةً، بيقين لايتطرّق الشك اليه، الى تلك الفئة العظيمة من الناس الذين يعيشون اناء الليل ويعرفون ويعشقون سرّه وعرفت كل الافراح والعناءات والخطط التي يعرفها اناس كهؤلاء. لقد عرفت كل شيء حي على الارض في الليل، وعرفت اخيرا في الليل الصحبة الخالدة مع اولئك الثلاثة الذين قضيت معهم الشطر الاكبر من حياتي ـ الموت الابيّ، واخته الجهمة،

الوحدة، واخيهما العظيم، النوم. ولطالما عشت وعملت وجهدت بمفردي مع الوحدة، صديقتي، وفي الظلام، في الليل، في اثناء صمت الارض النائمة، تمعّنت طويلاً في وجوه النوم، وسمعت وقع سنابك خيله وهي قادمة. ولقد رقبت أخي وأبي وهما يحتضران في الهزيع الاوسط المظلم من الليل، وعرفت واحببت شخص الموت الابيّ حين قدم إليّ.

كنت قد رأيت وجه الموت في المدينة ثلاث مرات، وكان عليّ في ذلك الربيع ان اراه مرة اخرى.

ذات ليلة ـ ليلةٍ من ليالي الجنون والثمالة والعنف التي عرفتها في تلك السنة، اذ رحت اتجول في شارع الظلمة العظيم من الضوء الى الضوء، من منتصف الليل حتى الصباح ـ رأيت رجلاً يموت في مترو المدينة.

لقد مات بهدوء حتى ليصعب على معظمنا الاعتراف في اول الامر بأنه قد سلّم الروح، مات بهدوء بحيث لم يكن موته الاّ وقفاً فورياً وديعاً لحركة الحياة، مسالماً وطبيعياً في فعله، فحدّقنا جميعاً به مفتونين، غير مصدّقين، متبينين وجه الموت حالاً وفينا حسنٌ رهيب بأننا كنا دائماً نعرفه، ومع ذلك فاننا لشدة خوفنا وحيرتنا نرفض الاعتراف بأنه قد جاء.

فرغم ان الموت في كل من المرات الثلاث التي شاهدته فيها في المدينة كان قد جاء مرعباً، عنيفاً، فان ذكرى الموت في هذه المرة تحمل صفةً من الرعب والجلال والفخامة لم اجدها في المرات السابقة.

وقعت حادثة الموت الاولى قبل ذلك باربع سنوات في شهر نيسان

من اول سنةٍ قضيتها في المدينة. وقد وقعت عند منعطف احد الشوارع الكئيبة المزدحمة في «الجانب الشرقي» الأعلى، وكان في شكل وقوعها صفة من القسوة والمصادفة والامبالاة اشد رعباً من اية قسوة مقصودة ومحسوبة، وقد رفعت عقيرتها حالاً من خلال الهواء المتألق، من خلال فرحة الموسم وسحره، ماحيةً كل امل وبِشر في قلوب الناس الذين شاهدوها.

كنت سائراً في احد الشوارع الفرعية الكئيبة في منطقة الجانب الشرقي الأعلى - وهو شارع مازال مليئاً بالواجهات المزوّاة الخشنة التي عرفت بها منازل الحجر الاسمر القديمة. وهي منازل كانت في يوم مضى ولاشك بيوت اناس موسرين، غير انها الان سوداء بصدأ وهباب السنين الطويلة. كانت هذه الشوارع تفور بفوضى وعنف حياة اناس سمر الوجوه، سود العيون، غرباء اللسان، يتماوجون جيئةً وذهاباً، لايُعدّ عديدهم ولا تعرف اسماؤهم، بذلك الدفق الحاشد، السيّال، المترامي الذي تتميز به الدماء والاجناس السمراء، بحيث ان ما تعرفه حيوات الاناس الشماليين من دقة مشدودة، وعزلة، وتشكيل صارم - كشيء مستوحد وصغير يتشبّث بذاته على نحو يثير الشفقة والاعجاب معاً - يتكسّر في الحال إزاء هذه السمرة الطاغية. وحشد الارض البشري الذي لا يُحدَّد عدده ولاسنُّه يتكشف فوراً بكل ما فيه من هول لا يُسبر غوره، ويسكن احلام المرء فيما بعد حتى ولو لم ير الا بضعة من هذه الوجوه السمراء في الشارع.

في الزاوية من هذا الشارع المزدحم، حيث يلتقي احد الشوارع الشعثاء الكبرى التي تخترق المدينة من طرف الى طرف، والتي

تُعتّمها الى الابد خطوط القطار العالية* بضوضائها ووحشيتها، بحيث يبدو الضياء الذي ينغل من خلال شباكها الحديدية الصدئة، بل كل ما تحتها من حياة وحركة، قاسياً، مُساقاً، مهزوماً، عنيفاً، محتاراً، ومشوَّشاً ـ في زاوية كهذه قُتل الرجل. كان رجلا ايطاليا، ضئيل الحجم في اواسط عمره، له عربة هزيلة يوقفها على رصيف المنعطف، محملة بضروب بائسة من السكائر، والحلويات الرخيصة، والمشروبات، وزجاجة كبيرة دهينة من عصير البرتقال مقلوب عاليها سافلها، تتصل فوهتها باسطوانة مطعّجة من الصفيح الابيض، وموقد نفطي صغير صُفّت عليه عدة قدور يطبخ فيها باستمرار النقانق والمعكرونة.

وقعت الحادثة في اللحظة التي وصلت فيها الى الزاوية المقابلة لعربة هذا الرجل. كانت حركة المرور تهدر شمالاً وجنوبا تحت الخطوط العالية.جاءت شاحنة مغلقة ضخمة ـ من ذلك النوع القوي الاخرق الاشبه بالقاطرة، والذي يبدو كأنه يريد ابتلاع السيارات الصغرى التي حوله، ويملأ الشارع بعرضه حتى ليدهش المرء لبراعة ودقة السائق في تسيير الشاحنة ـ جاءت هادرةً تحت الخطوط العالية. وانعطفت واستدارت، محاولةً ان تسبق شاحنة اصغر منها بكثير، واذ فعلت ذلك اصابت الشاحنة الصغرى بضربة جانبية حطمتها في الحال، وقذفت بها الى الناحية الاخرى من المنعطف لتضرب عربة البائع الجوّال بقوة هائلة كسرّتها شظايا، وانقلبت

---

* في مترو نيويورك هناك اقسام تكون فيها خطوط القطار مبنية على ارتفاع معين فوق الشوارع. المترجم

فوقها لتحط على ركام من الزجاج المهشم والحديد الملتوي.

وشاءت معجزة الحظ الا يصاب سائق هذه الشاحنة الصغرى بأذى، غير ان البائع الايطالي المسكين انسحق حتى بات لايعرف شكله. وحين انقلبت الشاحنة عليه، انفجر الدم المتألق من رأسه على الفور كالنبع، بحيث لايكاد المرء يصدق ان رجلاً بضآلته يملك ينابيع كهذه من الدم المتألق في جسده، ولفظ انفاسه الاخيرة هناك على الرصيف بعد دقائق معدودات، قبل ان تصله سيارة الاسعاف. وتجمهر حوله في الحال حشد كبير من الاناس سمر الوجوه وهم يتصايحون، وبسرعة ظهر رجال الشرطة بأعداد مذهلة، وشرعوا يشقون طريقهم بوحشية بين الناس المثارين، يشتمونهم، ويضربونهم، ويهدّونهم بعصيّهم، ويصرخون فيهم بغلظة:

«تفرقوا، هيا، تفرّقوا! تحرّكوا، كل في سبيله..»

وزمجر احدهم فجأة قائلاً: «الى اين انت رائح؟..» وأمسك رجلاً بمؤخر سترته، ورفعه، وقذف به بين الجمهور كأنه قطعة من الغائط. «تفرقوا! تفرقوا! هيا، هيا ياناس، تحرّكوا...».

وفي هذه الاثناء حمل رجال الشرطة الرجل المحتضر عبر المنعطف، ووضعوه على الرصيف، وضربوا حوله نطاقاً ازاء الحشد المندفع نحوهم. وبعد ذلك وصلت سيارة الاسعاف بجلجلة اجراسها المريعة، ولكن الرجل كان قد مات. اخذت السيارة جثته، وجعل الشرطة يدفعون الحشود امامهم، يضربونهم ويسوطونهم كأنهم حيوانات غبيّة حرونة، الى ان ابعد الناس كلهم عن البقعة المحيطة بالحطام.

ولكي يخلى الشارع ثانية امام حركة المرور التي لاتكفّ، راح

اثنان من رجال الشرطة يدفعان مرة، ويحملان مرة، الحطام الملتوي الذي خلّفته عربة البائع، وجعلا يلتقطان نثار الصناديق والاكواب والصحون المكسورة، وشظايا الزجاج، والسكاكين والاشواك الرخيصة، واخيراً قدور المعكرونة الصفيحية، ويلقيان بها على كومة الحطام. واختلطت المعكرونة بقطع من المخّ وكِسَر من الجمجمة على الرصيف في مزيج دموي فظيع. ونظر احد الشرطيين الى ذلك للحظة، ودفع مقدم حذائه الغليظ على مهل في المزيج، ثم استدار وقد علت التكشيرة وجهه الاحمر الوحشي، وقال: «اف!».

وعندها انطلق من باب دكان خياط صغير بائس عبر الرصيف يهوديٌّ ضئيل الحجم، اشهب الوجه، ضخم الانف، بلوالب من شعر دهني ينحدر على مؤخر رأسه من جبينه الزواحفي الأليم، وهو يلهث لهاثاً اجشّ بالإثارة، حاملاً بيده دلواً من الماء. ركض اليهودي سريعاً الى الشارع بساقين مقوستين مضحكتين، ودلق الماء على المزيج الدموي، ثم عاد الى دكانه بالسرعة التي جاء بها. وعند ذلك خرج رجل من دكان اخر يحمل دلوا مليئا بالنشارة، وجعل ينثرها على الشارع الملطخ بالدم الى ان غطى اللطخة كلها... واخيراً، لم يبق الا حطام الشاحنة وعربة البائع، وشرطيان يتداولان بهدوء كل دفتره بيده، وبعض الناس يطيلون النظر بعيون بليدة مفتونة الى لطخة الدم على الرصيف، وجماعات صغيرة من الناس واقفة في الزوايا، والكل يتحدثون بأصوات خافتة مثارة، يقولون:

«طبعاً، رأيت الحادثة! رايتها بعيني، اي والله. كنت أحدّث نفسي قبل وقوعها بدقيقتين! ثم رأيت الحادثة كلها! كنت واقفاً هناك، على بعد عشر اقدام من المكان الذي ضربته فيه الشاحنة!» ـ وهم يعيدون احياء اللحظة الدموية، يتقوّلون بها مرة بعد اخرى بتعطش

لايرتوي.

هكذا كان الموت الاول الذي شاهدته في المدينة. فيما بعد، كان الشيء الذي جعلت اذكره بأشد الوضوح، بعد ان كدت انسى هَوْل الدم والمخ وتهشيم الجسد الانساني الحي، هو صورة الصفائح والاواني المكسرة التي كان البائع يطبخ فيها المعكرونة، وقد انتثرت ملوثة بالدم على الرصيف، والشرطي يلتقطها ليقذف بها على ركام الحطام. اذ يبدو ان هذه الاشياء الكئيبة عديمة الحياة كان بوسعها فيما بعد ان تستعيد القصة كلها مشحونة بمشاعر المأساة ـ قصة حياة ذلك الرجل، بدفئه ولطفه وألفته وابتسامه (لانني كنت من قبل قد رأيته مرات عديدة)، وتشبثه العملي الصغير المسكين، يحدوه الامل الدائم تحت سماء غريبة عنه، في قلب المدينة الضخمة اللامبالية، ليكسب ولو كسباً بائساً شيئاً من الجزاء على جهده الشاق وصموده الصابر ـ لعله يجد في ذلك بعض الطمأنينة، والحرية، والخلاص، والراحة، مما سعت من اجله البشرية، وعملت، وعانت.

واللامبالاة الهائلة التي بها محت المدينة الرهيبة الشاسعة، في لحظة واحدة، هذه الحياة الصغيرة، ناقعةً الهواء المتألق والنهار الرائع بالدم، وتلك المفارقة الكبيرة والعابرة في ضربتها ـ لان الشاحنة الضخمة التي حطمت الشاحنة الصغرى وقتلت الرجل، استمرت بجريانها الهادر وتلاشت، ولعل سائقها لم يدر بما حدث ـ كلتاهما تستعيدها لي على نحو عصيّ على النسيان، بكل مأساته، وحزنه، وعدم اكتراثه ذكرى بضع اوانٍ مطعّجة ومهشّمة. وهذه كانت المرة الاولى التي رأيت فيها الموتَ في المدينة.

المرة الثانية التي رأيت فيها الموت في المدينة، كان قد جاء في الليل، في الشتاء، بطريقة مباينة.

عند حوالي منتصف الليل من ليلة مازال بردها قارساً في شباط، وقد وقف القمر بارداً مشعاً في ضياء ابيض مزرورق ملأ السماء المتجمدة، تجمع نفر من الناس على رصيف احد تلك الشوارع المزواة المضطربة التي تتفرع عن «الطريق المشجر السابع» قرب ميدان شريدان. كانوا واقفين امام عمارة جديدة قيد التشييد هناك، وقد انتصبت واجهتها بشكلها الخام الخاوي في الضوء البني اللاهب القاسي على بضع اقدام منها.. وعلى الرصيف كان حارس العمارة قد اشعل ناراً في صفيحة صدئة، وهذه النار جعلت الآن تتصاعد لهباً في الهواء المتجّمد، والسنتها تفرقع، فيلجأ اليها بين الحين والحين بعض هؤلاء الناس ليدفّئوا بها ايديهم.

على الرصيف الجليدي امام العمارة، تمدّد رجل على ظهره، بينما ركع الى جانبه طبيب مقيم من المستشفى، وطرفا سماعته في اذنيه، وهو يحرّك الجهاز من بقعة الى اخرى على صدر الرجل القوي، المعرّى. والى جانب الرصيف وقفت سيارة اسعاف، ومحرّكها يخفق خفقاً هادئاً بطيئاً، ولكنه لسبب ما خفق يدعو الى التشاؤم.

كان الرجل الممدد على الرصيف في حدود الاربعين، وله جسم ثقيل عشوائي التركيب، ووجه وحشي قوي، وكلاهما يدل على انه صعلوك محترف. ويبدو ان ذلك الوجه، بصفحته الندباء المرضوضة، لم تبق وحشيّة او ضراوة من طقس او تقليد مهانة جسدية الا وتركت بصمتها الحديديه عليه، خلال السنوات التي قضاها الشريد متسكّعاً علوّاً وسفلاً عبر الامّة والوطن، ومازال في تقاطيع الرجل ضرب من الوحشية الملحمية كتبت بها اسطورة

تتحدث عن السماوات الموحشة والمسافات المريعة، عن العجلات الطارقة والسكك المشعّة، عن الصدأ والحديد والعراك الدموي، وعن البراري الشرسة التي عرفها هذا الرجل.

كان ملقى على ظهره، ساكناً صلداً كالصخر، مغمض العينين، وتقاطيعه القوية الوحشية مندفعة الى الاعلى في وضع صلابة الموت وجموده. ولكنه كان مايزال حياً، وقد تهشم جانب من رأسه، عند الصدغ: انه جرح فاغر مرعب اصيب به عندما ضل طريقه، مخموراً وشبه معميّ بما شرب من كحول رخيص او «دخان»، الى داخل العمارة، فسقط على وجهه على كومة من قضبان الحديد هشّم احدها جانباً من رأسه. وقد سالت لطخة الجرح السوداء على احد جانبي وجهه، ومنه الى الارض، ولكن النزيف قد كاد يتوقف، وجعل الدم يتخثر بسرعة في الهواء المنجمد.

كان احدهم قد مزّق قميصه الاشبه بخرقة قذرة عن صدره القوي، الذي بدا هو ايضاً انه يرتفع الى الاعلى بالصلابة الساكنة نفسها. ولاترى فيه حركة من نَفَس: انه ملقى هناك كمن قُدَّ من صخر، غير ان احمراراً بليداً ممروضا مازال يشتعل في وجهه العريض الثقيل، وقبضتاه مشدودتان على جانبيه. وقبعته العتيقة قد وقعت عنه، وبان رأسه الاصلع. وهذه الهامة الصلعاء، بما على حافتيها من شعر قليل، اعطت لمسةً اخيرة من الكبرياء والقوة للوجه القوي الوحشي، على نحو مريع. فقد كانت اشبه بالقوة والصرامة اللتين يراهما المرء على وجوه اولئك الرجال الاقوياء الذين يقومون بأعمالهم الشاقة على الارجوحة الطائرة في السيرك، والذين يتميزون عادة بالصلع.

لم يبْدِ احد من المتجمعين حوله اية عاطفة، مهما تكن. بل وقفوا يطيلون النظر اليه هادئين، مستطلعين بحّدة ولكن غير آبهين، كأن في موت هذا الصعلوك الشريد امراً عابراً متوقعاً يبدو لهم طبيعيا فلا يثير فيهم الدهشة او الشفقة او الاسف، والتفت احدهم الى الرجل الذي بجواره وقال بهدوء، ولكن بثقة، وببسمة طفيفة:

«هذا ما يحدث لهم دائماً في النهاية. كلهم ينتهون هكذا، عاجلاً او اجلاً. ما رأيت احداً يشذّ عنها».

في هذه الاثناء كان الطبيب الشاب، بعناية وهدوء، ولكن بحياد، ينقل سماعته من مكان الى مكان، ويصغي. وبقربه وقف شرطي له وجه ثقيل مُعتم، مغضّن ومندّب، ويوحي بالوحشية، وهو يجيل بصره في المشهد مؤرجحاً عصاه المعلّقة بمعصمه، ويجترّ كمية من اللبّان على مهل.ووقف كذلك بضعة رجال بمن فيهم حارس الليل وبائع الجرائد الذي في الركن، ينظرون بسكون. واخيرا كان هناك شاب وفتاة، كلاهما حسن الهندام، وفي كلامهم وطريقتهم عنصر من الوقاحة، والعُري، والقبح، يميّزهما بانهما اعلى طبقةً من الاخرين بالثقافة، وبالمال، وبالمركز ـ فلعلهما من طلبة الجامعة، او شباب المدينة، او اهل «القرية» البوهيمية، او جماعة الفن، او الكتابة، او المسرح، او الجيل الحديث، «جيل مابعد الحرب» ـ كانا ينظران الى الرجل بفضول من يرقب حيواناً يحتضر، ولكن بشفقة اقلّ، ويضحكان، ويهذران، وينكتّان معاً بانعدام حقير للذوق على نحو بغيض جعلني اريد تحطيم وجهيهما.

كانا قد شربا خمراً، ولكنهما لم يسكرا: وثمة شيء ما قاس وقبيح يتوقّد عارياً فيهما ـ غير انه لم يكن متعمّدا او مفتعلاً، انه شيء قاسي

العين، مدرّب على العجرفة، جافّ ومزيّف، وبعيد عن الواقع، يحملانه اسلوباً في الحياة. وفيهما حضور ادبي مذهل، كأنهما خرجا من صفحات كتاب، كأن هناك فعلاً جنساً جديداً بائساً من الشباب يعمرون الارض لم تعرفه البشرية من قبل ـ جنساً قاسياً، عقيماً، غير صحيّ، استؤصلت منه احشاء الرأفة، والفجيعة، والفرح الصارخ بنشوته، كأنها هذه باتت موضة قديمة وغير لائقة عاطفياً بمخلوقات برّاقة خاوية تتنفّس عن قصد وتصميم هواء المرارة والكراهية، وتحتضن اليباب حتى العظم بعجرفة، وكبرياء ماحقة.

كان في حديثهما شيء سرّي وعذب، وشطارة. فهو مليء بالاشارات السريعة، والرهائف والدقائق التي لايعرفها غيرهما، ومرصّع بالعلامات الفارقة لهذا النوع من الكلام «البسيط» الذي كان يوماً سائداً بين هذه الفئة من الناس: «روعة»، «ممتاز»، «فاخر»، «حقاً مذهل»...

سألته الفتاة: «اين نذهب الان؟ هل سنجد لوي مفتوحاً؟ اظن انه يغلق مكانه في العاشرة».

كانت الفتاة لطيفة الوجه ولها قوام جيّد، ولكن وجهها كجسمها لا اكتناز فيه ولااستدارة: فهي جسداً وقلبا وروحاً، لانضج فيها. انها ضامرة النهد، بارزة الفك، جافة، عاقر.

قال الشاب: «اذا وجدنا مكان لوي مغلقاً، ذهبنا الى جاره ستيفنز. فهو يبقى مفتوحاً طيلة الليل.» وجهه اسمر وقح، وعيناه رطبتان، وفمه طري، ضعيف، مدلل، متعجرف، فاسد. واذا ماضحك، كان لصوته غرغرة ناعمة متصاعدة ـ رخوة، شامتة، واثقة من حقدها.

فهتفت الفتاة بنبرتها العارية: «اه، روعة! اود لو نذهب هناك! فلنُقم حفلة اخرى! من ندعو للذهاب معنا؟ اتعتقد ان بوب وماري سيكونان في البيت؟».

اجاب الشاب ببراءة بارعة: قد يكون بوب في البيت، اما ماري فالأرجح اننا لن نجدها هناك.».

وهتفت الفتاة ثانية، غير مصدّقة: «عجيب! اتقصد انها....» وهنا انخفض صوتاهما، وامتلأ بحماس وخبث وضحك، الى ان ارتفع صوت الشاب وفيه كركرة ناعمة:

«والله، لست اعلم! قضية اخرى من قضايا كثيرة.. وكما تعلمين، انها تحدث في احسن العائلات».

فصاحت الفتاة صيحة ضاحكة غير مصدّقة: لا! انت تعلم انها لم تفعل ذلك... وبعد كل الذي قالته عنه!... رائع! مذهل! ليتني ارى وجه بوب عندما يكتشف الامر! ـ» واستضحكا لحظة، وتهامسا عن معرفة، وبعدها صاحت الفتاة مرة اخرى صيحة الضحك وعدم التصديق:

«صحيح؟ غير معقول! مذهل!» ـ ثم اضافت بسرعة، نافذة الصبر: «اذن من ندعو للذهاب معنا؟ من غيرهما؟»

اجاب الشاب: «لا ادري. الساعة متأخرة الان. لا ادري من نستطيع ان نقنع بالذهاب، الّا اذا ـ» وهنا بدأ فمه الاسمر الرخو بالابتسام، وبرزت كركرة الضحك في حنجرته وهو يؤشر برأسه باتجاه الرجل الملقى على الارض «ـ الا اذا طلبتِ من صاحبنا هذا ان يرافقنا.»

فصاحت بضحكة صغيرة مرحة: «ممتاز!» ثم حدقت بجدّ للحظة في الجسد الهامد على الرصيف: «لكان شيئاً رائعاً لو استطعنا ان

نجعل رجلاً مثله يصحبنا! ياليت!».

قال الشاب، غير محدِّد معناه: «والله...» وبعد ذلك، اذ ركزّ النظر في الرجل، تصاعد سيل ضحكه، ثم قال للفتاة بخبثٍ ونعومة: «يؤسفني ان اخيب املك. لا اظن ان بوسعنا ان نستصحب صديقنا هنا. يبدو ان رأسه لن يكون على ما يرام في الصباح.» ومرة اخرى تبسّم فمه الاسمر، وتصاعدت الكركرة في حنجرته.

واذا الفتات تزعق زعقة صغيرة وهو تقول: «كفى!» ثم اردفت توبّخه: «الاتستحيي من نفسك؟ انه حلو وطيب. وفي رأيي ان نأخذ رجلا مثله معنا امر رائع جداً. فهو يبدو لي شخصاً ممتازاً ـ» واستمرت وهي تطيل النظر الى الرجل بفضول: «انه حقاً ممتاز.»

قال الشاب: والله انت ادرى... كان رائعاً يوماً ما!» وكركرت حنجرته الثرية الناعمة.

واضاف: «هيا، الافضل ان نذهب... يخيّل اليّ انك تحاولين ان تغازليه! ـ» واستمر كلاهما في الضحك والحديث بصوتٍ فتيّ، عارٍ، متعجرف، وانصرفا.

وبعد قليل نهض الطبيب، وأخرج طرفي السماعة من اذنيه، وخاطب الشرطي ببضع كلمات هادئة موضوعية، فدوّن الشرطي شيئاً في دفتره الصغير. وخطا الطبيب نحو حافة الرصيف، وصعد الى سيارة الاسعاف من بابها الخلفي، وجلس على المقعد مادّاً قدميه على المقعد المقابل، وقال للسائق:

«طيب، مابك، فلنذهب!» وتحركت السيارة رويداً، واستدارت ببطء حول الزاوية واجراسها تجلجل وابتعدت.

ثم طوى الشرطي دفتره، ودفعه في جيبه، والتفت فجأة الينا، وقد بدا التعب على وجهه الليلي، المعتم، الثقيل، ومدّ ذراعيه وراح يدفعنا

جميعاً الى الوراء برفق، وهو يقول بنبرة صبور مرهقة: «يلاّ ياقوم! تحركوا.. ابتعدوا... انتهت القضية.»

اطعنا أمره المتعب السَّمح، وتحركنا، وابتعدنا. وفي اثناء ذلك، بقي الميت ملقى على ظهره، صلداً كالصخر، ووجهه الوحشي الرائع، وجه القوة والتحمّل والصمود، مندفع الى الاعلى، جامداً، معرّىً، بسكون رهيب وهيبةٍ جليلة، يجابه القمر البارد المشعّ.

وكانت تلك المرة الثانية التي ارى فيها الموت في المدينة. اما المرة الثالثة، فلها حديث اخر.

مكان نظيف، حسن الإضاءة

أرنست همنغواي
١٨٩٨ ـ ١٩٦١

كان أرنست همنغواي، لمدة طويلة، أشهر كاتب امريكي على الاطلاق. ولد في ولاية الينوي، حيث كان ابوه طبيباً. وعمل في حداثته صحفيا، ثم تطوع كسائق سيارة اسعاف في الحرب العالمية الاولى، وجرح في ايطاليا عام ١٩١٧، ثم خدم كجندي في المشاة الايطالية حتى نهاية الحرب. بعدها اقام لبضع سنوات في باريس حيث تعرّف على غرترود ستاين ـ التي اطلقت على جيله يومئذ تسمية «الجيل الضائع» ـ والعديد من مشاهير الكتاب أمثال فورد مادوكس فورد، وإزرا باوند، وجيمز جويس، وسكوت فتزجرالد (ويجد القارىء ذكرياته عنهم في كتابه الذي صدر بعد موته «عيد متنقل»). وفي باريس تلك الفترة كتب مجموعتي القصص القصيرة: «في زماننا» (١٩٢٥)و «رجال بلا نساء» (١٩٢٧)، والروايتين: «الشمس تشرق ايضاً»

(١٩٢٦)، و «وداعا للسلاح» (١٩٢٩)، وحققت له هذه جميعاً شهرة عظيمة. وظهرت مجموعته القصصية الثالثة «رابح لا يأخذ شيئاً» في عام ١٩٣٣، وهي التي اخترنا منها قصة «مكان نظيف، حسن الاضاءة».

كان همنغواي في شبابه يهوى الملاكمة، ويقوم برحلات صيد كثيرة (قام ببعضها فيما بعد في القارة الافريقية)، برع في وصفها في كتبه التي اكد فيها على روح القتال والمغامرة والصمود في وجه الموت، حتى اختلطت على الناس صورة بطله كصياد ومقاتل وعاشق كثير الشرب مع صورته الشخصية نفسها.

وقد استمر في الكتابة حتى انتحاره عام ١٩٦١، وأصدر عدة روايات، بين طويلة وقصيرة، أهمها «لك الناقوس يقرع» (١٩٤٠) عن الحرب الاهلية الاسبانية التي شارك فيها كصحفي، و «الشيخ والبحر» (١٩٥٢). غير أنه نادراً ماحقق في كتاباته اللاحقة تلك الصفات التي وسمت ابداعاته في العشرينات وجعلت من اسلوبه القصير الجمل، وحواراته المقتضبة الشديدة الدلالة، نموذجاً لمئات من الكتاب والصحفيين في العالم. وفي الحرب العالمية الثانية عمل مراسلا صحفياً مع الجيوش الامريكية في اوروبا. وبعدها اقام لسنين عديدة في مزرعة له قرب مدينة هافانا في كوبا، حتى اندلاع الثورة فيها بقيادة فيدل كاسترو. وعلى اثرها عاد الى الولايات المتحدة واستقر في آيداهو. ولكن المرض كان قد اخذ منه جسماً وعقلاً، وآلمه ان يرى الكتابة الجيدة تشتد تمنعاً عليه، فقرر ان يطلق النار على نفسه من بندقية صيد وهو في الثالثة والستين من عمره.

لقد تقلصت شهرة همنغواي كثيراً بعد موته. ولكنه سيبقى أبرع من جدد في القصة القصيرة لغة واسلوباً، ولعله صاحب الاثر الثوري

الاعمق في كتابتها في الادب الامريكي المعاصر، إذ تخلى عن الصيغ «الأدبية» المألوفة، واستخدم لغة اقرب الى المحكية حتى في السرد، وبسّط بذلك تراكيب الجمل والفقرات ـ وهو مانراه واضحاً في قصته هنا ـ واستطاع بذلك ان يزيد من التركيز على الصورة وتوضيحها. ومن دأبه ان يمتنع عن تحليل الفعل أو التعليق عليه، فيوحي بالموضوعية فيما يصف او يصور.

وفي روايته «الشيخ والبحر» يقول همنغواي: «لم يضُع فالانسان للهزيمة. فلانسان قد يُدمر، ولكنه لايهزم» وهذا الموقف اساسي في معظم ماكتب، والبطل السائد في فنه القصصي يعلم ان حصاد حياته سيكون هزيلاً، وان لا بد من ان تدمره قوة ما، ولذا فهو يحيا بموجب بضع فضائل مبدأية، هي الشجاعة والامانة والانصاف، لكي يديم انتصار الانسان، مهما يكن زائلاً هذا الانتصار، على مايحيط به من فوضى وعدم.

مكان نظيف، حسن الإضاءة

كانت ساعة متأخرة من الليل، وقد ترك المقهى فيما عدا رجلاً مسناً جلس في الظل الذي تلقيه اوراق الشجرة إزاء الضوء الكهربائي. في اثناء النهار كان الشارع مغبراً، اما في الليل فكان الندى يستقر بالغبار، وكان الشيخ يحب الجلوس حتى ساعة متأخرة، لأنه أصم والان وفي الليل يعم الهدوء وهو يستشعر الفرق. كان النازلان داخل المقهى يعرفان أن الشيخ مخموراً قليلاً، ولئن يكون زبونا جيداً، الا انهما يعلمان أنه اذا ازداد سكراً ترك المقهى دون ان يدفع حسابه. ولذا فهما يرقبانه.

قال احد النازلين للاخر: «في الاسبوع الماضي حاول ان ينتحر».

«لماذا؟».

«كان يائساً».

«من ماذا؟».

«من لاشيء».
«كيف تعلم أنه لاشيء؟».
«عنده مال كثير»
كانا جالسين الى مائدة قريبة من الحائط قرب باب المقهى، ينظران الى الشرفة حيث الموائد كلها فارغة، باستثناء المائدة التي جلس اليها الرجل المسّن في ظل اوراق الشجرة التي كانت تتمايل برفق في الريح. مرّ جندي وفتاة في الشارع. والتمع ضوء الشارع على الرقم النحاسي الذي على ياقته. والفتاة حاسرة الرأس، تسرع في سيرها بجانبه.
قال احد النازلين: «سيوقفه الحرس».
«وماهمّه، اذا حصل على مايريد؟».
«خير له ان يترك الشارع الآن، وإلا اوقفه الحرس. لقد مرّوا من هنا قبل خمس دقائق».
فرفع الشيخ الجالس في الظل صحنه الصغير بكأسه. فذهب إليه النادل الاصغر سناً من رفيقه.
«ماذا تريد؟».
نظر اليه الشيخ، وقال: «كونياك اخر».
قال النادل: «سوف تسكر».
نظر اليه الشيخ، فانصرف النادل.
وقال لزميله: «سيسهر طيلة الليلة. وانا الان نعسان. لايتاح لي ابداً أن ادخل فراشي قبل الثالثة. كان الاولى به لو قتل نفسه في الاسبوع الماضي..
اخذ النادل زجاجة الكونياك وصحناً صغيراً اخر على العارضة التي في داخل المقهى، وعاد الى طاولة الشيخ. وضع الصحن الصغير

وصب الكونياك في الكأس حتى امتلأت.
وقال للشيخ الأصم: «لكان الافضل لو قتلت نفسك في الأسبوع الماضي». اما الشيخ فأشار بأصبعه، قائلاً: «مزيدا، بعد». فصب النادل المزيد في الكأس حتى فاض الكونياك وسال من على جوانبهما الى الصحن الصغير الذي يعلو كومة الصحون الاخرى. وقال الشيخ: «شكراً». واعاد النادل الزجاجة الى داخل المقهى. ثم جلس الى المائدة مع زميله مرة اخرى.
قال: «الان سكر».
«إنه يسكر كل ليلة».
«لماذا أراد ان يقتل نفسه؟».
«من اين لي ان اعرف؟».
«كيف فعلها؟».
«علّق نفسه بحبل».
«ومن قطع الحبل؟».
«ابنة أخيه».
«لماذا أنقذوه؟».
«خوفاً على روحه حين يواجه ربه».
«مامبلغ مالديه من المال؟».
«لديه الكثير».
«لا اظنه يقل عن الثمانين سنة».
«مهما يكن، فانه في الثمانين».
«ليته يذهب الى بيته. لايتاح لي ابداً أن آوي الى فراشي قبل الساعة الثالثة. أية ساعة هذه للنوم؟».

«هو يسهر لانه يحب السهر».

«إنه يشعر بالوحشة. انا لااشعر بالوحشة. ان لي زوجة تنتظرني في الفراش».

«كانت له هو ايضاً يوماً زوجة».

«لن تفيده الزوجة الان».

«ما ادراك؟ لربما كانت حاله افضل لو أن لديه زوجة».

«ابنة اخيه تعني به».

«اعرف. انت قلت انها قطعت له الحبل».

«لا اريد شيخوخة كهذه. العجوز شيء كريه».

«ليس دائماً. هذا العجوز نظيف. وهو يشرب دون ان يدلق. حتى وهو سكران، كما هو الان نظر اليه».

«لا اريد النظر اليه. ليته يذهب الى بيته. انه لايفكر في الذين عليهم ان يعملوا ليعيشوا».

وجه الشيخ عينيه من فوق كأسه نحو الميدان، ثم نحو النادلين. وقال، مشيراً الى كأسه: «كونياك اخر». فجاءه النادل الذي كان في عجلة من أمره.

«انتهى» قالها، متكلماً بذلك الايجاز الذي يحذف ضرورات اللغة والذي من عادة الاغبياء ان يلجأوا اليه حين يتحدثون الى السكارى او الاجانب. «لامزيد الليلة. نغلق الان».

«كونياك اخر» قال الشيخ.

«لا. انتهى» مسح النادل حافة الطاولة بمنشفة وهز رأسه.

نهض الشيخ، وببطء عدّ الصحون الصغيرة، واخرج محفظة نقود جلدية من جيبه ودفع ثمن ماشرب، تاركاً نصف بيزيتة اكرامية.

تابعه النادل بعينيه وهو يبتعد في الشارع ـ رجلاً طاعناً في السن يسير بغير ثبات ولكن بوقار.

تساءل النادل الذي لم يكن في عجلة من امره: «لماذا لم تدعه يبقى ويشرب؟» اخذا يغلقان الدُّرَف. لم تبلغ الساعة الثانية والنصف بعد».

«أريد ان أذهب الى البيت، الى فراشي».

«وما قيمة ساعة واحدة؟».

«هي لي اكبر مما هي له».

«لا. الساعة ساعة للجميع».

«انت تتكلم كالعجائز. أليس باستطاعته ان يشتري زجاجة، ويشرب في بيته؟».

«ليس ذلك نفس الشيء».

«لا، تمام. ليس ذلك نفس الشيء» قال النادل ذو الزوجة، موافقاً زميله. لم يكن يريد ان يظلم احداً، ولكنه في عجلة من امره، لاغير.

«وانت؟ ألا تخشى الذهاب الى البيت قبل ساعتك المعتادة؟».

«هل تحاول ان تهيننني؟».

«لا يارجل إني أفرح»

«لا»، قال النادل المستعجل، وهو ينهض من عملية سحب الباب المعدني الى الاسفل. «انا عندي ثقة. انا كلي ثقة».

قال النادل الاكبر سناً: «انت عندك شباب، وثقة، وعمل. عندك كل شيء».

«وأنت، ماالذي ينقصك؟».

«كل شيء إلا العمل».

«كل شيء عندي هو عندك».

«لا. ماكان عندي يوماً ثقة، ولا انا بشاب».

«بس يارجل. كف عن الكلام الفارغ، واقفل الابواب».

«انا من الذين يحبون السهر في المقهى حتى ساعة متأخرة»، قال النادل الاكبر سناً. «مع كل الذين لايريدون الذهاب الى فراشهم. مع كل الذين يحتاجون الى ضوء في ساعات الليل».

«انا اريد الذهاب الى بيتي، والى فراشي».

«نحن من صنفين مختلفين»، قال النادل الاكبر سناً. كان قد ارتدى ثيابه، وتهيأ للذهاب الى بيته. «والمسألة ليست فقط مسألة شباب وثقة ـ ولو أنهما شيئان في غاية الجمال. كل ليلة أحجم عن إغلاق المقهى لانني. اخشى ان هناك من ربما يحتاج اليه».

«يارجل، هناك حانات مفتوحة طيلة الليل».

«أنت لاتفهمني. هذا مقهى نظيف وشرح. وهو حسن الاضاءة. الاضاءة هنا جيدة جداً، ولدينا الان ايضا ظلال اوراق الشجرة».

«تصبح على خير»، قال النادل الأصغر سناً.

«تصبح على خير»، ردّ الاخر. إذ اطفأ الضوء الكهربائي، استمر في التحدث الى نفسه. السرّ في الضوء، طبعاً، ولكن من الضروري ايضاً ان يكون المكان نظيفاً وشرحاً. لاحاجة للموسيقى. لا، قطعاً، لاحاجة للموسيقى. ولا انت تستطيع أن تقف امام البار بأي وقار، رغم انه هو كل ما يتهيأ في هذه الساعات. ما الذي كان يخافه؟ لم يكن هو الخوف، او الرعب. كان لاشيئاً يعرفه تمام المعرفة. كل ما هناك لاشيء، والانسان ايضاً لاشيء. هذا كل ما هناك وكل ماهو بحاجة اليه هو الضوء وضرب من النظافة والترتيب. يعيش فيه البعض ولايشعر به

ابداً ولكنه يعلم أنه «نادا» ثم «نادا» ثم «نادا»*. نادانا الذي انت في نادا، ليكن اسمك نادا ونادا ملكوتك، ومشيئتك نادا في نادا كما هي في نادا. اعطنا نادانا كفافنا كل يوم ونادا لنا نادانا كما نحن نادا كل نادا الينا ولا تدخلنا في نادا ولكن خلصنا من نادا. ثم نادا. السلام عليك يا لاشيء، الممتلئة بلاشيء، لا شيء معك... ابتسم ووقف أمام عارضة البار وقد علاها جهاز القهوة البراق الذي يعمل بضغط البخار.

سأله ساقي البار: «ماذا تشرب؟».

«نادا».

«أطلب شيئاً اخر»، قال الساقي وازور عنه.

«فنجان صغير»، قال النادل.

فصب له الساقي فنجاناً صغيراً من القهوة.

«الضوء ساطع وشرح، ولكن البار غير مجلوّ»، قال النادل.

نظر إليه الساقي، ولم يجب. انها ساعة متأخرة لايطيب فيها الحديث.

«أتريد فنجاناً اخر؟» سأله الساقي.

«لا، شكراً»، قال النادل وخرج. كان يكره البارات والحانات. امّا المقهى النظيف، الحسن الاضاءة فشيء اخر بالمرّة. والان، دون المزيد من التفكير، سيذهب الى غرفته. وسوف يضطجع في فراشه، وفي النهاية، مع اول طلوع النهار، سيغرق في النوم. وقال لنفسه، لعل المسألة كلها، مسألة ارق. لابد أن الكثيرين يعانون منه.

(*) معناها بالاسبانية: لا شيء.

أيلول بلا مطر

وليم فوكنر
١٨٩٧ ـ ١٩٦٢

في عام ١٩٥٠، عندما تلقى وليم فوكنر جائزة نوبل للأدب في ستوكهولم وتكلّم عن واجبات الاديب بلغة جادة، فانه وضع نهائياً «مقاطعة يوكنا باتوفا» (وهي التسمية التي اطلقها على المنطقة التي عاش فيها في الجزء الشمالي من ولاية مسسبي) على خريطة العالم الادبية، وافلح في الوقت نفسه، على حد قوله المقتضب، في اجراء «خدش صغير على وجه انعدام الشهرة». وكان وراء كلماته المتواضعة هذه سجل رائع، رغم تفاوت اجزائه، من ست عشرة رواية واقاصيص ملأت سبعة مجلدات.

ان فوكنر سليل اسرة عريقة من اسر ولاية مسسبي ظهر فيها حاكم ولاية، وعقيد في الجيش الاتحادي، ومصرفيون، وبناة لسكك الحديد، ساهموا جميعاً في بناء مقاطعة لافايت ومدينة اوكسفورد،

مسسبي. وهو يصورهم، مع غيرهم من «الاسر العريقة»، بمزيج من الفخر والزراية في كتبه ـ كأسرة سارتوريس، وكمبسن، وستبن، ودي سبين، وبنبو ـ فقد كانوا يوماً مزارعين ارستقراطيين آلت الاحوال بخَلفَهم الى الفقر مع الكرامة، بل واسوأ من ذلك، الى السكر، والجنون، واليأس. فهذه الاسر، رغم ثقافتها ومحتدها، ضعيفة، وقد قاست كثيراً من خطيئة الرق في اراضيها. وافرادهايكفّرون عن هذه الخطيئة برنوهم الى بلدهم الامريكي وقد اخذت تغزوه عائلات طموحة من الطبقات الادنى منهم، كآل سنوبس، الذين نجحوا في استملاك الانهار والغابات والمزارع لهم ولاولادهم، وراحوا يهدرون القابهم المكتسبة حديثاً ويسيئون استغلالها. اما شخصيات فوكنر المأخوذة عن الزنوج والهنود الحمر، فأنه يصورها على الاغلب بكثير من التعاطف والاحترام، مع الشعور بأنها، بعد ان جرّدها البيض من حقوق ميلادها، غنمت من معاناتها بقسط من الكرامة وهدوء البال.

لقد قضى فوكنر معظم حياته في اكسفورد، مسسبي، حيث انهى الصف الخامس الابتدائي ثم الدراسة الثانوية على تقطع، ودخل اخيراً جامعة مسسبي من ١٩١٩ الى ١٩٢١. غير انه جنى علمه، كما حقق شخصيته، مستقلاً بنفسه وعلى غراره الخاص. كانت مطالعاته الاولى في الشعر الرومانسي، من نوع شعر سوينبرن، ثم طالع «الايماجيين» (الصوريين) المحدثين واساطين الادب من امثال شكسبير، وكيتس، وديكنز، وثاكري، وبلزاك. وطالع ايضاً جيمز جويس وتأثرت كتاباته بأدبه. وفي اثناء الحرب العالمية الاولى التحق بسلاح الجو الكندي، ولكنه لم يرسل الى فرنسا للقتال. وعاد الى اكسفورد، وشغل وظائف متباينة دونما استمرار، وعمل صباغاً لبنايات الجامعة، ثم مديراً لبريد الجامعة. كان يؤثر ان يعتبر نفسه

شاعراً ينظم الكثير من الشعر على طريقة «الايماجيين»، وقد نشر بعضاً منه فيما بعد. وفي طريقه الى اوروبا عام ١٩٢٥ ذهب الى مدينة نيو اورلينز، حيث لقي الاديب شروود اندرسن، وصمم على البقاء هناك وكتابة الروايات. وهناك كتب روايته الاولى «رواتب الجنود» ونشرها بمساعدة من اندرسن. واذ جعل عمله الكتابة، اخذ يصدر الكتابات القصار، والقصائد، والنقد، وينشرها في جريدة «تايمز بيكايون» ومجلة «دبل ديلر» ـ وكانت هذه مجلة للكتابة التجريبية يشترك في تحريرها كتّاب وفنانون من البوهيميين في الحي الفرنسي.

بعد سفرة قصيرة الى اوروبا استقر المقام بفوكنر على الكتابة. فأكمل راويتي «سارتوريس» و «الصخب العنيف» (١٩٢٩)، وحظيت الثانية باطراء من النقاد، وهي من اعظم روايات هذا القرن، غير انه لم يحصل على اية فائدة مالية من اي منهما. ولما كانت به حاجة الى مال عند زواجه، تعمد ان يكتب رواية «مثيرة» تستدر الفلوس، هي «الحَرَم» واذا بها تأتيه بشعبية كبيرة، ومبالغ ضخمة من المال، وعقد من هوليوود، وشهرة فاضحة.

كانت رواية «سارتوريس» قد هيأت النمط لكتبه اللاحقة التي تؤلف «قصة يوكناباتوفا»: وهي أشبه بمصغّر للجنوب تتآلف فيه اساليب عيش القدامى والمحدثين، ومدينة جفرسن، والتفاصيل الجغرافية، لتكوّن اقليماً وشجرة عائلية كلاهما اسطوري. وقد تتابعت رواياته لتضيف المزيد من الاحداث والمراحل الى هذه الاسطورة التي تمتد من ماقبل الحرب الاهلية الى الثلاثينات من هذا القرن. ويبدو ان هذه السجادة الرائعة نسجت على غير ما خطة مسبقة، الا ان فوكنر اخذ يعتبر كتاباته كلها «كتاباً» واحداً. فاذا

استثنينا رواية او اثنتين مما كتب، فان كل رواية كتبها انما اتت بالمزيد من التفاصيل للقصة الشاملة ـ لاسيما «نور في آب» (١٩٣١)، و «ابشالوم، ابشالوم!» (١٩٣٦)، و «الذين لايقهرون» (١٩٣٨)، و «دخيل في التراب» (١٩٤٩). اما خارج هذه القصة المتنامية فان له رواية، «خرافة» (١٩٥٤) تقع احداثها في الحرب العالمية الاولى في فرنسا على نحو يرمز الى صلب السيد المسيح. وفي عام ١٩٥٧ عاد الى حكاية آل سنوبس في رواية «البلدة» وهي جزء من ثلاثية تشمل ايضاً رواية «القرية».

اسلوب فوكنر بارع التنويع، وهو كثيراً مايتصف بالاطناب والبلاغة، ولكنه الى ذلك واقعي وسريع. وتجاربه في سياقات الزمن، ووجهات النظر، ومنظور الاحداث، تذكّر المرء بطوماس ولف وجيمز جويس. والعنف والصراحة في وصف الشذوذ الجنسي صفتان يوازنهما المؤلف بحسّه الجهم العميق للماضي وفكاهته العريضة .وكتاباته، رغم مافيها من اخطاء وتهويل، قد ضربت على وترٍ استجاب له عصرنا الراهن، ولقيت قرّاء في العديد من لغات العالم.

«ايلول بلا مطر» (١٩٤١) إحدى قصصه القصيرة التى تتركّز فيها، رغم رقعتها المحدودة، مزاياه الاسلوبية، كما يتبدّى فيها حسه الفاجع لهذا العنف الذي حل حلول اللعنة في الدم، والذي يتميز فوكنر في تصويره.

ايلول بلا مطر

عبرت عبور النار في الهشيم بين ثنايا الاصيل الايلولي الدامي، وهو من عقابيل اثنين وستين يوماً بلا مطر ـ هكذا عبرت الاشاعة، او القصة، مهما كانت. اقاويل عن الانسة ميني كوبر واحد الزنوج. لم يعرف احد منهم بالضبط ما الذي حدث، وقد تجمّعوا مباغَتين، مهانين، فزعين، في دكان الحلاق مساء ذلك السبت، حيث راحت مروحة السقف تحرّك الهواء الملوث دون ان تنقّيه، معيدةً عليهم في امواج متكررة من عبق زيوت الشعر الفاسد، انفاسهم وروائحهم الفاسدة.

«ولكن الذي فعلها لم يكن ويل ميز». قال ذلك احد الحلاقين، وهو رجل هزيل في منتصف العمر، شعره بلون الرمل، وديع الوجه، وهو يحلق لاحد الزبائن. «ويل ميز اعرفه. انه زنجي طيب. والانسة ميني كوبر اعرفها ايضاً».

فقال حلاّق ثان: «وما الذي تعرفه عنها؟».

وسأله الزبون: «ومن تكون؟ أفتاة شابة؟».

قال الحلاّق: «لا. أتصور انها في حدود الاربعين. وغير متزوجة. ولهذا فاني لا اصدّق ــ».

«تصدّق! كلام فارغ!» قالها شاب ضخم الجثة يرتدي قميصاً حريرياً ملوثاً بالعرق. «أتكذّب امرأة بيضاء وتصدّق زنجياً؟».

«لا اصدق ان ويل ميز فعلها»، قال الحلاق. «ويل ميز اعرفه».

«اذن لعلك تعرف من الذي فعلها؟ لعلك أخرأته من المدينة، ياعاشقاً ملعوناً للزنوج؟».

«لااصدّق أن احداً فعل شيئاً. ولا أعتقد أن أي شيء قد حدث. اتركها لكم ياأخوان ان تقولو لها كيف اأن السيدات حين يتقدمن في السنّ بدون زواج يتخيّلن أن الرجال لابد أن ــ».

فقال الزبون: «وتدعو نفسك رجلاً ابيض؟» وتململ من تحت فوطة الحلاّق. اما الشاب فقد نهض واقفاً على قدميه.

وقال: «لاتصدّق؟ اتتهم امرأة بيضاء بالكذب؟».

امسك الحلاق بالموسى موازناً اياها فوق الزبون الذي كاد ينهض، ولم يلتفت حوله.

قال رجل آخر: «انه هذا الطقس اللعين. بوسعه ان يجعل أي رجل يفعل أي شيء. حتى معها».

لم يضحك احد. وقال الحلاق بنبرته الوديعة العنيدة:

«انا لا اتهم احداً بشيء. إنما أعرف كما تعرفون ايها الاخوان ان المرأة التي في حياتها لم ــ».

فقاطعه الشاب: «قبّحك الله من عاشق للزنوج!».

فقال آخر: «اسكت يابوتش. لدينا وقت كاف لاستخراج الحقائق والعمل بموجبها».

قال الشاب: «من الذي سيستخرج الحقائق؟ حقائق، كلام فارغ! انا ــ».

قال الزبون: «أما انت فرجل ابيض رائع. اليس كذلك؟» كان يبدو وذقنه مكسوة بالرغوة اشبه بجُرذ صحراوي في فيلم سينمائي. وقال للشاب: «أخبرهم ياجاك. إذا لم يكن في هذه البلدة أي رجال بيض، فلك ان تعتمد عليّ، وان لم اكن إلا سمساراً ومن غير اهل البلدة».

قال الحلاق: «تماماً، ياشباب. إكتشفوا الحقيقة اولاً. ويل ميز اعرفه».

فصرخ الشاب: «عجيب، والله! ماكنت اتصور ان رجلاً أبيض في هذه البلدة ــ».

«اسكت يابوتش. لدينا وقت كاف».

انتصب الزبون جالساً. ونظر الى المتكلم». أتزعم ان هناك مايبرر تعدّي زنجي على امرأة بيضاء؟ أتريد ان تقول لي إنك رجل ابيض وتتحمل ذلك؟ خير لك أن تعود الى الشمال من حيث اتيت. نحن في الجنوب لا نريد أمثالك».

«أي شمال؟» قال الثاني: «أنا ولدت في هذه البلدة ونشأت فيها».

«عجيب، والله!» قالها الشاب والتفت حوله بعينين حائرتين مجهدتين، كأنه يحاول ان يتذكّر ما الذي اراد أن يقول أو يفعل. مسح وجهه العارق بردنه وقال:

«لعنني الله إن كنت سأسمح لامرأة بيضاء ــ».

«اخبرهم ياجاك»، قال السمسار: «والله العظيم، إذا هم ــ».

انفتح الباب المشبّك بعنف. ووقف رجل امامه، قدماه متباعدتان وجسمه المرصوص هيّن التوازن. كان قميصه الابيض مفتوحاً عند الحنجرة، وعلى رأسه قبعة لبّاد. اكتسحت نظراته الجريئة اللاهبة وجوه الجماعة. اسمه مَكْلندن، وكان في ايام الحرب قد تزّعم جنوداً في الجبهة في فرنسا،وأُنعم عليه بوسام الشجاعة.

قال: «ماهذا؟ اتظلّون قاعدين هنا وتدعون علجاً أسود يغتصب امرأة بيضاء في شوارع جفرسن؟».

قفز بوتش ناهضاً مرة اخرى، وقد التصق حرير قميصه بكتفيه الثقيلتين، وتحت كل من ابطيه نصف دائرة ملوثة، «هذا ماكنت اقوله لهم! هذا ماكنت ــ».

«هل حدث ذلك فعلاً؟» قالها رجل ثالث، ثم اردف:

«هذه ليست المرة الاولى تفزع فيها هذه المرأة من رجل، كما يقول هوكشو. ألم تتقوّل مرة قبل حوالي سنة عن رجل وقف على سطح المطبخ يراقبها وهي تخلع ثيابها؟».

فقال الزبون:«ماذا؟ماذا قلت؟» كان الحلاق يدفعه برفق نُزُلاً في المقعد، فأوقف نفسه عن الاضطجاع فيه، مرفوع الرأس، والحلاق مازال يدفع به نزلاً.

استدار مكلندن فجأة نحو المتكلم الثالث وقال: «حدث؟ وما أُهمية ذلك؟ أتسمحون لهؤلاء العلوج السود بالتملص من العقاب الى أن يفعلها احدهم حقاً؟».

«هذا ماكنت اقوله لهم؟» صاح بوتش، وراح يسبّ طويلاً وباستمرار، دونما هدف.

فقال رجل رابع: «اسمع. اخفض صوتك بلا صياح».

قال مكلندن: «طبعاً. لاحاجة الى الكلام. كلمتي قلتها وانتهيت. من منكم معي؟». وازن نفسه على اصابع قدميه، واجال بصره فيهم.

امسك الحلاق بوجه السمسار، وهو يـوازن الموسى. «اكتشفـوا الحقائق اولاً ياشباب. ويل ميز أعرفه. ليس هو الذي فعلها. لنذهب الى مأمور الشرطة ونتبع الاصول في هذا الامر».

ادارمكلندن عليه وجهه الحانق الصلب، ولم يشح الحلاق عنـه بعينيه. بدا كلاهما وكأنه لاينتمي الى جنس الاخر،وتوقف الحلاقون الاخرون ايضاً وهم منحنـون فوق الزبـائن المستلقين عـلى كراسي الحلاقة. وقال مكلندن:

«أتقصد أنك تصدّق عبداً اسود وتكذّب امرأة بيضاء؟ قبحك الله من عاشق للزنوج ـــ».

فنهض المتكلم الثالث وامسك بذراع مكلندن. كان هو ايضاً جندياً فيما مضى. «مهلاً مهلاً. دعنا نتأمل الامر. من الذي يعرف شيئاً عما وقع فعلاً؟».

نفض مكلندن ذراعه من قبضته وصاح: «نتأمل، كلام فارغ! من كان منكم معي، فلينهض. ومن ليس معي ـــ». واجال بصـره وهو يمسح وجهه بردن قميصه.

نهض رجال ثلاثة. وانتصب السمسار جاك على الكرسي وقال وهو ينتزع الفوطة الملتفة حول عنقه:

«هاك، انزع هذه الخرقة عنّي. انا معه. انا لست من اهل البلدة، ولكن قسماً بالله، ان كانت امهاتنا وزوجاتنـا واخواتنـا ـــ». غمر وجهـه بالفوطة ثم قذف بها ارضاً.

بينما وقف مكلندن مكانه وسبّ الاخـرين. ثم نهض رجل آخـر

وتحرك نحوه. اما الباقون فجلسوا غير مرتاحين، لاينظر بعضهم الى بعض، ثم نهضوا واحداً واحداً وانضموا اليه.

التقط الحلاق الفوطة من الارض، وراح يطويها بعناية. «ياشباب، لا تفعلوا ذلك. ويل ميز لم يفعلها قط. انا متأكد».

قال مكلندن: «هيّا بنا». واستدار. ومن جيب ردفه بان كعب مسدس أوتوماتي ثقيل. خرجوا.وانصفق الباب المشبك خلفهم وراح يرنّ في الجوّ الموات.

مسح الحلاّق الموسى بحذر وسرعة، ووضعها في مكانها، وهرول الى المؤخرة حيث تناول قبعته من الحائط وقال للحلاقين الاخرين: «سأعود حالما استطيع. لايمكنني ان ادع ــ». خرج راكضاً. ولما تبعه الحلاّقان الاخران الى الباب اصابهما عند ارتداده، وانحنيا الى الخارج ينظران اليه وهو يبتعد في الشارع. كان الهواء راكداً ميتاً، له مذاق المعدن عند قاعدة اللسان.

وقال احداهما: «ما الذي بوسعه ان يفعل؟» وردّد الآخر بصوت خفيض: «يا الله، يا الله. لن يفرّق مكلندن بين ويل ميز وهوكشو ان أغضبه صاحبنا هوكشو».

وهمس الآخر: «ياالله، ياالله».

وقال الأول: «أتظن انه فعلها بها حقاً؟».

ـ ٢ ـ

كانت في الثامنة والثلاثين او التاسعة والثلاثين من العمر، تقيم في بيت خشبي صغير مع امها المقعدة وخالة لها ضامرة، هزيلة، لاتنفك عن الحركة، وهناك كل صباح، بين التاسعة والعاشرة، تخرج الى

الشرفة الامامية لابسة قبعة نوم موشاة الحواف، لتقعد وتتأرجح في ارجوحة الشرفة حتى منتصف النهار. تنام بعد الغداء قليلاً، ريثما يتلطّف حر مابعد الظهر. وبعد ذلك ترتدي احد الفساتين القطنية الثلاثة او الاربعة التي كانت تقتنيها كل صيف، وتنزل الى المدينة لتنفق ساعات العصر في الحوانيت مع السيدات الاخريات، اللواتي يتلمّسن السلع بأيديهن ويتعاملن على الاسعار بأصوات آنية باردة، دون ان يقصدن الشراء.

كانت من اسرة على شيء من اليسار ـ لا من احسن الاسر، ولكن لا غبار عليها ـ وهي مازالت اقرب الى الَهيَف، عادية الهيئة، حركاتها وملابسها فيها شيء من الالفة وشيء من الارهاق. وقد كان لها ايام شبابها قوام متوتر اهيف وضرب من الحيوية الحادة اسعفتها لمدة من الزمن في ركب موجة الحياة الاجتماعية في المدينة كما تمثلها الحفلات المدرسية والكنيسة التي يساهم فيها معاصروها وهم مازالوا من الطفولة حيث لايحسّون بالفوارق الطبقية.

ولقد كانت هي آخر من ادرك أنها جعلت تنهزم، وأن هؤلاء الذين كانت فيما بينهم لهيباً المع وأضجّ من غيرها، أخذوا يتعلمون لذة السنوبية ـ كرجال ـ ولذة الردّ الانتقامي ـ كنساء. وعندها بدأ وجهها يتلبسّ تلك النظرة المتألقة المرهقة. واستمرت في حملها الى الحفلات المقامة في الشرفات الكبيرة المظللة والحدائق الصيفية، كقناع اوراية، وفي عينيها تلك الحيرة التى تلازم عيني من يرفض الواقع بعنف وذات مساء في احدى الحفلات سمعت ولداً وفتاتين يتحدثون، وكلهم اتراب مدرسة. فلم تقبل دعوة بعد ذلك قط.

كانت ترقب الفتيات اللواتي ترعرعت معهن وهن يتزوجن وينشئن البيوت ويلدن الاطفال، اما هي فلم يتردد عليها اي رجل بانتظام، الى ان جعل اطفال الفتيات الاخريات يدعونها «ياخالتي». ومرت السنوات، وامهاتهم يخبرنهم بأصوات براقة كيف كانت «الخالة ميني» محبوبة الجميع ايام صباها. ثم جعل اهل البلدة يرونها تخرج من السيارة بعد الظهر من ايام الاحد مع امين صندوق البنك. وكان هذا ارملا في حوالي الاربعين من العمر ـ متورد الوجه، تفوح منه رائحة خفيفة من دكان الحلاق او الويسكي. وقد اقتنى اول سيارة في البلدة، حمراء مكشوفة من ذوات المقعدين، وكانت ميني اول امرأة تشاهدها البلدة بقبعة ونقاب السياقة. بعد ذلك جعلت البلدة تقول: «مسكينة ميني». فيقول اخرون: «لقد كبرت، فلا بد انها تعرف كيف تعنى بنفسها». وكان في تلك الايام أنها اخذت تطلب الى رفيقاتها القدامى ان يوصين اولادهنّ بأن يسموها «بنت العم» بدلاً من «الخالة».

لقد مرت الآن اثنتا عشرة سنة منذ ان عزا اليها الرأي العام الزنى، وثماني سنوات منذ ان غادر امين الصندوق عمله الى مصرف في ممفيس، عائدا كل عيد ميلاد ليوم واحد يقضيه في حفلة سنوية للعزاب يقيمها احد نوادي الصيد المبنية على النهر. كان الجيران من وراء ستائرهم يتفرجون على الحفل وهو يمر، فيتحدثون اليها عنه عندما تزورهم زيارة عيد الميلاد، وكيف انه يبدو موفور العافية، وكيف انهم سمعوا عن ثرائه المتزايد من المدينة ـ ويرقبون باعين خفية براقة وجهها المتألق المرهق. وفي مثل تلك الساعة، عادة، يكون نفسها عابقا بالويسكي. وهذا الويسكي يجهزها به شاب من المقهى: «طبعا اشتريه لصاحبتنا القديمة. الا يحق لها شيء من المتعة؟».

لم تعد امها الان تبارح حجرتها، واوكلت ادارة البيت لخالتها. ازاء خلفية كتلك.كان في فساتينها الزاهية وايامها الخاملة الخاوية، شيء من نكران عنيف للواقع. لقد اصبح من دأبها الا تخرج في المساء الان الا برفقة النساء من جيرانها، الى السينما. فهي عصر كل يوم ترتدي احد فساتينها الجديدة وتنزل الى البلدة وحدها، حيث ترى «بنات عمها» الصبايا يتمشين برؤوسهن الحريرية الرقيقة واذرعهن الرفيعة القلقة وارادفهن الواعية، متشبثات بعضهن ببعض، أو صائحات مقهقهات برفقة صبية توزعوا معهن ازواجا في المقهى، فتمر بهم وتسير ازاء واجهات الدكاكين النظيمة، وقد جلس او اضطجع بابوابها رجال ما عادوا يتبعونها حتى باعينهم.

ـ ٣ ـ

سار الحلاق في الشارع حيث الاضواء المتباعدة، والهوام تدوم حولها، تشع وقد تعلقت جامدة عنيفة في فضاء بلا حياة. كان النهار قد مات في كفن من الغبار، وفوق الميدان المعتم المدثر بالغبار المنهك، كانت السماء صافية كبطن جرس من نحاس. وفي منحدر الشرق كان اثر من قمر تناقص مرتين.

ولما ادرك الحلاق الجماعة، كان مكلندن وثلاثة اخرون يدخلون سيارة واقفة في زقاق. احنى مكلندن رأسه السميك متطلعا من تحت سقف السيارة، وقال:

«غيرت فكرك اذن؟ حسنا فعلت. فوالله عندما يسمع اهل البلدة غدا بما قلت هذه، الليلة».

فقال الجندي القديم الآخر: مهلا مهلا. هوكشو الاغبار عليه. هيا ياهوكشو، أدخل».

«ويل ميز لم يفعلها، قال الحلاق. «هذا اذا فعلها أحد. فانتم تعلمون، كما اعلم انا، ان ليس هناك بلدة فيها زنوج اطيب من زنوجنا. وتعلمون كيف ان اية سيدة قد تتوهم عن الرجال امورا دونما سبب، وان الانسة ميني، على كل ــ».

«صحيح، صحيح»، قال الجندي. «سنذهب لنتحدث اليه قليلا. هذا كل ماهناك».

«كلام فارغ!» قالها بوتس، واردف. «عندما نفرغ من ابن الـ ــ».

«بربك اسكت!» قال الجندي. «اتريد كل من البلدة ــ».

«اخبرهم!» قال مكلندن. «اخبر كل علج يسمح لامرأة بيضاء ــ».

«لنذهب. لنذهب. هاهي السيارة الاخرى».

وخرجت السيارة الثانية، وهي تصر، من سحابة غبار عند رأس الزقاق. فشغل مكلندن سيارته واحتل المقدمة. والغبار في الشارع كالضباب، والاضواء معلقة، كل منها بهالة كما في الماء. وخرجت بهم السيارتان من البلدة.

انعطف الطريق في زاوية قائمة الى درب محدد، والغبار ايضا يعلوه ويعلو الارض كلها. وتصاعدت ازاء السماء كتلة سوداء، هي معمل الثلج حيث كان الزنجي ويل ميز يعمل حارسا في الليل. قال الجندي:

«اليس الافضل ان تقف هنا؟» لم يجب مكلندن بل قذف بالسيارة ثم رطمها، ومصباحاها يلهلبان على الجدار الأصم.

قال الحلاق: «اسمعوا ياشباب. اذا وجدناه هنا، اليس ذلك دليلا على انه لم يفعلها؟ قولوا بربكم. لو كان هو الذي فعلها لهرب. الا ترون انه لو فعلها لهرب؟» اقتربت السيارة الثانية منهم ووقفت. ترجل مكلندن، وقفز بوتش الى جانبه. وقال الحلاق:

«اسمعوا ياشباب».

«اطفىء المصابيح!» قال مكلندن. وانهار عليهم ظلام ساكن، لانأمة فيه سوى فحيح رئاتهم وهي تبحث عن الهواء في ذلك الغبار اللافح الذي عاشوا فيه طوال شهرين اثنين، ثم خشخشة متباعدة من اقدام مكلندن وبوتش، وبعدها صوت مكلندن:

«ويل!... ويل!».

في الشرق من بعيد ازداد نزف القمر الشاحب، وهو يصعد متثاقلا فوق الحافة، مفضضا الجو، والغبار، حتى بدوا كأنهم يتنفسون ويحيون في قدر من رصاص منصهر. لاصوت من عصفور ليلي او حشرة، لاصوت إلا تنفسهم ودقدقة خافتة من معدن يتقلص في السيارتين. وحيثما تلامست اجسامهم بدا كأنها تعرق بجفاف، لأن الرطوبة نضبت. وقال صوت:

«ياالله! لنترك هذا المكان!».

غير انهم لم يتحركوا الى ان جعلت اصوات تتنامى في الظلام الذي على مبعدة قليلة منهم. وعندئذ خرجوا.وهم ينتظرون بتوتر في ظلمة حية النفس. وكان ثمة صوت اخر: ضربة، وزفرة فحيحية، ومكلندن يشتم بصوت منخفض. وقفوا مكانهم لحظة اخرى، ثم ركضوا الى الامام. ركضوا متعثرين بعضهم ببعض، كأنهم يفرون من شيء ما.

«اقتله، اقتل العلج!» همس صوت. ولكن مكلندن دفع بهم الى الوراء.

وقال: «لاهنا. ادخلوه في السيارة».

وتمتم الصوت: اقتله، اقتل العلج الاسود!».

جروا الزنجي الى السيارة. اما الحلاق فقد بقي ينتظر قرب السيارة لقد احس بأنه يعرق، وادرك ان معدته ستنقلب عليه.

قال الزنجي: «ما الامر، ايها السادة؟ لم افعل شيئا. لا والله، ياسيد جون». اخرج احدهم زوجا من الاصفاد،وراحوا يتناولون الزنجي كأنه قطعة خشب، بهدوء وتصميم، بعضهم يتعثر ببعض. اذعن للاصفاد، وهو يتطلع بسرعة واستمرار من وجه مظلم الى وجه مظلم. «من انتم ايها السادة؟» قالها وهو يميل محدقا بالوجوه، حتى شعروا انفاسه وشموا رائحة عرقه. ونطق باسم او اثنين. «ما الذي تظنون انني فعلت» ياسيد جون؟».

فتح مكلندن باب السيارة بنتعة، وقال: «اركب!».

ولكن الزنجي لم يتحرك. «ما الذي ستفعلون بي، ياسيد جون؟ما فعلت شيئا والله. ايها السادة، ايها البيض الكرام، قسما بالله لم افعل شيئا». ونطق باسم اخر.

«اركب!» قال مكلندن. وضرب الزنجي. وراح الاخرون يتنفسون فحيحا وينهالون عليه بالضربات كيفما اتفق، فاستدار وسبهم وهوى بيديه المقيدتين عبر وجوههم، وجرح الحلاق في فمه، فضربه الحلاق ايضا. «ادخلوه في السيارة»، قال مكلندن. وراحوا يدافعونه الى ان كف عن المقاومة ودخل السيارة وجلس هادئا ريثما احتل الاخرون امكنتهم. لقد جلس بين الحلاق والجندي، مكوما اطرافه لكي لاتمسهما، وعيناه تتنقلان بسرعة واستمرار من وجه لوجه. اما بوتش، فقد تشبث بموطيء السيارة الخارجي. تحركت السيارة. والحلاق يكفكف دم فمه بمنديله.

قال الجندي:«مابك ياهوكشو؟».

قال الحلاق: «لاشيء». عادوا الى الطريق العام، وانعطفوا بعيدا عن البلدة. وابطأت السيارة الثانية قليلا تخلصا من الغبار. وظلوا في سيرهم، وازدادت سرعتهم. الى ان عبروا اخر البيوت المتناثرة على

حواشي الطريق.

«اف من رائحته، لعنه الله!» قال الجندي.

«سندبر امره حالا»، قال السمسار الجالس الى الامام بجانب مكلندن كان بوتش وهو على موطيء السيارة الخارجي يرسل شتائمه في وجه الهواء الحار المندفع عليه. وعلى حين فجأة انحنى ولمس ذراع مكلندن.

وقال: «دعني اخرج ياجون».

فأجاب مكلندن دون ان يلتفت برأسه: «اقفز الى الخارج؛ ياعاشق الزنوج». وزاد من سرعته. وراءهم كان ضوء السيارة الثانية يشعشع في الغبار. وبعد برهة انعطف مكلندن الى طريق ضيق، مخدد من قلة الاستعمال، يفضي الى اتون للقرميد مهجور ـ سلسلة من الاكوام الضاربة الى الحمرة والدنان المخنوقة بالاعشاب والدوالي لاقعرلها. وقد راح يجس بعود طويل دواخل الدنان، لكنه لم يجد حتى قعرا لها.

قال الحلاق: «جون».

«اقفز اذن» قال مكلندن، مندفعا بالسيارة على طول الاخاديد. وقال الزنجي الجالس قرب الحلاق:

«سيد هنري..»

جلس الحلاق منكبا الى الامام، والطريق كالنفق الضيق تندفع نحوهم وتمر بهم، وحركتهم اشبه بنفخة من تنور خامد، باردة لاحياة فيها ابدا. والسيارة تنطنط من اخدود لاخدود.

«السيد هنري»، قال الزنجي.

شرع الحلاق يتلمس الباب بعنف، وصاح الجندي: «خذ الحذر!»

غير ان الحلاق كان قد ركل الباب وفتحه،وانطلق الى موطيء السيارة، ولما انحنى الجندي عبر الزنجي محاولا الامساك به، كان قد قفز، واستمرت السيارة دون تخفيف من سرعتها.

لقد قذفته قوة الاستمرار من خلال الاعشاب المكسوة بالغبار، والقت به في الخندق. وتطاير الغبار من حوله وهو ملقى بين السيقان اليابسة الواخزة المخشخشة، يغرغر كالمختنق ويتهوع، الى ان مرت السيارة الثانية وتلاشى صوتها. ثم نهض وراح يعرج الى ان بلغ السكة العامة وانعطف نحو البلدة، وهو ينفض ثيابه بيديه. كان القمر قد ارتفع الان، وقد علا اخيرا حيث لا يحجبه اي غبار، وبعد قليل اخذت البلدة تتألق من بين الغبار. واستمر الحلاق في ترنحه. ثم سمع صوت سيارة ورأى وهجها يتنامى في الغبار من ورائه، فترك الطريق، وقبع ثانية بين الاعشاب الى ان مرت سيارتان. كانت سيارة مكلندن هذه المرة هي الاخيرة، وفيها اربعة رجال، ولم يكن بوتش واقفا على موطئها.

واستمرت السيارتان، وابتلعهما الغبار، وتلاشى الوهج والضجيج. وبقي غبارهما معلقا لفترة ما، ولكن سرعان ما استوعبه الغبار الابدي. فصعد الحلاق الى الطريق وراح يعرج في سيره نحو البلدة.

ـ ٤ ـ

عندما طفقت تبدل ثيابها للعشاء مساء ذلك السبت، احست بجسدها وكأنه حمى ترتديها. كانت يداها ترتجفان بين العرى والازرار، والحمى بادية في عينيها، وشعرها يموج ويخشخش تحت المشط. واذ كانت تلبس جاءتها صديقاتها وجلسن ينتظرن وهي

ترتدي اشف ثيابها الداخلية وجواربها وفستانا جديدا من «الفوال». وسألنها وفي اعينهن ايضا التماعة عتمة: «اتشعرين بالقوة على الخروج؟ بعد ان تتغلبي على الصدمة يجب ان تخبرينا بما حدث بما قال وما فعل. بكل شيء».

وفي عتمة الاشجار، وهن في طريقهن الى الميدان، اخذت تتنفس عميقا، اشبه بسباح يتهيأ للغوص، الى ان كفت عن الرجفة، واربعتهن وئيدات الخطى، لشدة الحر ورفقا بها. ولكنها أذ اقتربن من الميدان اخذت ترتجف من جديد، وهي تسير مرفوعة الرأس، مشدودة القبضتين على جانبيها، واصواتهن في همهمة حولها. وفي عيونهن ايضا ذلك الالتماع المحموم.

دخلن الميدان، وهي في وسط الجماعة، هشّة تتقصف في فستانهاالجديد. اشتدت رجفتها، وتباطأت في مشيتها اكثر فأكثر، كالاطفال يأكلون الدندرمة، مرفوعة الرأس، وعيناها تتألقان في راية وجهها الهزيلة، مارة بالفندق وبالدلالين المصطفين، بلا معاطف، على الكراسي التي على الرصيف وهم يتابعونها بأبصارهم: «تلك هي، اتراها؟ ام الفستان الوردي في الوسط». «اتلك هي؟ وما الذي فعلوا بالزنجي؟ هل ـ «طبعا ادبروه». «ادبوره حقا؟» «طبعا. ارسلوه في رحلة صغيرة». ثم مرت بالمقصف، وهناك حتى الشباب الجالسون في المدخل دفعوا قبعاتهم ولاحقوا بعيونهم حركة ردفيها وساقيها وهي تبتعد.

تابعن سيرهن، مارات برجال يرفعون قبعاتهم لهن، وبأصوات تتوقف فجأة اجلالا ورعاية لها. وقالت الاتراب: «اترين؟» واصواتهن كتنهدات طويلة مرفرفة، تنفث التشفي. «ليس في الميدان زنجي واحد. ولا واحد».

بلغن دار السينما، وهي اشبه بمصغر لعالم الجن بمدخلها المضاء وملصقاتها الملونة الكبيرة التي تصور الحياة في لحظات من طفراتها الرهيبة الرائعة. فجعلت شفتاها تنشجان. في الظلام، عندما يبدأ الفلم، سيكون كل شيء على مايرام، وستكبح ضحكها لكي لا يضيع منها سريعا. وهكذا فانها هرولت امام الوجوه الملتفتة، ونبرات الدهشة الخفيضة، واخذن امكنتهن المعتادة حيث تستطيع هي ان ترى الممر ازاء الوهج الفضي، ونرى الفتيان والفتيات يدخلون اثنين اثنين ازاءه.

تغامزت الاضواء وانطفأت. واتقدت الشاشة الفضية، ثم اخذت الحياة تنسرد، جميلة عاشقة حزينة، والفتيان والفتيات مازالوا يتقاطرون، معطرين مهسهسين في شبه الظلام، ووراءهم يتراكم الحلم الفضي، سائرا الى ما لامرد له. وجعلت تضحك، وبمحاولتها كبت الضحك، اشتد الصوت، وجعلت الرؤوس تلتفت. فأنهضتها صديقاتها وهي مستمرة في الضحك، واقتدنها الى الخارج، ووقفت على الرصيف وهي تضحك بنغمة عالية متواترة، الى ان جاءت سيارة الاجرة وساعدنها في الركوب.

خلعن عنها فستانها الوردي وملابسها الداخلية الشفافة وجواربها واضجعنها في الفراش، وكسرن الثلج لوضعه على صدغيها وارسلن في طلب الطبيب. واذ صعب ايجاده، اخذن يعالجنها بصيحات مكتومة، يجددن الثلج ويهفهفن لها. وفيما كان الثلج جديدا باردا كفت عن الضحك، وسكنت حركتها لمدة من الزمن، وهي تئن قليلا، ولكن سرعان ما انفجر فيها الضحك ثانية وعلا صراخها.

«شش ش ش! شش ش ش!» قلن، وهن يجددن الثلج، ويرتبن

شعـرها ويبحثن عن البيـاض فيه: «مسكينـة!» ثم قالت الواحـدة للأخرى: «اتعتقدين أن شيئا قد وقع لها بالفعل؟» وعيـونهن تلتمع التماعة معتمة، في تكتم وتشه. «شش ش ش ! مسكينـة! مسكينة ميني!».

- ٥ -

كان الليل قد انتصف عندمـا عاد مكلنـدن في سيارتـه الى بيته الجديد الانيق. كان بيتا قشيبا ككفص عصفور، ويكاد يكون صغيرا مثله، بطلائه الابيض والاخضر النظيف.. اقفل السيارة، وصعد درج الشرفة، ودخل. فنهضت زوجته من كـرسي قرب مصبـاح القراءة. فوقف مكلندن مكانه ونظر اليها الى ان اخفضت بصرها.

«انظري إلى الساعة»، قال ذلك، رافعا ذراعه، ومؤشرا. ووقفت امامه، مخفضة وجهها، وفي يدها مجلة. كان وجهها شاحبا، مرهقا، بادي التعب. «الم اقل لك لاتجلسي هكـذا في انتظاري لتعـرفي متى

www.library4arab.com

اعود».

قالت: «جون». ووضعت عنها المجلة. أما هو فقد وازن نفسه على أصابع قدميه، وحدجها بعينيه اللاهبتين، ووجهه يتصبب عرقا.

«الم اقل لك؟» وسار نحوها. وعندها رفعت وجهها إليه. فأمسك بكتفيها. ووقفت سالبة، تنظر اليه.

«كفى ياجون. لم استطع النوم... الحر، شيء ما.. ارجوك، جون. انك تؤلمني».

«الم اقل لك؟» وافلتها، نصف ضارب لها، نصف ملق بهـا على الكرسي، وبقيت مكانها ترقبه بهدوء وهو يخرج من الغرفة.

مشى خلال البيت وهو ينزع قميصه، ووقف على الشرفة الخلفية

ومسح رأسه وكتفيه بقميصه وقذف به عنه. واخرج المسدس من جيب ردفه ووضعه على الطاولة قرب السرير، وجلس على السرير وخلع حذاءيه، ووقف ونزع بنطلونه. كان قد اخذ يعرق من جديد، فانحنى يبحث بعنف عن قميصه. واخيرا وجده. فمسح به جسمه، ووقف يلهث وقد اتكأ بجسمه على مشبك الشرفة المغبر. لم يكن ثمة حركة، أو صوت حتى ولا حشرة. وبدا كأنما الدنيا المظلمة قد سقطت طعينة تحت قمر جامد ونجوم لا أجفان لها تطبقها.

www.library4arab.com

جبرا ابراهيم جبرا

ـ درس في الكلية العربية بالقدس، وجامعة كمبردج بانكلترا، وجامعة هارفرد في الولايات المتحدة.

ـ عمل استاذاً للأدب الانكليزي في كليات جامعية لما يقارب عشرين عاماً، وكان أحد اثنين أسسّا قسم الأدب الانكليزي في كلية الآداب ببغداد عام ١٩٤٩.

ـ أصدر حتى الآن اربعة وخمسين كتاباً، ما بين موضوع ومترجم.

ـ له أعمال روائية عديدة، كان آخرها «الغرف الاخرى».

ـ له ثلاث مجموعات شعرية، وعدة مجموعات نقدية، آخر ما نشر منها «الفن والحلم والفعل».

ـ أحدث كتابين له (عام ١٩٨٧) هما: «البئر الاولى، فصول من سيرة ذاتية» و«بغداد بين الاحلام والايام» بالاشتراك مع إحسان فتحي، صدر في بغداد.

www.library4arab.com

ـ أصدرت له دار المأمون حديثاً ترجماته لخمس من مسرحيات شكسبير الكبرى، وترجمة «شكسبير والانسان المستوحد» لجانيت ديلون.

ـ فاز في عام ١٩٨٣ بجائزة اوربا للثقافة، من منتدى الآداب العالمية بروما.

ـ فاز في عام ١٩٨٧ بجائزة الآداب والفنون من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

ـ رئيس تحرير مجلة «فنون عربية» (المحتجبة حالياً).

ـ رئيس رابطة نقّاد الفن في العراق.

www.library4arab.com

دار المأمون للترجمة والنشر

تأسست في منتصف عام ١٩٨٠ لتتولى مسؤولية الترجمة ونشر المطبوعات الدورية الناطقة باللغات الاجنبية والمطبوعات المترجمة من والي اللغة العربية وبما يؤمن الاسهام الفعال في عملية التواصل والتفاصل الحضاريين بين العراق والعالم .

تصدر دار المأمون الصحف التالية :ـ

١ ـ جريدة بغداد اوبزرفر ـ يومية سياسية ناطقة باللغة الانكليزية .

www.library4arab.com

٢ ـ مجلة بغداد ـ شهرية سياسية عامة ناطقة باللغة الفرنسية .

٣ ـ مجلة كلكامش ـ مجلة الثقافة العراقية الحديثة ـ فصلية ثقافية ناطقة باللغة الانكليزية .

وتترجم الدار كتبا من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية واخرى من اللغات العربية الى اللغات الاجنبية وتصدرها .

كما تقدم خدمات الترجمة الفورية والتحريرية للمؤتمرات والندوات الدولية داخل العراق وخارجه .

www.library4arab.com

صدر عن دار المأمون الكتب الآتية المترجمة الى العربية
حسب تاريخ نشرها

العنوان	تأليف	ترجمة
١.دليل مترجم المؤتمرات	جان هيربرت	سميرعبد الرحيم الچلبي
٢.رباعية الحرب (قصيدة من الادب الانكليزي)	جورج ماكبث	ياسين طه حافظ
٣.فن الرواية (دراسة نقدية)	كولن ولسن	محمد درويش
٤.العاصفة (مسرحية من الادب الانكليزي)	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٥.كلب الصيد الابيض ذو الاذن السوداء (رواية من الادب الروسي)	جافرييل تروبيولسكي	عبد الواحد محمد
٦.مكبث (مسرحية من الادب الانكليزي)	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٧.الملك لير (مسرحية من الادب الانكليزي)	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٨. بين الفن والعلم (دراسة نقدية)	دولف رايسر	د.سلمان الواسطي
٩.مدن لامرئية (رواية من الادب الايطالي)	ايتالو كالفينو	ياسين طه حافظ

www.library4arab.com

١٠.بلاد الثلوج(رواية من الادب الياباني)	يوسوناري كاواباتا	لطفية الدليمي
١١.السيدة دالاواي (رواية من الادب الانكليزي)	فرجينيا وولف	عطا عبد الوهاب
١٢.جن (رواية من الادب الفرنسي)	الان روب غرييه	د.سعيد علوش وخديجة بناني
١٣.عطيل (مسرحية من الادب الانكليزي)	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
١٤.هاملت (مسرحية من الادب الانكليزي)	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
١٥.شكسبير والانسان المستوحد (دراسة نقدية)	جانيت ديلون	جبرا ابراهيم جبرا
١٦.الحداثة (الجزء الاول) (دراسة نقدية).	مالكم برادبري وجيمس ماكفرلن	مؤيد حسن فوزي
١٧.القطار السريع(رواية من الادب الالماني)	ارمكارد كوين	اقبال ايوب
١٨.صناعة المسرحية (دراسة نقدية)	ستيورات غريفتش	عبدالله الدباغ
١٩.الازهار البرية (مجموعة قصص قصيرة من الادب الامريكي)	ارسكين كالدويل	علي الحلي
٢٠.حبة قمح(رواية من الادب الافريقي)	نغوغي واثيونغو	[illegible] ابراهيم
٢١.قبو البصل (مجموعة قصص قصيرة من الادب الالماني)	عشرون قاصاً المانياً	د.سامي حسين هاشم

٢٢.معجم التعابير الاجنبية في اللغة الانكليزية	ب.أ.فثيان	سمير عبد الرحيم الچلبي
٢٣.مصطلحات المؤتمرات (دليل لأعضاء المؤتمرات والمترجمين)	جان هيربرت	سمير عبد الرحيم الچلبي
٢٤.مذكرات ماكس مالوان (عالم الاثار زوج اجاثا كريستي)		سمير عبد الرحيم الچلبي
٢٥.الثعلب (رواية من الادب الانكليزي)	د.هـ.لورنس	نمير عباس مظفر
٢٦. الرجل العاشر (رواية من الادب الانكليزي)	غرَيَم غرين	هادي عبد الله الطائي
٢٧.طريق فلاندرا (رواية من الادب الفرنسي)	كلود سيمون	باسيل قوزي
٢٨.جويس (دراسة نقدية)	جون كروس	عبد الوهاب الوكيل
٢٩.النفق (رواية من الادب الاسباني)	آرنستو ساباتو	مروان ابراهيم صديق
٣٠.حوار الرؤية (دراسة فنية)	ناثان نوبلر	فخري خليل
٣١.ملحمة رامايانا	ر.ك. رامايان	د.جوزيف نادر بولس
٣٢.الخطوات الضائعة (رواية من الادب الكوبي)	اليخو كاربنتير	سالم شمعون
٣٣.الورقة الخضراء (مختارات شعرية من الادب السوفيتي المعاصر)	ايغور يرماكوف	د. عباس خلف
٣٤.الانطباعية	جان ليماري	فخري خليل

٣٥.الموسوعة المسرحية	جون رسل تيلر	سمير عبد الرحيم الچلبي
٣٦.اللغة في الادب الحديث - الحداثة والتجريب -	جاكوب كورغ	ليون يوسف وعزيز عمانوئيل
٣٧.بحر ساركاسو الواسع	جين ريز	فلاح رحيم جاسم

يصدر تباعاً

العنوان	تأليف	ترجمة
٣٨.الحرب والمجتمع في اوربا(١٨٧٠-١٩٧٠)	براين بوند	سمير عبد الرحيم الچلبي
٣٩.فن الشرق الادنى القديم	ستين لويد	محمد درويش
٤٠. الحلو - المر (قصص فرنسية قصيرة)	موريس بونس	رعد اسكندر
٤١. محاضرات نابوكوف	فريدسن باورز	ناجي صبري الحديثي
٤٢.الاثر المتبادل للعقل والجسم	هربرت بنسن	د.محمد جابر علي
٤٣.الحداثة - الجزء الثاني	مالكم برادبري وجيمس ماكفرلن	مؤيد [illegible]
٤٤.الاوهام المرئية - فنها وعلمها	نيكولاس ويد	مي مظفر
٤٥.نساء عاشقات	د.هـ.لورنس	امجد حسين

أيلول بلا مطر

أصحاب القصص في هذا الكتاب يمثلون المع من كتب القصة والرواية في اللغة الانكليزية في القرن العشرين. وقد عمد المترجم في اختيارهم، واختيار قصصهم، إلى تقديم صورة متكاملة، رغم رقعتها المحدودة، عن الفن القصصي الذي كان لهم اكبر الاثر في تطويره كأداة لاستقصاء ازمة الانسان في هذا العصر - فضلاً عما اضافوه إلى هذا الفن من مضاء اللغة والاسلوب والرؤية.

www.library4arab.com

السعر ١,٥٠٠ فلس

دار المأمون للترجمة والنشر